الخطب المنبرية من المسجد النبوي

تأليف

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

الجزء الرابع

الخُطَبُ المِنْبَرِيَّة
مِنَ
المَسْجِدِ النَّبَوِيّ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد المحسن بن محمد

الخطب المنبرية من المسجد النبوي (الجزء الرَّابع)./ عبد المحسن بن محمد القاسم

- ط١. . - المدينة المنورة، ١٤٤٣هـ

ص ٤٤٨، ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٩-٩٧٧٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ـ خطبة الجمعة أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٣/٤٥٨٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٤٥٨٨

ردمك: ٩-٩٧٧٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ ـ ٢٠٢٢م

الخطب المنبرية

من

المسجد النبوي

تأليف

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

الجزء الرابع

يمكن تحميل هذه الخطب أو الاستماع لها على الرَّابط:

a-alqasim.com/khotab/

الباب الرَّابع عشر

العَامُ الجَدِيدُ وَالإِجَازَةُ

وفيه فصلان:

الفصل الأوَّل : بداية العَام.

الفصل الثَّاني : الإِجَازَة الصَّيفيَّة.

الفصل الأوَّل

بِدَايَةُ العَامِ

اسْتِقْبَالُ العَامِ(١)

الحمد للَّه المبدئِ المُعِيد، أَسْبَغَ علينا النِّعَمَ وهو الوَلِيُّ الحَمِيد، لا هَادِيَ لِمَنْ أَضلَّ ولا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى، وهو الفعَّالُ لِمَا يريد.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، شهادةً بها نجاتُنا من العذاب الشَّديد.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، أعظِمْ به رسولاً، وأكرِمْ به عبداً، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه خيرِ العَبيد، ومَنْ تَبِعَهُم وسار على نهجهم إلى يوم الوعيد.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فمَنِ اعتَصمَ بحبلِ رجائه أَيَّده وهداه، ومَنْ لَجأَ إليه كَلأَه ورَعَاه.

أيُّها المسلمون:

اللَّيلُ والنَّهارُ يُقَرِّبان كلَّ بعيدٍ، ويأتيان بكلِّ موعودٍ، والمؤمنُ بيْن مخافتين: أجلٍ قد مضى لا يدري ما اللَّهُ صانعٌ فيه، وأجلٍ قد بقي لا يدري ما اللَّه قاضٍ فيه، وفي مطلَع العام تُستفتحُ صفحاتٌ من الأعمال

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثاني من شهر محرَّم، سنة إحدى وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

بيضاء؛ لا يدري العبدُ ماذا يُسَطَّرُ فيها، ويروحُ إلى أجلٍ قد غُيِّب عنه عِلمه.

وفي مراحلِ العُمُر، وتقلُّباتِ الأيام وقفاتٌ يُحاسِبُ فيها الحَصِيفُ نفْسَه، فيَستثقِلُ ذنْبه، ويَستغفرُ ربَّه، ويراجعُ أعمالَه؛ فمِنَ الخيرِ يَزداد، وعن التَّقصير يُقْلِع، ولا يزالُ العبدُ على هُدًى ما كان له واعظٌ من نفْسِه وكانتِ المحاسبة مِن همَّته؛ يقول الحسنُ البَصريُّ ﵀: «إِنَّ أَيْسَرَ النَّاسِ حِسَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ: الَّذِينَ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَوَقَفُوا عِنْدَ أَعْمَالِهِمْ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي هَمُّوا بِهِ لِلَّهِ مَضَوْا فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَمْسَكُوا، وَإِنَّمَا يَثْقُلُ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى الَّذِينَ جَازَفُوا الأُمُورَ فَأَخَذُوهَا مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ؛ فَوَجَدُوا اللَّهَ قَدْ أَحْصَى عَلَيْهِمْ مَثَاقِيلَ الذَّرِّ».

وما حقيقةُ الأعمارِ إلَّا أعوامٌ، وما الأعوامُ إلَّا أيَّامٌ، وما الأيَّامُ إلَّا أنفاسٌ، وإنَّ عُمُراً يُقاسُ بالأنفاسِ لَسريعُ الانصرام، وحوادثُ الدَّهرِ عِدَّةٌ، وعِبَرُ الأيَّامِ جَمَّة؛ مدائنُ تُعْمَر وأخرى تُدَمَّر، يُصبِحُ ابنُ آدمَ مُعَافًى في صحَّته، ثمَّ يُمسي في أطباقِ الثَّرى؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**» (رواه مسلم).

إنَّها الدُّنيا، العيشُ فيها مذمومٌ، والسُّرورُ فيها لا يدوم، تُغيِّرُ صفاءَها الآفات، وتَفْجَعُ فيها الرزايا، ولا يَعرفُ حقيقتَها بِصَفْوِها وكَدِرها إلَّا المحاسِبُ نفْسَه، ومَن لم يحاسِبْ نفْسه فحياتُه همومٌ وآلامٌ وحسراتٌ.

أيُّها المسلمون:

إنَّ تغيُّرَ الأحوالِ وانقضاءَ الآجال وانقطاعَ الأعمالِ والآمال وما يَحْدُثُ فيها من الفواجع والأهوال؛ كلُّ ذلك يُشْعِرُ بعجز المخلوقِ وضعْفِه وشدَّةِ افتقاره إلى بارئه؛ فالدنيا محفوفةٌ بالأنكاد والأكدار، مشحونةٌ بالمتاعب مملوءةٌ بالمصائب، طافحةٌ بالأحزان والأكدار؛ يقول اللَّه ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾؛ نَعيمُها يزول، وسعيدُها يَشقى، وعزيزُها يَذِلُّ، مُزِجتْ أفراحُها بأتراحٍ، وحلاوتُها بمرارةٍ، وراحتُها بتعبٍ، لا يدومُ لها حالٌ، ولا يَطْمَئِنُّ لها بالٌ، فأيُّ امرئٍ سَلم فيها من العَنَت؟! وأيُّ امرئٍ لم تَمَسْه المصيبة؟!

الإنسانُ فيها معرَّضٌ للأمراض والأعراض، عَيشُها حَقيرٌ وزمانُها قصيرٌ، الأحوالُ فيها إما نِعَم زائلةٌ، وإما بلايا نازلةٌ، وإمَّا منايا قاضيةٌ؛ قيل لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «صِفْ لَنَا الدُّنْيَا، قَالَ: مَنْ صَحَّ فِيهَا مَا أَمِنَ، وَمَنْ سَقِمَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ»، وقد ذكر اللَّه ﷻ حقيقتها بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

والمؤمنُ في الدنيا كالغريب؛ لا يَجْزَعُ من ذُلِّها، ولا يُنافسُ في عِزِّها، له شأنٌ وللنَّاس شأنٌ، يقول المصطفى ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ**» (رواه مسلم).

ومَن عَرفَ الدُّنيا حقَّ المعرفةِ لم يَفرحْ فيها برخاءٍ، ولم يَحْزنْ على بلاءٍ، والحياةُ بغير الدِّينِ تَحُفُّها المُنغِّصات، وأَسعدُ النَّاسِ بها أرغبُهم عنها، وأشقاهم بها أرغبُهم فيها، الفائزُ من أَعرض عنها، والهالكُ مَن رغِب فيها؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**» (رواه الترمذي).

فإيَّاكم والاغترارَ بِزَهرتها! فقد اغترَّ قومٌ قبلكم فأوردتْهم مَواردَ العَطَب، أَبْهَرَتْهم بِرَوْنَقها فما أفاقوا إلَّا وهم في عِدَاد الموتى؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» (متفق عليه).

أيُّها المسلمون:

في انقضاءِ العامِ تَذَكُّرٌ بانقضاءِ العمرِ وسُرعته، ومُرورُ الأيامِ تُذكِّرُ بِقُرْبِ الرَّحيل، وتُوشِكُ الأرضُ أن تُدالَ منَّا كما أَدَلْنا منها؛ فتأكلَ أجسادَنا وتَشربَ دماءَنا، كما مَشَيْنا على ظهرها، وأَكلْنا مِنْ ثمارها، وشَرِبْنا من مائها.

وليلتانِ اجعلْهما في خَلَدِك: اللَّيلةُ التي في بيتِك مُنَعَّماً سعيداً، واللَّيلةُ التي تَلِيها في القبر وحيداً فريداً؛ والموتُ يُكْثِرُ من نزْعِ روحِ مَن في زهرة الحياة، يقول ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَقَلَّ مَنْ يَمُوتُ الأَشْيَاخُ، وَأَكْثَرَ مَنْ يَمُوتُ الشُّبَّانُ؛ وَلِهَذَا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبُرُ»؛ فاحذرِ الاغترارَ بالسَّلامةِ والإمهال، ومتابعةَ كواذيبِ المُنَى والآمال!

وكلُّ عملٍ كَرِهْتَ الموتَ مِن أجْله فاتركْه، ثمَّ لا يَضُرُّك متى مِتَّ، واعملْ لآخرتك؛ يَكْفِكَ اللَّهُ أمرَ دنياك، وَبِعْ دنياك بآخرتك؛ تَربحْهُما جميعاً، يقول عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصّاً لَنَا - أَيْ: بَيْتاً مِنْ خَشَبٍ وَقَصَبٍ -، فَقَالَ: **مَا هَذَا؟** فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ: **مَا أَرَى الأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ**» (رواه الترمذي).

عبادَ اللَّه:

مَهِّدوا لأنفسكم قبل أن تُعَذَّبوا، وتَزَوَّدوا للرحيل قبل أن تُزْعَجوا؛ فإنما هو موقفُ عدلٍ واقتضاءُ حقٍّ، وسؤالٌ عن واجبٍ، وخيرُ الزَّادِ ما صحِبَهُ التَّقوى، وخيرُ العملِ ما تَقَدَّمَهُ صالحُ النِّيَّة، وأعلى النَّاسِ منزلةً عندَ اللَّهِ أخوَفُهم منه، ومَنْ قارَبَ ساحِلَ الأجلِ اغتنمَ اللَّحظاتِ، يقولُ يحيى بنُ معاذٍ رحمه الله: «العُقَلَاءُ ثَلَاثَةٌ: مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ تَتْرُكَهُ، وَبَنَى قَبْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهُ، وَأَرْضَى خَالِقَهُ قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ»؛ فالدُّنيا مَعْبَرٌ، ينبغي للإنسان أن لا يُنافِسَ بِلَذَّاتها، وأن يَعْبُرَ الأيَّامَ بها، ولا يأمنَ التَّحَوُّلَ منها؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ**» (متفق عليه).

والعاقلُ حقّاً مَن تَغَلَّبَ على طولِ الأملِ بتَذَكُّرِ الموت، وإنَّ زيارةَ المقابرِ، وتَغسيلَ الموتى، وعيادةَ المرضى، تُوقِظُ القلوبَ، وتُذَكِّرُ بالمصير المحتوم، وإنَّ كُؤُوسَ التسويفِ لن تَسْقِيَك سِوى ندامةٍ تَتجرَّعُ

مَرَارتَها؛ فبادرْ بإطفاء ما أُوقِد من نيران الذُّنوب؛ فدمعةُ التَّائبِ تُطْفِئُ نارَ الغضب، وامحُ بالتَّوبة زَلَّتَك، وإذا أصبحتَ فتأمَّلْ ما مضى مِنْ ليلتِك.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

إنَّ نصيبَ الإنسانِ من الدُّنيا عُمُره؛ فإنْ أَحْسنَ اغتنامَه فيما يَنفعُه في دار القرار؛ فقد ربِحَتْ تجارتُه، وإِنْ أساءَ استغلالَه وأكثرَ من المعاصي والسَّيِّئات؛ بَارَتْ بِضاعتُه، وكم مِنْ حسرةٍ أَنَّتْ تحت الثَّرى؟

والرَّشيدُ مَن حاسبَ نفْسَه قبل أن يُحاسِبَه اللَّه، والمُوفَّقُ مَن اغتَنَمَ وقْتَه وعَرفَ دواءَه من دائه ولم يُهْمِلْ فيُهْمَل، ودَعْ عنك الذُّنوبَ؛ فترْكُ الذَّنْبِ أيسرُ عليك من طلبِ التَّوبة، والخيرُ كلُّه بحذافيره في الجَنَّة؛ فأدْلِجوا في السَّير إليها، والشَّرُّ كلُّه بحذافيره في النَّار؛ فاجتَهدُوا في الهَرَبِ منها.

والحياةُ ميدانٌ فسيحٌ لصالح الأعمال، وها أنتم ازدَلَفْتُم إلى عام جديد، وقد وَدَّعْتُم عاماً من عُمُرِكم مضى بما أَوْدَعْتُموه من عملٍ، والسَّعيدُ مَنِ استودع مدة عُمُره صالحاً من عمله، والشَّقيُّ مَنْ شهدتْ عليه جوارحُه بقبيح زَلَلِه.

فاحفظوا أَيَّامَ أعمارِكم قبْل تَفَرُّدِكم في قبوركم، واغتنموا أَيَّام حياتكم قبل الفوات، وأَكرموا نُزُلَ عامِكم الجديدِ بالطَّاعات.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

مَطْلَعُ العَامِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عباد اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

اللَّيالي والأيَّامُ خزائنُ الأعمالِ ومراحلُ الأعمار؛ تُبْلِي الجديدَ وتُقَرِّبُ البعيد، أعوامٌ تَتْرى، وأجيالٌ تَتَعاقبُ على دَرْبِ الآخرة، فهذا مُقْبِلٌ، وذاك مُدْبِرٌ، وهذا صحيحٌ، وآخرُ سقيمٌ، والكلُّ إلى اللَّه يَسير، أيامٌ تَمُرُّ على أصحابِها كالأعوام، وأعوامٌ على أصحابِها كالأيَّام، وفي سَيْرِها عِبْرةٌ ومُدَّكرٌ للجميع؛ قال ﷻ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

وقد وَدَّع الناس عاماً من أعمارِهم استَودعوا فيه أعمالَهم؛ تُنْشرُ

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثامنَ والعشرين من شهر ذي الحِجة، سنة تسع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

يومَ الحشرِ أمامَهم: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾؛ فَطُوبى لعبدٍ انتفعَ بعُمُرِه، فاستَقبلَ عامَه الجديدَ بمحاسبةِ نفْسِه على ما مضى، ووقَفَ مع نفْسِه وقفةَ حسابٍ وعِتابٍ؛ يُصحِّحُ مسيرتَها، ويتداركُ زلَّتَها، يَتَصفَّحُ في ليلِه ما صدرَ منه من أفعالِ نهارِه.

وصلاحُ القلبِ بمحاسبةِ النَّفس، وفسادُه بإهمالها؛ قال ابن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَفْضَلُ ذَوِي العُقُولِ مَنْزِلَةً: أَدْوَمُهُمْ لِنَفْسِهِ مُحَاسَبَةً»، وغيابُ محاسبةِ النَّفْسِ نَذِير غَرَقِ العبدِ في هواه، وما أردى الكفَّار في لُجَجِ العَمَى إلَّا ظنُّهم أنهم يَمْرَحُون كما يشتهون بلا رقيبٍ، ويَفرحون بما يَهْوَوْن بلا حسيبٍ؛ قال سبحانه عنهم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾.

والاطلاعُ على عيبِ النَّفْسِ وَنقائصِها يُلْجِمها عن الغَيِّ، ومعرفةِ العبد نفْسَه وأنَّ مآلَه إلى القبر؛ يُوْرِثه تَذَلُّلاً وعبوديَّةً للَّه، فلا يَعْجَبْ بِعملِه مهما عَظُم، ولا يَحْتَقرْ ذنْباً مهما صَغُر، والتَّعرُّفُ على حقِّ اللَّهِ وعظيم فضْله وآلائه؛ يُطَأْطِئُ الرَّأسَ للجبَّار جَلَّ وَعَلَا، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِدَايَةُ المُحَاسَبَةِ: أَنْ تُقَايِسَ بَيْنَ نِعْمَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجِنَايَتِكَ؛ فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ لَكَ التَّفَاوُتُ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ أَوِ الهَلَاكُ وَالعَطَبُ»، وتفقُّدُ عيوبِ النَّفس يُزَكِّيها ويُطَهِّرُها؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

وإنَّ أضَرَّ ما على المكلَّف: إهمالُ النَّفْسِ وترْكُ محاسبتِها والاسترسالُ خلْفَ شهواتِها حتى تَهْلِك، وهذا حالُ أهلِ الغرورِ الذين لا يَحْتَرِزُون من الوقوع في المعاصي، ويَتَّكِلون على العفو والرَّحمة،

وإذا فَعلوا ذلك سَهُلَتْ عليهم مواقعةُ الذُّنوبِ وصَغُر في أعينِهم وبالُها، واللَّهُ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَلِيقُ بِالمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُعَاتِبَ نَفْسَهُ، وَأَمَّا الفَاجِرُ فَيَمْضِي قُدُماً لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

والمؤمنُ قوَّامٌ على نفْسِه يُحاسبُها؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وإنَّما خَفَّ الحسابُ على قومٍ حاسبوا أنفسَهم في الدُّنيا، وشقَّ الحسابُ على قومٍ أَخذوا هذا الأمرَ من غيرِ محاسبة؛ فَتَوَقَّ الوقوعَ في الزَّلَّة، فتَرْكُ الذَّنبِ أَيسرُ مِنْ طلبِ التَّوبة.

وأَنِّب نفْسَك على التَّقصير في الطَّاعات؛ فالأيَّامُ لك لا تَدوم، ولا تَعلم متى تكون عن الدُّنيا راحِلاً، وخاطبْ نفْسَك: ماذا قَدَّمْتَ في عامٍ أَدْبر؟! وماذا أَعْدَدْتَ لعامٍ أقبل؟! قال عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا».

وعاهدْ نفْسَك في مَطْلَعِ هذا العامِ على المحافظةِ على الصَّلواتِ الخمس في المساجد جماعةً مع المسلمين، والتَّزوُّدِ من العِلم النَّافع والسَّعي في نشره وتعليمه، وحِفظِ اللِّسان عن المُحرَّمات - من الكذب والغيبة والفُحْش -، وعليكَ بالوَرَع في المَطاعِم والمَشارب، واجتناب ما لا يَحِلُّ.

واحرصْ على برِّ الوَالِدَيْن وصِلَةِ الأرحام، وبَذْلِ المعروف للقريب والبعيد، وتَطْهيرِ القلبِ من الحسدِ والعداوةِ والبغضاء.

واحذرِ الوقوعَ في أعراضِ المسلمين، واجتهدْ بالقيام بشَعِيرة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وأداء حقوق الأولاد والزَّوجة على الوجه الأكمل، وغُضَّ البصرَ عن النظر إلى المُحرَّمات في الطرقات أو الفضائيات.

وما أجملَ أن يكون العام الجديد منطلَقَ إصلاحٍ في المجتمعات! تُحافظُ فيه النساءُ على حِجابِهنَّ، ويَلْتزمْنَ بالسِّتر والحياء؛ امتثالاً لأمر اللَّه، واتِّباعاً لسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، واقتفاءً بِسِيَرِ الصَّحابيَّات والصَّالحات.

فطُوبى لعبدٍ انتَفع بِعُمُره؛ فاستقبلَ عامَه بِمحاسبةِ نفسِه على ما مضى، فكلُّ يومٍ تَغْرُب فيه شمسُه يُنْذِرُك بِنُقصانِ عُمُرِك، والعاقلُ مَنِ اتَّعَظَ بأمْسِه واجتَهدَ في يومِه، واستعدَّ لِغَدِه؛ فَخُذِ الأُهبةَ لِآزِفِ النُّقْلَة، وأَعِدَّ الزادَ لِقُرْب الرِّحلة، وخيرُ الزَّاد: ما صَحِبه التَّقوى، وأعلى النَّاس عند اللَّه منزلةً: أخوفُهم منه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

نصيبُ الإنسانِ من الدُّنيا عُمُره؛ فإنْ أَحْسنَ اغتنامَه فيما يَنفعُه في دار القرار؛ فقد رَبِحَتْ تجارتُه، وإن أساءَ اغتنامَه وأكثرَ من المعاصي والسَّيِّئات؛ بَارَتْ بِضاعتُه، والمُوفَّقُ مَنْ حاسبَ نفْسَه قبل أن يُحاسبَه اللَّهُ، واغتَنَمَ وقتَه وعَرف دواءَه من دائِه، ولم يُهْمِلْ فَيُهْمَلْ، والخيرُ في الطَّاعةِ والشَّرُّ في المعصية، والحياةُ ميدانٌ فسيحٌ لصالح الأعمال، والتَّسويفُ لا يُورِث سِوى النَّدم، والتَّوبةُ تمحو الزَّلَّة.

وها أنتم تَزْدَلِفُونَ إلى عامٍ جديدٍ، وقد وَدَّعْتُم عاماً من عُمُركم مضى بما أودعتموه مِن عملٍ، والسَّعيدُ من استودع مدَّة عُمُرِه صالحاً مِن عملِه، والشَّقيُّ مَنْ شهِدتْ عليه جوارحُه بقبيح زَلَلِه؛ فاحفَظوا أيامَ أعمارِكم قبْلَ تَفَرُّدِكم في قبورِكم، واغتَنموا أيَّامَ حياتِكم قبْلَ الفوات، وأَكْرموا نُزُلَ عامِكم الجديدِ بالطَّاعات.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عَامٌ جَدِيدٌ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فالتَّقوى هي النَّجاةُ غداً، والزَّادُ أبداً.

أيُّها المسلمون:

في مرورِ الشُّهورِ والأعوام عِبرةٌ وعِظةٌ، وفي طلوعِ الشَّمسِ وغروبِها إيذانٌ بأنَّ هذه الدُّنيا شُروقٌ ثم أُفُولٌ؛ أيامٌ تزول، وأجيالٌ تتعاقبُ على دَرْبِ الآخرة؛ هذا مقبِلٌ وذاك مدبِرٌ، وهذا شقيٌّ وآخرُ سعيدٌ، وكلٌّ إلى اللَّه يسير.

والزَّمانُ وتَقَلُّباته أَبلغُ الوَاعِظِين، والدَّهرُ بقوارعِه يُغني عن فَصاحةِ المُتكلمين، ولَئِن طالتِ الحياةُ بأحزانِها أو مَضَتْ بأفراحِها؛ فغايتُها

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع عشَر من شهر محرَّم، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الفناء! والنَّاسُ يعيشون في آخرِ مراحلِ الدُّنيا؛ نظر النَّبيُّ ﷺ إلى الشَّمسِ عند غروبِها فقال: «لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ» (رواه أحمد).

والوقت ثمينٌ بِلَحَظاته، ويزيدُ نَفاسةً إذا لم يبقَ منه سوى اليسير، واللَّهُ أقسمَ به فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ومِنَ النَّاسِ مَنْ كتبَ اللَّهُ له فُسحةً في العُمُر، ومنهم من يَخطَفُه الأجلُ سريعاً، وخيرُ النَّاس: مَنْ عاش في لَحظاتها ليرتقِيَ بها في آخرتِه؛ قال رجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ» (رواه أحمد).

والنَّاسُ في حياتهم منهم مَنْ قَصَرَها على معاشِه دون معادِه، ومنهم مَنْ عَمَرَ آخرتَه فيها؛ فأدَّى ما أمرَهُ اللَّه به واجتنبَ ما نهاه عنه، ومنهم مَن خلَطَ عملاً صالحاً بِآخرَ سيئاً - من غفلةٍ واتِّباعِ هوًى -؛ قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» (رواه مسلم).

واللَّهُ ﷻ أَقسمَ أحدَ عشرَ قَسَماً بأنَّ المُفلِح هو من زكَّى نفْسَه، وأنَّ الخاسرَ من أوقعَها في المعاصي؛ فقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

والحياة مليئةٌ بالمِحَن والفِتَن، وقد يَكْبُو المرءُ في زلَّاتها مِن حيثُ

لا يَشعُر، ومِن دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**» (رواه مسلم)، وكلَّما دَنَتِ الحياةُ من الزَّوال لَاحَت فِتَنُها وظَهرتْ شرورُها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**» (رواه مسلم)، ويزدادُ البلاءُ عاماً بعد عامٍ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**» (رواه البخاري).

وإذا ابتَعد النَّاسُ عن اللَّه، ولم يَمتثِلوا أوامره، ووَقَعوا في نواهيه؛ اضطَرَبَت أحوالُهم ومعايِشُهم؛ إذِ الذُّنوبُ مُذهِبةٌ للنِّعَم، مُزيلةٌ لأَمْنِ النُّفوسِ والبُلْدَان؛ قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وأَعظمُ بُعدٍ عن اللَّه: التَّوجُّهُ إلى غيره بالدُّعاءِ والاستغاثةِ والنُّذورِ وغيرِها؛ قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، فمَنْ أَشرك باللَّه استحقَّ العذابَ الشَّديد في الدُّنيا - من الفَقْرِ وقلَّةِ المالِ والمرضِ وفَقْدِ الأمنِ وغيرِ ذلك -، وله في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

وإذا جاهَرَ العبادُ بالمعاصي عظُمَ خَطَرُها، وأذِن الرَّبُّ بالعقوبةِ بسببها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**» (متفق عليه).

ومن الفِتَنِ: تقديمُ العقلِ والهوى في النَّوازل وغيرها، ونَبْذُ الكِتاب والسُّنَّة؛ لتحقيق الأعمال والآمال؛ قال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ

مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وما من نازلةٍ إلَّا وبيانُها في الكِتاب والسُّنَّة؛ قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، ولن يُصلِحَ ما حَلَّ بهذه الأُمَّة - من اضطرابٍ وفوضَى وكروبٍ - إلَّا برجوعِها إلى ربِّها؛ قال سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾.

ومَن لازمَ الاستغفارَ جَعل اللَّهُ له مِنْ كلِّ همٍّ فرَجاً، ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ومِنْ كلِّ بلاءٍ عافية، وإذا أَلَمَّت بالنَّاسِ مصيبةٌ فَعَلَيْهم أن يُراجِعوا أنفسَهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

والحاذِقُ لا يَنظرُ إلى كثرةِ المُذنِبين؛ فإنَّ اصطفاءَ اللَّه لك بالسَّلامة من المعاصي يُوجبُ عليك التَّمسُّكَ بهذه النِّعمة؛ إذ أضلَّ غيرَك وهداك.

وعلى المرءِ أن يُحاسِبَ نفْسَه في كلِّ حينٍ: ماذا قدَّمَ لآخرتِه؟ وماذا عمِلَ لِرِضَا الرَّحمن عنه؟ لِيَسألَ نفْسَه عن فرائضِ الإسلام وعن أدائها، وعن حقوق المخلوقين والتَّخلُّصِ منها، وعن مالِه كيف جمعَه وفيمَ أنفقَه؟ خَطَبَ أبو بكرٍ رضي الله عنه في النَّاس فقال: «إِنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ إِلَى أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ؛ فَإِذَا اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا يَمْضِيَ هَذَا الأَجَلُ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ؛ فَافْعَلُوا».

ولَيسَتِ الغِبطةُ بكثرةِ السِّنِينِ والنِّعَم؛ إنَّما الغِبطةُ بالشُّكرِ وكثرةِ العملِ الصَّالحِ والإخلاصِ؛ فَعُمُرُ الإنسانِ عَمَلُه.

واحذروا الدُّنيا وتقلُّباتِها! فجَمْعُها عَناءٌ، ونعيمُها ابتلاءٌ، واغتنِموا ما بقي لكم من النِّعَم الخمْس؛ الشَّبابَ قبل الهرَم، والصِّحَّةَ قبلَ المرض، والغِنَى قبل الفقر، والفراغَ قبل الشُّغل، والحياةَ قبل الموت.

والمحاسبةُ الصَّادقةُ: ما أورثَتْ عملاً صالحاً وتحوُّلاً عن المعصية، ومَنْ غَفَلَ عن نفْسه تصرَّمَتْ أوقاتُه واشتدَّت عليه حسراتُه؛ فاستدرِكوا ما فاتَ بما بقِي، ومَنْ أصلحَ ما بقِيَ غُفِر له ما مضى.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

الـمُحسِنُ مَن كان يومُه خيراً من أَمْسِه، وغَدُه خيراً مِنْ يومِه، واغتنَمَ الحياةَ بما يُقرِّبُه إلى مولاه، وشَغَلَها بالطاعات، ونأَى بها عن السَّيِّئات، واتَّعَظَ بما فيها من تقلُّباتِ الأمور والأحوال، وكان حَذِراً من الاغترار بالسَّلامةِ والإمهالِ والآمال؛ فما أساءَ أحدٌ العملَ إلَّا من التَّسويفِ وطولِ الأمل.

ومَنْ أصلَحَ ما بيْنه وبيْن ربِّه؛ كفاه ما بيْنَه وبيْن النَّاس، ومَنْ صدقَ في سريرته حَسُنَت علانيتُه، والعبدُ إذا أنابَ إلى اللَّه ممَّا اجْتَرحَ من السَّيِّئات، والتَمْسَ عفوَه ورِضاه، وطَمِع في واسع رحمته وعطاياه؛ أعطاه الرَّبُّ بإذنه فوقَ ما يتمنَّاه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

نِهَايَةُ العَامِ(١)

الحمد للَّه مُصرِّفِ الأيامِ والشُّهور، ومدبِّرِ الأوقاتِ والدُّهور، ومُفْنِي الأعوام والعصور، أحمده سبحانه على ما أَوْلَى من النِّعَم، وأشكرُه تعالى على ما دَفَعَ من النِّقَم.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، المُتفرِّدُ بالكمال والدَّوام.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، أفضلُ الأنام، وأتقى عبادِ الرَّحمن، صلَّى اللَّه عليه وعلى أصحابه هُداةِ الأنام، ومصابيحِ الظَّلام، صلاةً وسلاماً دائمَين إلى يوم الحشر والمُقَام.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فإنَّ مَنْ أطاعَه نَجَّاه، ومَنْ أقبَلَ إليه أَرْضَاه، ومَنْ شَكره جازاه.

أيُّها المسلمون:

اللَّيلُ والنَّهارُ يُقَرِّبانِ كلَّ بعيدٍ، ويَخْلُقانِ كلَّ جديدٍ، ويأتيانِ بكلِّ موعودٍ، والمُؤمنُ بيْن مخافتين: أجلٍ قد مضى لا يَدري ما اللَّهُ صانعٌ

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثلاثين من شهر ذي الحِجة، سنة تسع عشْرة وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

فيه، وأجلٍ قد بَقِيَ لا يدري ما اللَّهُ قاضٍ فيه، وفي مطلَع العام تُسْتَفتَحُ صفحاتٌ بيضاءُ لا يدري العبدُ ما يُسَطَّرُ فيها، يَغْدُو ويَرُوحُ إلى أجلٍ قد غُيِّب عنه عِلمه.

وفي مراحلِ العُمُرِ، وتقلُّباتِ الأيام، وقفاتٌ يُحاسِبُ فيها الحصيفُ نفْسَه؛ فَيَسْتَثْقِلُ ذنْبَه، ويَستغفرُ ربَّه، ويُراجعُ أعمالَه، فَمِن الخيرِ يَزْدادُ، وعن التَّقصير يُقْلِع، ولا يزالُ العبدُ على هُدًى ما كان له واعظٌ مِن نفْسِه وكانتِ المحاسبةُ من هِمَّته؛ فمَنْ راجعَ نفْسه رَبِح، ومَن غَفَل عنها خَسر؛ قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا يَثْقُلُ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى الَّذِينَ جَازَفُوا الأُمُورَ فَأَخَذُوهَا مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ؛ فَوَجَدُوا اللَّهَ قَدْ أَحْصَى عَلَيْهِمْ مَثَاقِيلَ الذَّرِّ».

وإنَّ عُمُراً ينقضي مع الأنفاس لَسريعُ الانصرام، وحوادثُ الدَّهر كثيرةٌ، وعِبَرُ الأيامِ جمَّةٌ، مدائنُ تُعْمرُ، وأخرى تُدَمَّر، يُصبحُ ابنُ آدم معافًى في صحته، ثم يُمسي بَيْنَ أطباق الثَّرى.

إنَّها الدُّنيا! العَيْشُ فيها مذمومٌ، والسُّرورُ فيها لا يَدوم، تُغَيِّرُ صفاءَها الآفاتُ، وتَكْثُر فيها الرَّزايا، ولا يَعرِفُ حقيقتَها بِصَفْوِها وكَدَرِها إلا المُحاسِب نفْسَه.

أيُّها المسلمون:

القلوبُ لا يُحْيِيها إلا الإقبالُ على اللَّه، ولا يَلُمُّ شَعَثَها إلَّا حفْظُ الجوارح واجتنابُ المُحرَّمات واتِّقاءُ الشُّبُهات والتَّعلُّقُ الدَّائمُ باللَّه عَزَّ وَجَلَّ؛

قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ؛ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**» (رواه مسلم)، ولا يَنفع عند اللَّه إلَّا القلبُ السَّليم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أمَّا القلبُ الميِّتُ فقد قُبِرَ في جَسده؛ لا تُؤْلِمُه جراحاتُ المعاصي، ولا يوجعُه جهل الحقّ.

أيُّها المسلمون:

إنَّ تغيُّرَ الأحوال، وانقضاءَ الآجال، وانقطاعَ الأعمال والآمال، وما يَحْدُث من الفواجع والأهوال؛ كلُّ ذلك ممَّا يُشعِرُ بعجز المخلوق وضَعْفِه وشدَّةِ افتقاره إلى بارئه؛ فالدنيا محفوفةٌ بالأنكاد والأكدار، والشُّرور والأخطار، مشحونةٌ بالمتاعب، مملوءةٌ بالمصائب، طافحةٌ بالأحزان والآلام؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾، نعيمها يَزول، وعزيزُها يُذَلُّ، وسعيدُها يَشْقى، مُزِجتْ أفراحُها بأتراحٍ، وحلاوتُها بمرارةٍ، وراحتُها بتعبٍ، لا يدومُ لها حالٌ، ولا يَطْمَئِنُّ لها بالٌ، فأيُّ امرئٍ سَلِم فيها من الشِّدَّة والمَشقَّة؟! وأيُّ امرئٍ لم تمسَسْه مصيبةٌ؟!

إنَّ الإنسانَ مُعرَّضٌ فيها للأمراض والأعراض؛ عَيْشُها حقيرٌ، وزمانُها قصيرٌ، الأحوال فيها إمَّا نِعَمٌ زائلةٌ، وإمَّا بلايا نازلةٌ، وإمَّا منايا قاضيةٌ، قيل لِعَلِيِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «صِفْ لَنَا الدُّنْيَا، فَقَالَ: مَنْ صَحَّ فِيهَا مَا أَمِنَ، وَمَنْ سَقِمَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ»، وقد ذكر

اللَّهُ حقيقتَها بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾.

حُبُّها رأسُ كلِّ فتنةٍ وخطيئةٍ، وسببُ كلِّ معصيةٍ ورزيَّةٍ، ومَنْ عَرفَ الدُّنيا حقَّ المعرفة؛ لم يَفرحْ فيها برخاءٍ ولم يَحزنْ على بلاءٍ، والحياةُ بغير الدين تَحُفُّها المُنَغِّصات، وهي عندَ المؤمن دارُ مَمَرٍّ وابتلاءٍ، وأسعدُ النَّاس بها أرغبُهم عنها، والهالكُ مَن رَغِب فيها، فإيَّاكم والاغترارَ بزهرتها! فَقَدِ اغترَّ قومٌ قبلكم؛ فأوردتْهم مواردَ العَطَب والرَّدى، أَبْهَرَتْهم بِرَونَقِها فما أفاقوا إلَّا وهم في عِداد الموتى.

أيُّها المسلمون:

في انقضاءِ العامِ تذكُّرٌ بانقضاءِ العمر، وسرعةِ مرورِ الأيَّام تذكُّرٌ بِقُرب الرَّحيل والنُّقْلة، ومَن ذَكَر الموتَ حقَّ ذِكره؛ حاسَبَ نفْسَه في عَمَلِه وأمَانِيه، وتُوشِكُ الأرضُ أن تُدَالَ منَّا كما أدَلْنا منها؛ فتأكلَ لحومَنا وتشربَ دماءنا، كما مشينا على ظهرها، وأكلْنا من ثمارِها، وشربْنا من مائها؛ فتأهَّبوا للموت الَّذي ما طَلبَ أحداً فأعجزَه، ولا تحصَّنَ منه متحصِّنٌ إلَّا أبرزه، ولا أَمَّلَ مؤَمِّلٌ إلَّا قَصرَه دون أملِه، قيل لعطاءٍ السُّلَمِيِّ في مرضه الَّذي مَاتَ فيه: «كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: المَوْتُ فِي عُنُقِي، وَالقَبْرُ فِي يَدِي، وَالقِيَامَةُ مَوْقِفِي، وَجِسْرُ جَهَنَّمَ طَرِيقِي، وَلَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي!».

فأَكثروا مِن ذِكْر المَوْت؛ فإنَّ ذِكْرَه نِعْمَ العونُ على الاستعداد، ونِعْمَ الباعثُ على التَّزوُّد للمعاد، وإيَّاكم والاغترارَ بالسَّلامة والإمهال، ومتابعةَ الأماني الكاذبة، وكلُّ عملٍ كرِهْتَ الموتَ مِن أجْله؛ فاتركْه، ثم لا يضرُّك متى ما مِتَّ.

فمهِّدوا لأنفسكم قبْل أن تُعَذَّبوا، وتَزَوَّدوا للرَّحيل قبْل أنْ تَندَموا؛ فإنَّما هو موقفُ عدلٍ، واقتضاءُ حقٍّ، وسؤالٌ عن جوابٍ، وخيرُ الزَّاد ما صحبَه التَّقوى، وخيرُ العملِ ما تقدَّمه صالحُ النِّيَّة، وأعلى النَّاس عند اللَّه أَخْوَفُهم منه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّهَ تعالى وأطيعوه؛ فإنَّ طاعته هي أقومُ وأقوى، واحذَروا أسبابَ سَخَط الجبَّار؛ فإنَّ أجسامَكم على النَّار لا تَقْوَى، واعلَموا أنَّكم لم تُخْلَقوا عبثاً ولن تُتْركوا سُدًى؛ بل خُلِقْتُم لأمرٍ عظيمٍ، وهُيِّئْتم لخَطْبٍ جسيمٍ، وما بينكم وبيْن ذلك إلَّا الموت، وليس لكم منه بُدٌّ ولا فَوْتٌ، إنْ أقمتم له أخَذَكُم، وإنْ هربتُم منه أدْرَكَكُم، وإنْ تَخَطَّاكم لغيركم فَسَيَتَخَطَّى غيرَكم إليكم، فإمَّا إلى خيرٍ لا شرَّ معه أبداً، وإمَّا إلى شرٍّ لا خير معه أبداً، واعلموا أنَّكم غداً بين يَدَي اللَّه مَوقُوفُون، وبأعمالكم مَجزيُّون، وعلى تفريطكم نادمون: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

أيُّها المسلمون:

المعاصي تُفسِدُ الدِّيارَ العامرة، وتُزيلُ نَعْماءَها، وتُورِثُ الخِزْيَ في الدُّنيا والآخرة؛ فاحذروا سوء عُقباها، ولا تَغْتَرُّوا بدار الغُرور،

وحاسِبوا أنفسَكم؛ فما كان من طاعةِ اللَّه فاستقيموا عليه، وما كان من معصية اللَّه فانزِعوا عنه، واعلموا أنَّ التَّوبةَ مبسوطةٌ، وأنَّ ترْكَ الذَّنبِ أيسرُ عليكم مِن طلبِ التَّوبة، ولا تَدَعُوا ذنْباً يُخْلِفُ ذنْباً، والعملُ الصَّالحُ ثوابُه الجَنَّة؛ فَأَدْلِجُوا في السَّيْرِ إليها، وعملُ السُّوءِ متوعَّدٌ عليه بالنَّار؛ فاجتَهِدوا في الهَرَب منها، وبادروا بالتَّوبة الصَّادقة، وزكُّوا النُّفوس؛ فالحياةُ ميدانٌ فسيحٌ لصالح الأعمال.

وها أنتم تَزْدَلِفُون إلى عامٍ جديدٍ، وقد ودَّعتم عاماً من عُمُركم مضى بما أَوْدَعْتُمُوه من عملٍ، والسَّعيدُ مَنِ استودع مدَّة عُمُرِه صالحاً مِنْ عملهِ، والشَّقيُّ مَنْ شَهد عليه عُمُرُه بِقَبيح زَلَلِه.

فاحفظوا أيَّامَ أعمارِكم قبْل خُلُوِّكم في قبوركم، واغتَنِموا أيَّام حياتكم قبْل الفوات، وأَكرِموا نُزُلَ عامِكم الجديدِ بالطَّاعاتِ والقُرُباتِ والبُعد عن السَّيِّئات.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

تَهْذِيبُ النَّفْسِ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ ففي التَّقوى تَيْسِيرُ الأمور، ودَفْعُ كلِّ شرٍّ ومحذورٍ.

أيُّها المسلمون:

لقد أكملَ اللَّهُ لنا الدِّين، وأتمَّ علينا به النِّعمة؛ شرعٌ أصوله مُتْقَنَة وقواعدُه محروسةٌ، جَمَعَ مصالحَ العباد، يأمرُ بالمكارم، وينهى عن المفاسد، وإنَّ علوَّ المرء إنَّما يكونُ بالدِّين والأخلاق والآداب، وتهذيبُ النُّفوس عونٌ على عمارة القلوب، ودليلٌ على محامد الأمور، وللأخلاق حَدٌّ متى جاوَزَتْهُ صارتْ عُدواناً، ومتى قَصُرَتْ عنه كانت مَهانَةً ونقصاً، فحاسِبْ نفْسَك عن أيَّامها، واعلمْ أنَّ ما ذَهب منها لن

(١) أُلقيت يوم الجمعة، التاسعَ والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

يُسْتَخلفَ، ومِنْ طِباعِ النَّفس الآمرةِ بالسُّوء: أنْ تدَّعي المعاذيرَ فيما مضى، والأمانيَّ فيما بقي، وأفضلُ ذَوِي الألباب: أشدُّهم لنفْسِه أخْذاً.

ومَنْ عرف شَرَفَ الوجود سعى لتحصيلِ أفضلِ الموجود، والعُمُرُ موسمٌ، والمستيقِظ لا يَطلبُ إلَّا الأَنْفَس، وما اللَّذَّةُ في الحياة إلَّا بالاستقامة؟! والسَّعيدُ مَنْ وُفِّق لاغتنام العافية، وزيادةُ المنازل في الجَنَّة على قَدْرِ التَّزوُّدِ من الفضائل.

وأفضلُ ما اشتَغلَ به العبد: عِلمُ الشَّريعة، وما بعدَه بمنزلة التَّابع، وإذا عُدِمَ العِلمُ وَقَع الضَّلال، والعُمُر عزيزٌ والعلم غَزِيرٌ، والأَولى تقديم الأهمِّ فالأهمِّ، والكَدْح في طلب العِلم الذي يُلْتَمسُ به صلاحُ الدِّينِ والدُّنيا؛ أحقُّ من الكدِّ في طلبِ المتاع، وما ثمرة الحياة إلَّا العِلم والعمل؟!

ومَنْ أراد دوامَ السَّلامةِ فَلْيُراقبِ اللَّه؛ فما مِنْ عبدٍ أَطلق نفْسَه في شيءٍ ينافي تقواه إلَّا وَجد عقوبتَه عاجلةً أو آجلةً، ومِنَ الاغترار: أنْ تُسيءَ فترى إحساناً؛ فتَظُنَّ أنَّك قد سومحت، ورُبَّما رأى العاصي سلامةَ بدَنهِ وماله؛ فظنَّ أن لا عقوبة عليه، وما عَلِم أنَّ غفْلته عمَّا عوقب به عقوبة! والمعصيةُ بعدَ المعصيةِ عقابُ المعصية، والعقوباتُ قد تَبْغَتُ، وقد يُؤَخِّرُها الحِلْم، وللخطايا تأثيراتٌ قبيحةٌ إنْ أسرَعَتْ، وإن اجتمعتْ آذَتْ، وما شيءٌ يَنْفَعُ كالتَّضرُّع مع مجانبة الخطايا، فَشَرَارةٌ تُسْتَصْغُر رُبَّمَا أحرَقَت بلداً، ومَنْ تأمَّلَ ذُلَّ إخوةِ يوسفَ حين قالوا:

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾؛ عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَل، ومَنْ تعرَّضَ للشَّهوات، ثمَّ طَلبَ إصلاحَ القلب رَامَ ممتنعاً، فابتعِد عن أسباب الفِتَن؛ فإنَّ المقاربةَ منها مِحنةٌ لا يكادُ صاحبُها يَسْلَم، ومَنْ حَامَ حولَ الحِمَى يوشكُ أن يقعَ فيه.

ومَنْ صابرَ الهوى أَيْنَعَت له ثمراتُ الدُّنيا، فإنْ ضاقَ به أمرٌ وسَّعه الصَّبرُ وطيَّبه الرِّضا، ورُبَّ عَثرةٍ أهلَكَتْ، ورُبَّ فارطٍ لا يُستدرَك، والنَّفْسُ طامعةٌ إذا أَطْمَعْتها؛ فَأَلْجِمها بلجام الأوامر والنَّواهي، ومِنَ الشَّقاءِ في الدُّنيا أنْ تَطلبَ النِّهاية في لَذَّاتها، وليس في الدُّنيا لذَّةٌ إنَّما هي راحةٌ من مُؤْلِمٍ.

ولقاءُ الإخوانِ - وإن كان يسيراً - غُنْمٌ حَسَنٌ في الحياة، مُعِينٌ على الطَّاعة، والخِصالُ الصَّالحةُ من البرِّ لا تَحْيَا إلَّا بالموافقين في الطِّباع؛ فلا تُعَاشرْ إلَّا ذَوِي فضلٍ في الرَّأي، وثقةٍ في المَودَّة، وأمانةٍ في السِّرِّ، ووفاءٍ بالإخاء، وعليك بتدبير الأولاد بحفظِهم من مخالطةٍ تُفسد مستقبَلَهم، واحملْهم على صحبةِ الأخيار؛ فإنَّ الطَّبْعَ سَرَّاقٌ.

واجعلْ لنفسك ساعةً تَرفعُ فيها حاجتَك إلى ربِّك، وساعةً تحاسِبُ فيها نفسَك، وتَلَمَّحِ الجوارحَ مخافةَ أن تَبْدُوَ من اللِّسَان كلمةٌ، أو من القلب تسخُّطٌ.

وأحقُّ الأشياء بالضَّبط: اللِّسانُ والعَيْن، وإطلاقُ البصر في المُحرَّم يُنَغِّصُ السَّعادة، ويُكَدِّرُ العيشَ مع الحاضر القريب، وما أَصلحَ عبدٌ ما بيْنه وبيْن الخلْق دون الحق؛ إلَّا انعَكس مقصوده، وعاد حامدُه ذامّاً.

وشهوات الدُّنيا مصائدُ هلاكٍ، وليس أرجى في مجاهدة النَّفسِ من العزمِ والحزم معها، والدُّنيا مَفَازَةٌ يجبُ أن يكونَ السَّابقُ فيها الدِّين، ومَنْ أَوْكَل زِمامَ راحلتِه إلى طَبْعِه وهواه؛ تَلِف، ومن عجائبِ الجزاءِ في الدُّنيا: أنَّه لَمَّا فعَل إخوة يوسفَ بيوسفَ ما فعَلوا، وشروه بثمنٍ بخسٍ؛ امتدت أكفُّهم بين يديه بالطَّلب يقولون: تَصدَّقْ علينا.

ولا تغترَّ بالشَّباب والصِّحَّة؛ فإن أقلَّ مَن يموتُ الأشياخ، وأكثرَ مَن يموتُ الشُّبَّان، ولهذا يَقِلُّ مَنْ يَكبَر، ومَنْ أَصلحَ سريرتَه فاحَ عَبِيرُ فضْله، وعَبَقَتِ القلوبُ بنشرِ طِيْبه، وانظرْ في الإخلاص فما شيءٌ يَنفع دونَه، ولا تَبِعْ عِزَّك بِذُلِّ المعاصي؛ فعلى قَدْر مُجاهدتِك في ترْكِ ما تهوى تَقوى محبَّتُك، ولا تَدعْ فضيلةً يُمْكنُ تحصيلُها إلَّا حَصَّلْتَها، وما قعَد مَنْ قعَد إلَّا لِدَنَاءَةِ الهمَّة، وأنت في ميدانِ الأوقاتُ فيه تُنْتَهبُ، فلا تَخْلُد إلى الكسل، فما فاتَ ما فات إلَّا بالكسل، ولا نالَ مَنْ نالَ إلَّا بالجِدِّ والعَزْم، واضربْ عُنُقَ العُجْبِ، وأَذْهِب بَطَرَ الكِبْر.

وإذا تعلَّقْتَ بالأسباب؛ مُحِي أثرُ الأسباب، يقول ﷻ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، وتأمَّلْ في حال يعقوبَ وحَذَرِه على يوسف حتى قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ فقالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

واللَّهُ وقَّت للأمور أقدارها، وهيَّأ إلى الغايات سُبُلَها، وأمورُ الدُّنيا وزينتُها قد يُدرِك منها المُتَوَاني ما يَفُوتُ المُثَابِر، ويُصيبُ منها العاجزُ ما يُخطئُ الحازم، والأسبابُ طريقٌ لا بدَّ من سلوكِها، ورُبَّما عوقبَ إنْ

مال إليها، وتأمَّل عُقْبَى سليمانَ ﷺ لَمَّا قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ** - وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ -؛ **فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ**» (متفق عليه)؛ فطُوبى لمن عَرفَ المسبِّبَ وتَعلَّقَ به، فإنَّها الغاية القُصوى، فَضَعِ الرَّجاءَ والخوفَ في موضعهما، ولا تَجعلِ اتِّقاءَك لغير المَخُوف، ولا رجاءك في غير المُدْرَك.

ومتى اشتدَّ عطشُك إلى ما تهوى فابسُطْ جَناحَ الرَّجاء؛ فالرَّبُّ كريمٌ، وكثرةُ الدُّعاء نِعْمَ المعتَمَد، ومِنَ البلاء: أنَّ المؤمنَ يدعو فلا يُجَاب، فَيُكَرِّرُ الدُّعاء، ويَطولُ الأمدُ، ولا يَرى أثراً للإجابة؛ فهذا من البلاء الذي يحتاجُ إلى صبرٍ، وما يَعْرِضُ للنَّفس من تأخيرِ الإجابةِ مرضٌ يحتاجُ إلى طبٍّ، فالكرمُ واسعٌ، والبُخْلُ معدوم؛ فقد يكونُ في التَّأخير مصلحةٌ، وفي الاستعجال مَضَرَّةٌ، فهذا من النِّعِم في طَيِّ البلاء، وقد يكونُ الامتناعُ لآفةٍ، فرُبَّما يكونُ في مَأْكَلِك شُبهة، أو في قلبك في وقت الدُّعاء غَفْلَة، أو تُزادُ عقوبتُك في منْع حاجتِك لذنْبٍ ما صَدَقْتَ في التَّوبة منه.

ومَنْ عَايَنَ بعَيْنِ بصيرتِه تناهيَ الأمور في بداياتها؛ نال خيرَها ونجا من شرِّها، ومَنْ لم ير العواقبَ عاد عليه بالألم ما طَلَبَ منه السَّلامة، وبالنَّصَب ما رجا منه الرَّاحة، فراقبِ العواقبَ تَسلَمْ، ولا تَمِلْ مع الهوى فتَندمَ، ومَنْ أحبَّ تَصفيةَ الأحوالِ فلْيجتهدْ في تَصفيةِ الأعمال، يقول أبو سليمان الدَّارانيُّ ﵀: «مَنْ صَفَّى صُفِّيَ لَهُ، وَمَنْ

كَدَّرَ كُدِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُوفِئَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِئَ فِي لَيْلِهِ».

ومتى رأيتَ تَكديراً في حالٍ فاذكرْ نعمةً ما شُكِرَت، أو زلَّةً قد فُعِلَتْ، واحذرْ من نَفَار النِّعم ومفاجأةِ النِّقم، ولتكنْ نيَّتُك في الخير قائمةً من غير فُتُور بما يَعْجِز عنه البدن من العمل، ومَنْ عَلم أنَّ الموتَ يَقطعُه عن العمل؛ عَمِل في حياته ما يَدومُ له أجرُه بعد موته، وسعى في تحصيلِ ذريَّةٍ تَذكرُ اللَّه بعده، فما مات مَن خَلَّف ذُرِّيَّةً صالحة.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فالكمالُ عزيزٌ، والكاملُ قليلُ الوجود، وحدُّ الرَّاحة: إحجامُ النَّفسِ عن القُوَى؛ تهيُّؤاً للطَّاعة واكتساباً للفضائل، فمتى زادت عن ذلك صارتْ توانياً وكَسَلاً، ومتى نقصَتْ عنه صار مُضِرّاً بالقوى.

وعلى العاقلِ أنْ يذكرَ الموتَ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مراراً ذِكْراً يباشرُ به القلوب، ويُقَارِعُ الأطماع، فإنَّ في كثرة ذِكر الموتِ عِصمةً من الأَشَرِ، وأماناً - بإذن اللَّه - من الهَلَع، ومَصْرَعُ غيرِك يُرِيك مَصْرَعَك.

وليس في التَّكليف أصعبُ من الصَّبرِ على القضاء، ولا أفضل من الرِّضا به، فلا تحزنْ على ما فاتك من الدُّنيا، وأَنزِلْ ما أصابك من ذلك ثمَّ انقطعَ منزلةَ ما لم يُصَب، وأَنزِل ما طُلب من ذلك ثم لم تدركْه منزلةَ ما لم يُطلَبْ، ومَن تأمَّلَ بَحْرَ الدنيا، وعَلِم كيف تُتَلَقَّى الأمواجُ، وكيف يُصْبَر على مدافعة الأيام؛ لم يَتَهَوَّلْ نزولَ بلاءٍ، ولم يَفرحْ بعاجل رخاءٍ.

وأشدُّ النَّاس غفلةً من عَبَر السِّتِّين وقارب السَّبعين ولم يَعتَبِرْ؛ فإنَّ ما بيْنهما مُعْتَرَكُ المنايا، ومَن نازلَ المُعْتَرَكَ استعدَّ للقاء، وكلُّ يوم تَحيا فيه غَنِيمة؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْراً**» (رواه مسلم)، والدُّنيا دُوَلٌ؛ فما كان لك منها أتاك على ضَعْفِك، وما كان عليك لم تَدْفَعْه بقُوَّتك، ولا مالَ أفضلُ من العَقْل والدِّين.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فالتَّقوى أربحُ المكاسب، وأجزلُ المواهب.

أيُّها المسلمون:

إنَّ تعاقبَ الشُّهورِ والأعوام على العباد مِن نعم اللَّه الغِزار؛ قال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، ويقول ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**» (رواه البخاري).

وقد أَقسم اللَّهُ في آياتٍ عديدةٍ من كِتابه بأجزاءَ مِنَ الوقت؛ من

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع من شهر محرَّم، سنة أربع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

اللَّيل والنَّهار، والفجر والعصر والضُّحى، ونحن قد وَدَّعنا عاماً حافلاً من أعمارنا، واستودعنا فيه أعمالَنا، تُنشرُ يومَ الحشرِ أمامَنا، فما أسرعَ ما مضى وانقضى! وما أعظمَ ما حوى! كمْ مِنْ حبيبٍ فيه فارقنا؟ وكم مِنْ بلاءٍ فيه واجَهنا؟ وكم سيِّئاتٍ فيه اجترحْنا؟

واللَّيالي والأيَّامُ خزائنُ للأعمال، ومراحلُ للأعمار، تُبلِي الجديد، وتُقرِّب البعيد، أيامٌ تَمُرُّ وأعوام تَكِرُّ، وأجيالٌ تتعاقبُ على دربْ الآخرة؛ فهذا مقبِلٌ وذاك مدبِرٌ، وهذا صحيحٌ وآخر سقيمٌ، والكلُّ إلى اللَّه يسير؛ يقول ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**» (رواه مسلم).

في الدَّهر آلامٌ تنقلبُ أفراحاً، وأفراحٌ تنقلب أتراحاً، أيَّام تمُرُّ على أصحابها كالأعوام، وأعوام تَمُرُّ على أصحابها كالأيَّام، واللَّبيبُ مَنِ اتَّخذَ في ذلك عِبرةً ومُدَّكراً؛ قال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

والعام وَلَّى بما أَودعَ فيه العبادُ من أفعالٍ، وستُعرَضُ عليهم أعمالُهم: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، فانظرْ في صحائفِ أيَّامِك التي خَلَتْ، ماذا ادَّخَرْتَ فيها لآخرتِك؟ وَاخْلُ بنفسك وحاسبْها حسابَ الشَّحيح، يقول ميمونُ بنُ مِهران رحمه الله: «لَا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيّاً حَتَّى يَكُونَ مَعَ نَفْسِهِ أَشَدَّ مِنَ الشَّرِيكِ مَعَ شَرِيكِهِ».

واعلم أنَّ مُضِيَّ اللَّيل والنَّهار يباعدان من الدُّنيا، ويُقرِّبان من الآخرة، فَطُوبى لعبدٍ انتفع بعُمُره؛ فاستَقبل عامه الجديد بمحاسبة نفْسه

على ما مضى، والرَّشيدُ مَنْ وَقَفَ مع نفْسِه وقْفةَ حسابٍ وعتابٍ، يُصَحِّحُ مسيرتَها، ويَتَدارَكُ زَلَّتَها، يتصفَّحُ في ليلِه ما صَدَر من أفعال نهارِه، فإنْ كان محموداً أمضاه، واستَبق بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركَه، وانتهى عن مثله في المستقبل؛ لأنَّه مسافرٌ سَفَر من لا يعود، يقول أبو حاتم ابن حِبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَفْضَلُ ذَوِي العُقُولِ مَنْزِلَةً: أَدْوَمُهُمْ لِنَفْسِهِ مُحَاسَبَةً».

وإنَّ غيابَ محاسبةِ النَّفْسِ نذيرُ غرقِ العبدِ في هواه، وما أردى الكفارَ في لُجَجِ العمى إلَّا ظنُّهم أنَّهم يَمْرَحون كما يشتهون بلا رقيبٍ، ويفرحون بما يَهْوَوْن بلا حسيبٍ؛ قال سبحانه عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾.

والاطِّلاعُ على عيب النَّفْس ونقائصِها ومَثَالِبِها؛ يُلْجِمُها عن الغَيِّ، ومعرفةُ العبدِ نفْسَه وأنَّ مآله إلى القبر؛ يُورِثُه تَذَلُّلاً وعبوديَّةً للَّه، فلا يُعجَبُ بِعملِه مهما عَظُم، ولا يَحْتَقرُ ذنْباً مهما صَغُر، يقولُ أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَتَفَقَّهُ الرَّجُلُ كُلَّ الفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتاً».

وإذا جالستَ النَّاس فكُنْ واعظاً لقلبِك، فالخلْق يراقبون ظاهرَك واللَّهُ يراقبُ باطنَك، ومَنْ صحَّحَ باطنَه بالمراقبة والإخلاص؛ زيَّن اللَّهُ ظاهرَه بالصَّلاح والفلاح.

والتَّعرُّفُ على حقِّ اللَّه وعظيم فضْله ومَنِّه، وتذكُّر كثرةِ نِعَمه وآلائه؛ يُطَأْطِئُ الرَّأسَ للجبَّار جَلَّ وَعَلَا، ويُدرِكُ المرءُ معه تقصيرَه على شُكر

النِّعم، وأنَّه لا نجاة إلَّا بالرُّجوع إليه، وأن يُطاعَ فلا يُعصى، وأنْ يُشكرَ فلا يُكفر، يقول ابن القيِّم رحمه الله: «بِدَايَةُ المُحَاسَبَةِ: أَنْ تُقَايِسَ بَيْنَ نِعْمَتِهِ عز وجل وَجِنَايَتِكَ؛ فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ لَكَ التَّفَاوُتُ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ أَوِ الهَلَاكُ وَالعَطَبُ».

وتَفَقُّدُ عيوبِ النَّفْس يُزَكِّيها ويُطَهِّرُها؛ قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، يقول مالكُ بنُ دينارٍ رحمه الله: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً قَالَ لِنَفْسِهِ: أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ ثُمَّ زَمَّهَا، ثُمَّ خَطَمَهَا، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ رَبِّهَا؛ فَكَانَ لَهَا قَائِداً».

وإنَّ أضرَّ ما على المُكلَّف: إهمالُ النَّفسِ وترْكُ محاسبتِها، والاسترسالُ خلْفَ شهواتِها حتى تَهْلِك، وهذا حالُ أهلِ الغُرورِ الذين لا يَحْتَرِزون من الوقوع في المعاصي، ويَتَّكِلون على العفو، وإذا فَعلوا ذلك سَهُلَت عليهم مواقعةُ الذنوبِ وصَغُر في أعينهم وَبالُها، واللَّهُ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، يقول الحسنُ البَصريُّ رحمه الله: «لَا يَلِيقُ بِالمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُعَاتِبَ نَفْسَهُ، فَيَقُولَ لَهَا: مَاذَا أَرَدْتُ بِكِلْمَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ وَأَمَّا الفَاجِرُ فَيَمْضِي قُدُماً لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

والمؤمنُ قَوَّامٌ على نفْسه يُحاسبُها؛ قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وإنَّما خفَّ الحسابُ على قومٍ حاسبوا أنفسَهم في الدُّنيا، وشقَّ الحسابُ على قومٍ أَخذوا هذا الأمر من غير محاسبةٍ.

فَتَوَقَّ الوقوعَ في الزَّلَّة؛ فترْكُ الذَّنْب أيسرُ مِن طلبِ التَّوبة، وأَنِّبْهَا على التَّقصير في الطَّاعات؛ فالأيَّامُ لك لا تدوم، ولا تَعلمُ متى تكونُ عن الدُّنيا راحلاً؟ وخاطبْ نفْسَك: ماذا قَدَّمْتَ في عامٍ أدبر؟ وماذا أَعْدَدْتَ لعامٍ أقبل؟ يقولُ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا».

وعاهدْ نفْسَك في مطلَعِ هذا العامِ على المحافظة على الصَّلواتِ الخمْسِ في المساجد جماعةً مع المسلمين، والتَّزوُّدِ من العِلم النَّافع والسَّعيِ في نشْرِه وتعليمِه، وحفْظِ اللِّسان عن المُحرَّمات - من الكذب والغيبة والبَذاءة والفُحش -، وعليك بالوَرَعِ في المطاعِم والمشارب، واجتناب ما لا يَحلُّ، واحرصْ على برِّ الوَالِدَيْن وصِلَةِ الأرحام، وبذْلِ المعروف للقريب والبعيد، وتطهيرِ القلبِ من الحَسدِ والعَداوةِ والبَغضاء، واحذرْ مِنَ الوَقيعةِ في أعراضِ المسلمين، واجتهدْ بالقيام بِشَعِيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وأداءِ حقوقِ الأولاد والزَّوجةِ على الوجه الأكمل، وغُضَّ البصرَ عن النَّظر إلى المُحرَّمات - في الطُّرقات أو الفضائيَّات -، وما أجملَ أن يكونَ هذا العامُ انطلاقةَ تَغيُّرٍ في المجتمعات! ومحافظة النِّساء على حجابِهنَّ والتزامهنَّ بالسِّتر والحياء؛ امتثالاً لأمر اللَّه، واتباعاً لسُنَّة رسول اللَّه ﷺ، واقتفاء بِسِيَر الصحابيَّات والصَّالحات.

فاللَّيلُ والنَّهارُ يُبَاعدان عن الدُّنيا، ويُقَرِّبَان من الآخرة، فَطُوبى لعبدٍ انتفع بِعُمُره فاستقبلَ عامَه الجديدَ بمحاسبة نفْسِه على ما مضى،

فكلُّ يومٍ تَغْرُب فيه شمسُه يُنْذِرُك بِنُقصانِ عُمُرِك، والعاقلُ مَنِ اتَّعَظَ بِأَمسِهِ، واجتَهد في يومه واستعدَّ لِغَدِه، فَخُذِ الأُهْبَةَ لِآزِفِ النُّقْلَة، وأَعِدَّ الزَّادَ لِقُرْب الرِّحْلَة، وخيرُ الزَّادِ: ما صَحِبَه التَّقوى، وأعلى النَّاسِ عند اللَّه منزلةً: أخوفُهم منه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فاتحةُ شهورِ العامِ شهرُ اللَّهِ المُحرَّم، من أعظمِ الشُّهورِ عندَ اللَّه، عظيمُ المكانة، قديمُ الحُرمة، رأسُ العام، مِنْ أشْهُرِ اللَّهِ الحرام، فيه نصَرَ اللَّهُ موسى وقومَه على فرعون ومَلَئِه، ومِنْ فضائله: كثرةُ صيام أيَّامه؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ: شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ: صَلَاةُ اللَّيْلِ**» (رواه مسلم).

وأفضلُ أيَّام هذا الشَّهرِ يومُ عاشوراء؛ فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ المَدِينَةَ فَوَجَدَ اليَهُودَ صِيَاماً يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟** فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْراً؛ فَنَحْنُ نَصُومُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ؛** فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ» (متفق عليه)، ولمسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ سُئِلَ عن صيامِ يومِ عاشوراء، فَقَالَ: «**أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»، وقد عَزم على أن يصومَ

يوماً قبله؛ مخالفةً لأهل الكتاب؛ فقال: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ؛ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ» (رواه مسلم).

فَيُسْتَحبُّ للمسلمين أن يصوموا يومَ العاشر؛ اقتداءً بسُنَّة المصطفى ﷺ، وطلباً لثواب اللَّه، وأن يصوموا يوماً قبْله أو يوماً بعده؛ مخالفةً لليهود، وعملاً بما استَقَرَّتْ عليه السُّنَّة، وذلك مِنْ شُكر اللَّه ﷻ على نِعَمِه، واستفتاحُ هذا العامِ بعملٍ من أفضل الأعمال الصَّالحة التي يُرجى فيها ثوابُ اللَّه ﷻ.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحْدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

صلاحُ الخلقِ وقِوامُ أمرِهم بإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وذلك هو العَدل الَّذي قامت به السَّموات والأرض، وعليه قِيامُ الدُّنيا والآخرة، ولكلِّ نفسٍ على صاحِبِها حقٌّ هو مسؤُولٌ عنه يوم الدِّين؛ قال ﷺ: «**وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» (رواه أحمد).

وأكبرُ حقوقِ النَّفسِ: تزكيتُها، وبه حِفْظها مِن الخِصالِ الذَّميمَة؛ فالنَّفْس أمَّارةٌ بالسُّوء، ولها شرٌّ يُستعاذ مِنه؛ قال ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي**» (رواه أحمد)، وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في فاتِحةِ خُطَبِه:

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامسَ عشَر من شهر شوال، سنة تسع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

«وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» (رواه أحمد)؛ فلا مناصَ مِن إصلاحِها، واللَّهُ يُحبُّ لعبادِه ذلك؛ قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: بَوَاطِنكُم وظَوَاهِركُم.

ولعظيمِ أمرِ تزكِيةِ النُّفوسِ كانت إحدَى مقاصدِ بعثةِ الرُّسُلِ عليهم السلام؛ فإبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام دعوَا اللَّهَ أنْ يَبعثَ في هذه الأُمَّةِ رَسُولاً منهم يُزكِّيهم، فقالَا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وموسى عليه السلام أرسله اللَّهُ إلى فرعون وقال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، وبعَثَ اللَّه نبيَّنا مُحَمَّداً ﷺ مُزكِّياً للعباد، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وبذلك امتَنَّ اللَّه على عبادِه المؤمنين فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

والدَّاعيةُ يدعو النَّاسَ إلى اللَّه وإنْ دَنَت منزلَتُهم؛ طمعاً في تزكيتِهم وهدايتِهم؛ قال ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

والفلاحُ كلُّه إنَّما هو في تزكِية النَّفْس، والخَيبةُ والخسارة في عدَمِها، وعلى هذا أقسَمَ اللَّهُ أطوَلَ قَسَمٍ في كِتَابِه، ثمَّ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، قال قتادة رحمه الله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَصَالِحِ الأَعْمَالِ»، وهذا ما أَجْمَعتْ عليه الرِّسَالَات، قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

ومِن صفات المؤمنين: تزكيةُ أنفسِهم؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «هُوَ زَكَاةُ النُّفُوسِ وَزَكَاةُ الأَمْوَالِ، وَالمُؤْمِنُ الكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَتَعَاطَى هَذَا وَهَذَا»، ومَنْ زكَتْ نفسُه فقد منَّ اللَّه عليه وأكرَمه؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾.

والجَنَّة في الآخرة جزاءُ مَن أَصلحَ نفْسَه؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، والدرجاتُ العُلَى منها جزاءُ مَن تزكَّى؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۞ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

والسَّعيُ لتحقيقِ التَّزكيةِ فرضٌ على جميع العباد؛ وذلك بامتثالِ أوامرِ اللَّهِ واجتنابِ نواهِيه؛ فإنَّ المقصَدَ الأعظَمَ في الأوامر والنَّواهي - بعد تحقيقِ العُبُوديَّة للَّه -: تزكيةُ الأنفس وإصلاحُها.

وأعظمُ أمرٍ تَزْكُو به النُّفوسُ: توحيدُ اللَّه بعبادتِه وحْدَه لا شريك له، ولا زكاةَ للخلْقِ إلَّا بالتَّوحيد؛ قال سبحانه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وَهِيَ التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ الَّذِي بِهِ يَزْكُو القَلْبُ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ إِلَهِيَّةِ مَا سِوَى الحَقِّ مِنَ القَلْبِ، وَإِثْبَاتَ إِلَهِيَّةِ الحَقِّ فِي القَلْبِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا أَصْلُ مَا تَزْكُو بِهِ القُلُوبُ».

والصَّلاةُ زكاةٌ للنَّفْس وطهارةٌ للعبد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وتُصلِح أهلَها وتُذهِب عنهم الخطايا؛ قال ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ؛ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الخَطَايَا» (متفق عليه).

وبالزَّكاة والصَّدقةِ نقاءُ النُّفوس وزكاؤُها؛ قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، والنَّجاةُ مِن النَّار جزاءُ مَنْ زكَّى نفْسَه بمالِه؛ قال ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

والصَّوم وِقايةٌ مِن آفاتِ النُّفوسِ وشرورِها، وَوِجاءٌ لأهلِه مِن الفواحش، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وفي الحجِّ تزكُو النُّفوسُ؛ قال ﷻ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾، والمقبولُ مِن الحُجَّاج يَعودُ طاهِرَ النَّفْس كيومِ وَلَدَتْه أمُّه؛ قال ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (متفق عليه).

وطاعةُ اللَّهِ في حقوقِ المخلوقين: تُصلِح القلبَ وإن كانت ثقيلةً على النَّفْسِ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

واللَّهُ سبحانه بيدِهِ صلاحُ القلوب وطهارتُها؛ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، والدُّعاء عبادةٌ عظيمةٌ، وبه يُدرِكُ العبدُ مطلوبَه، ومِن

دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**» (رواه مسلم).

والإكثارُ مِن ذِكر اللَّه: به انشِراحُ الصَّدرِ وطهارةُ القلب؛ قال ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ومَنِ اشتَغلَ بالقرآن العظيم - تلاوةً وتدبُّراً وعملاً وتعلُّماً وتعليماً -؛ صلَحَتْ نفسُه وانقادَتْ له؛ قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن القيِّم ؒ: «القُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الأَدْوَاءِ القَلْبِيَّةِ وَالبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

والعِلمُ النَّافعُ يُزكِّي أهلَه؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، ولا يزالُ العِلمُ بصاحِبه حَتَّى يَبْلُغَ مُنتهى التَّزكية ويَكونَ مِن أهل الخشية؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾.

وقراءةُ سِيَرِ العُلَماءِ والنُّبلاء تَحْدُو بالنَّفس للتَّأَسِّي بهم واللُّحُوق بِرَكبهم، ومَنْ نَظَر في سِيَرِ السَّلفِ الصَّالحِ ظَهر له تقصيرُ نفْسِه.

وبصلاحِ القلبِ وسلامتِه: صلاحُ ظاهرِ العبدِ وباطنِه، ومَن جاهَدَ نفْسَه ظَفرَ بمقصودِه.

ودوامُ مراقبةِ اللَّهِ يُكمِّلُ أهلَه؛ فيُدرِكُ منازِلَ المحسِنين، وزكاةُ النَّفْسِ موقوفةٌ على محاسبتِها، فلا تزكُو، ولا تَصْلحُ إلا بالمُحاسبة، وبذلك يَطَّلِعُ العبدُ على عُيوبِ نفْسِه ويسعَى إلى إصلاحها.

وغَضُّ البصر ممَّا تَزْكُو به الأنفس؛ قال ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، قال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» (متفق عليه)، وصيانةُ النَّفْسِ عن فُضُولِ النَّظرِ والكلام مِن دواعِي تزكيتها، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وَأَكْثَرُ المَعَاصِي إِنَّمَا تَوَلُّدُهَا مِنْ فُضُولِ الكَلَامِ وَالنَّظَرِ، وَهُمَا أَوْسَعُ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّ جَارِحَتَيْهِمَا لَا يَمَلَّانِ وَلَا يَسْأَمَانِ».

و«المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (رواه أحمد)، والصُّحبةُ الصَّالحةُ خَيرُ عَونٍ للعبدِ على بلوغ المعالِي؛ فإنْ غَفل ذَكَّرُوه، وإنْ ذَكَر أَعَانُوه.

وفي زيارةِ المقابرِ وتذكُّرِ الموتِ؛ حياةُ النُّفُوس واستقامتها.

والتَّوبة تزكِّي العبدَ وتطهِّره؛ قال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً؛ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛ سُقِلَ قَلْبُهُ» (رواه الترمذي).

والنَّفْسُ والأعمالُ لا تزكُو حتى يُزالَ عنها ما يُناقضُها، ولا يكونُ الرَّجُلُ متزكِّياً إلَّا مع ترْك الشَّرِّ؛ فالتَّزكيةُ وإنْ كان أصلُها النَّماءَ والبركةَ وزيادةَ الخير؛ فإنَّما تَحْصلُ بإزالة الشَّرِّ، فلهذا صارَ التَّزكِّي يَجْمَعُ هذا وهذا.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فأصلُ التَّزكية: كتابُ اللَّه وسنَّةُ رسوله ﷺ؛ بطاعةِ اللَّهِ واتِّباعِ هَديِ النَّبيِّ ﷺ، وهذا هو سبيلُ اللَّهِ ودينُه وصراطُه المستقيم، وبذلك زكاةُ الأنفسِ وصلاحُها وفلاحُ الخلْق وعِزُّهم.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآنِ العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

تغيُّرُ أحوالِ العبادِ - صلاحاً وفساداً، ورخاءً وشدَّةً، وأمناً وخوفاً - تَبَعٌ لتغيير ما في نفوسهم؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وكلُّ ما يُصيب العِبادَ فمنشَؤُه مِن أنفسهم، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ومَنْ أصلحَ سريرتَه؛ أصلحَ اللَّهُ له علانيتَه، ومَنْ أَصلحَ ما بينَه وبينَ اللَّهِ؛ أصلحَ اللَّهُ ما بينَه وبينَ الناس، ومَنْ عَمِل لآخرته؛ كفاه اللَّهُ أمر دنياه.

والمؤمنُ وَجِلٌ؛ يَجمعُ بين إحسانٍ وخوفٍ، فيسعى لإصلاح نفسه وتزكيتِها، ولا يَتَمَدَّحُ بذلك فَيَدَّعي زكاءَها وطهارتَها؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

ثُمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الفصل الثَّاني

الإِجَازَةُ الصَّيْفِيَّةُ

وَقَفَاتٌ قَبْلَ السَّفَر (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فتحصَّنوا - عبادَ اللَّه - من عذاب اللَّه بالتَّقوى، وخفِّفوا عن ظهوركم ثِقَلَ الأوزارِ بالقرْب من المولى.

أيُّها المسلمون:

الوقتُ منقضٍ بذاته منصَرِمٌ بِنَفْسه، ومَن غَفلَ عن نَفْسه تَصَرَّمتْ أوقاتُه وعَظُم فواتُه واشتدَّتْ حسراتُه، والأوقاتُ سريعةُ الزَّوال، وعلى المرءِ أن يَعرفَ قيمةَ زمانِه وقَدْرَ وقتِه؛ فلا يُضَيِّعُ منه لحظةً في غير قُربةٍ.

ولنا وقفاتٌ في مُسْتَهَلِّ إجازة هذا العام:

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، العشرين من شهر صَفَر، سنة عشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الوقفةُ الأولى: خيرُ الأسفار: ما كانَ في مَرضاةِ الواحدِ الأحد؛ وقد كانتْ أسفارُ المصطفى ﷺ بعد البعثةِ دائرةً بين سفَرِه للهجرة، وسفَرِه للجهاد - وهو أكثرُها -، وسفَرِه للحجِّ والعمرة.

وفي السَّفرِ يرى المسافرُ مِنْ عجائبِ الأمصارِ وبدائع الأقطارِ ومحاسنِ الآثارِ ما يزيدُه إيماناً بقدرة اللَّه، وما يدعوه إلى شُكْر نعمة مولاه.

في السَّفرِ انفراجُ الهَمِّ وزوالُ الغمِّ، وأخْذُ العبرةِ من الأمم الغابرةِ والقرونِ السَّالفة، فيه حصولُ العِلم والآدابِ وصحبةُ الأمجادِ واكتسابُ المعيشة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

الوقفة الثَّانية: الْزَمْ حُسنَ الصُّحبةِ في سفرِك بالتَّحلِّي بالمُرُوءَة ومكارمِ الأخلاق، واطلبْ لك رفيقاً صالحاً إذا ضاقتْ بك الأمورُ لَقِيْتَ منه ما يُفَرِّجُ كربَك ويَرْفَعُ ضائقتَك، يقول عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لَا تُؤَاخِ الفَاجِرَ؛ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيُحِبُّ أَنَّكَ مِثْلُهُ، وَيُزَيِّنُ لَكَ أَسْوَأَ خِصَالِهِ».

الوقفة الثَّالثة: كُنْ مُقْتَدِياً بالمصطفى ﷺ؛ فكان إذا سافر خَرجَ من أوَّل النَّهار، وكان يَسْتَحِبُّ الخروجَ يومَ الخميس، وأمَر المسافرين إذا كانوا ثلاثةً أنْ يُؤمِّروا أحدهم، ونهى أن يُسافرَ الرَّجلُ وحْدَه، وقال: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**» (رواه الترمذي).

الوقفة الرَّابعة: لقد أَسبغَ اللَّهُ عليك نِعمةَ المالِ والعافيةِ، وغيرُك حُرِم ذلك؛ فلا يكنْ سفرُك إلَّا لأمرٍ مشروعٍ أو مباحٍ، واحذرْ سفرَ المعصية؛ فصاحبُه يَنتقلُ فيه من الأُنْسِ إلى الوحشة، ومن سُرورِ الأسفارِ إلى همٍّ مطاردةِ الأفكار، يقول محمَّد بن الفَضْل ﵀: «مَا خَطَوْتُ خَطْوَةً مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لِغَيْرِ اللَّهِ».

واشْكُرْ نعمةَ اللَّهِ عليك بعدم التَّطلُّعِ إلى المعاصي، وإيَّاكَ والبَذْخَ في الإنفاق والتَّباهي بمالك عند فقراءِ المسلمين؛ فالمالُ دُوَل.

الوقفة الخامسة: تذكَّرْ وأنتَ تسافرُ للنُّزهةِ مشقَّةَ سفرِ العلماء؛ لتدوين العِلم وحفْظ الدِّين وهداية الأمَّة؛ فقد سَطَّروا من الأخبار أعجبَها ومن الأحداث أَحْلَكَها، متعرِّضين للفقر والجوع والمخاطر؛ رغبةً في الثَّوابِ ونشْرِ الحق؛ فقد رَحلَ الإمامُ إسحاقُ بنُ منصورٍ المَرْوَزِيُّ ﵀ من نيسابورَ إلى بغدادَ سيراً على قدميه، حاملاً كُتبه على ظهره، يسألُ عن مسائلَ فقهيَّةٍ، ورحلَ ابنُ منده ﵀ يطلبُ العِلمَ - وعُمُره عشرون عاماً - يُدوِّن الحديثَ في تلك السِّنينَ الطويلة، ويقولُ أبو العاليةَ ﵀: «كُنَّا نَسْمَعُ الرِّوَايَةَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالبَصْرَةِ، فَمَا نَرْضَى حَتَّى نَرْكَبَ إِلَى المَدِينَةِ؛ فَنَسْمَعَهَا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ»، إنَّها هِمَّةُ العلماء، وقوَّةُ العزيمةِ ومصارعةُ الأخطار؛ لخدمة الدِّين.

وتذكَّرْ وأنت تَرْحَلُ بِأسرتِك؛ للتَّرويح عن نفْسِك فَرِحاً مسروراً: إخوةً لك أُخرِجوا من ديارهم قَهْراً، وشُتِّتْ أُسَرُهم بين الأمصار جَبْراً، وودَّعوا أوطانَهم فِراراً؛ فلم يجدوا مأوًى ولا مَلاذاً.

وتذكَّرْ وأنتَ في سَفَرِك: حِفْظَ العلماء لأوقاتهم، يقولُ الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً كَانُوا عَلَى أَوْقَاتِهِمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ حِرْصاً عَلَى دَرَاهِمِكُمْ وَدَنَانِيرِكُمْ».

الوقفةُ السَّادسة: قَلَمُ التَّكليفِ جارٍ على المرءِ في ظَعْنِه وإقامته؛ فكُنْ داعيةَ خيرٍ في سفرِك، ولا تَزْدَرِ نفسَك في الدَّعوة إلى اللَّه؛ فبرَكةُ الرَّجُلِ تعليمُه الدِّينَ حيثما حلَّ، ونصْحُه أينما نزل؛ قال عَزَّ وَجَلَّ إخباراً عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وبذا يكونُ سفرُك عبادةً ونزهةً.

الوقفة السَّابعة: لا يَكتملُ النَّعيمُ إلَّا براحةِ الرُّوحِ مع الجسد، وقراءةُ القرآنِ وذكْرُ اللَّه يُضْفِي على السَّفرِ راحةً وطمأنينةً؛ يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، وبذا يَنْعَمُ جسدُك وتَلْتَذ روحُك، ويَجْتمعُ لك النَّعيمان.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّه على إحسانِه، والشُّكرُ له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

لقد جاءتِ الشَّريعةُ بالحِفاظ على دينِ المرء، ودَرْئِه عن الفِتَن والشُّبُهات والشَّهَوات، وعدمِ تَطَلُّعه إليها؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا** - أَيِ: الفِتَنِ -؛ **تَسْتَشْرِفْهُ** - أَيْ: تَأْخُذْهُ -» (رواه البخاري).

هذا؛ وقد افتَتن بعضُ الناس بالسَّفر إلى بلاد غير المسلمين، مُعَرِّضِين دينَهم وأرواحَهم للهَفَوات والمِخاطِرِ ومصائدِ المُحْتالين، ولقد هيَّأ اللَّهُ لبعض النَّاس السفرَ إلى هناك لِقَبْض أرواحِهم في تلك الدِّيار؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ؛ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً**» (رواه الترمذي).

في ديارِ الكفَّارِ: تَهَافُتٌ على المادَّة، وانحطاطٌ في الأخلاق والسُّلوك، وبُعدٌ عن القِيَم والمروءات، كم عادَ منها من مسحورٍ ومسلوبٍ؟! وكم آبَ منها من مفتونٍ ومُبتلًى؟! وكم ذَرَفَتْ فيها الدُّموعُ أَسَفاً وندامةً؟!

ولقد أفتى أهلُ العِلم بحُرمةِ السَّفرِ إلى بلادِ غيرِ المسلمين إلَّا لحاجةٍ، ومع عِلْمٍ يَدفعُ الشُّبُهات وإيمانٍ يَدْرَأُ الشَّهَوات، ومع إقامةِ شعائرِ الدِّين.

وَلْيحذرِ المسلمُ المسافرُ مِن حبِّ المشركين ومُوَالاتِهم، ولا يَغْتَرَّ بما هم فيه من زُخْرُف خَادعٍ، أو دنيا قائمةٍ؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

وما أبهى السَّفرَ المقترِنَ بالعبادة: عمرةٌ تكفِّر الخطايا، وصلاةٌ في مسجد رسول اللَّه ﷺ خير من أَلْف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ رحلةٌ إيمانيَّةٌ، وظَفَرٌ بالخير في الدنيا والآخرة؛ قال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

بِدَايَةُ الإِجَازَةِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه ونَستهدِيه، ونَعوذُ بِهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فإنَّ تقواهُ هي أقومُ وأقوى، وخفِّفُوا عن ظهورِكُم ثِقَلَ الأوزارِ بالقُرب من المولى.

أيُّها المسلمون:

الوقتُ زمنُ تحصيلِ الأعمالِ والأرباح؛ بل هو الحياةُ كلُّها، وقد أَقسمَ اللَّهُ بأجزائه؛ باللَّيل والنَّهار والفجر والضُّحى والعصر والشَّفَق؛ لِمَا فيها من العِبَرِ والآياتِ والأعاجيب، والعُمُر لا يُقوَّمُ نفاسةً وغلاءً إلَّا به.

وقد أنَّبَ اللَّهُ الكُفَّارَ إذ أضاعوا أعمارهم من غير إيمان؛ فقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وما

(١) أُلقيت يوم الجمعة، التاسعَ والعشرين من شهر صَفَر، سنة إحدى وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

مَثَلُ الدَّافعين لزمانِهم دفْعاً بإهمال أوقاتهم؛ إلَّا كالمتحدِّثين في سفينةٍ تجري بِهم من غير شعورهم بها، ولِعِظَمِ أهميةِ الوقتِ كان ممَّا أُفْرِد بالمُساءلة عند العَرْض؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟**» (رواه الترمذي).

إنَّ إضاعةَ الوقتِ من علامة المَقْت، والمُوفَّقُ مَن عرفَ كيف يَتَدَارَكُ فَراغَه وصِحَّتَه ويَضَعُهما في الموضع الذي يُحَقِّقُ له السَّعادة الأبديَّة؛ يقول عليه الصلاة والسلام: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**» (رواه البخاري).

وبيْنَ اختلافِ اللَّيلِ والنَّهار: مَعْرِكٌ يَكِرُّ جيشُه بالعجائب، ولقد كان الرَّعيلُ الأوَّلُ يبادرون اللَّحظة من الزَّمن؛ يقول ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدَامَتِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ؛ نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزْدَدْ فِيهِ عَمَلِي»، ويقول بعض الزُّهَّاد: «مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَداً سَمِعَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ تَأْتِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ لَا يُطِيعُ اللَّهَ فِيهَا بِذِكْرٍ، أَوْ صَلَاةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ، أَوْ إِحْسَانٍ»، وكانت امرأةُ أبي مُحمَّدٍ حَبيبٍ الفارسيِّ تُوقظُه باللَّيلِ وتقول: «قُمْ! فَإِنَّ الطَّرِيقَ بَعِيدٌ، وَزَادُنَا قَلِيلٌ، وَقَوَافِلُ الصَّالِحِينَ قَدْ سَارَتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَنَحْنُ بَقِينَا»، وقرأ ابن حجرٍ رحمه الله معجمَ الطَّبراني الصَّغيرَ في جَلسةٍ بين الظُّهر والعصر، وكان أبو العلاءِ الحسنُ بن أحمد يَكتبُ وهو قائمٌ على قدميه في المسجد لِعُلُوِّ السِّراج.

أيُّها المسلمون:

لقد أَدركَ السَّلفُ الصَّالحُ أهمِّيَّةَ الزَّمانِ، وسعى الأنبياءُ والصَّالحون إلى تقويمِ أبنائهم على الملَّة الحنيفيَّة في ثنايا أجزائه، وأفنوا عزيزَ أعمارهم لِيُجَنِّبوهم مَزالقَ الضَّلال؛ فخلَّفوا وراءهم خَلَفاً صالحاً يَسيرُ على الدَّربِ ويَحتذي المثال، تَتَبارى في ظِلِّه المواهبُ والهِمَم، يقول أبو سَعْدٍ عبدُ الكريم المَرْوَزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «حَمَلَنِي وَالِدِي مِنْ مَرْوٍ إِلَى نَيْسَابُورَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ؛ لِسَمَاعِ الحَدِيثِ»، ولقَّن الإمامُ أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ ابنَه القرآن كلَّه.

ولَمَّا أَخْلَصَ الآباءُ في تربيةِ الأبناء؛ أَخرجوا جيلاً مُكَافِحاً في الحياةِ لأجل الدِّين، مَلأَ طِيبُ ذِكْرِهم المشارقَ والمغارب، يقول ابن جرير الطَّبري رَحِمَهُ اللهُ: «أَبْطَأَتْ عَنِّي نَفَقَةُ وَالِدِي وَأَنَا ابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً أَطْلُبُ العِلْمَ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى أَنْ فَتَقْتُ كُمَّيْ قَمِيصِي فَبِعْتُهُمَا»، ونَقضَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ - وهو في شبابه - سَقْفَ بيته، فباع خَشبَه؛ لِيَتزَوَّدَ لِطلبِ العِلم، وكان الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يتيماً في حِجْرِ أُمِّه؛ فدفعتْه أمُّه إلى المعلِّم ولم يكن عندها ما تعطي المعلِّم، قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَكُنْتُ أَحْفَظُ مَا يَقُولُ، وَكَانَ يَرْضَى مِنِّي المُعَلِّمُ بِأَنْ أَخْلُفَهُ فِي التَّدْرِيسِ إِذَا قَامَ».

على هذا النَّهجِ الرَّفيعِ تعاقبَتْ طوائفُ الأولياء، وتوالتْ زُمَرُهم في الميدان، وتَلقَّى الرَّايةَ نابغٌ عن نابغٍ، وتَسابَقوا مُخْلِصِين دائبين في إقامة صَرْحِ الدِّين وتَشْييدِ أركانه بِحُسن التَّربية.

ودُوِّنْتْ علوم الإسلام مِن فحول العلماء بألوانٍ من الصَّبر العجيب، بِظَمَأِ الهواجرِ، وسَهَرِ اللَّيالي، وانقطاع النَّفقة في بلد الاغتراب، والمشاقِّ الناصبةِ المتعاقبة، وملاقاةِ الخطوب والأخطار، بِمِثل هذه المتاعبِ والآلامِ حُفِظَ الدِّينُ في صدورِ الأفذاذ، ونَشَأَتْ أجيالٌ صالحةٌ في المجتمعات.

وفي مُقابل هذا الكِفاح المَرِير من الآباء لإخراج أبناءَ صالحين أَصبحوا مَناراتٍ في الإسلام؛ فرَّط بعضُ الآباءِ في إصلاحِ أبنائِهم في ديار الإسلام، ولم يكتفوا بإهمالِ تربيتِهم في دُورِهم، بل عرَّضوهم للفتن بالسَّفر إلى بلاد غير المسلمين؛ زعماً منهم أنَّهم بذلك يُكَافِئُونهم أو يُكْرِمونهم أو يُفْرِحونهم، أَمَا عَلِم أولئك أنَّ في السَّفر إليهم تَعَرُّضاً للمهالك؟! وقد يقعون فَرِيسةَ الانحراف في المَلَذَّات والشَّهوات، وانحطاطِ الأخلاقِ والسُّلوك، والبُعد عن القِيَم والمروءات.

في الرِّحلةِ إلى هناك يَضْعُفُ جانبُ الولاءِ والبراء، لا يُسْمَع للأذان نداءٌ ولا للشَّريعة حُكمٌ، ولا للمعروف أمرٌ ولا للمنكر نهيٌ، مَنَاظِرُ مُخِلَّةٌ بالآداب والأخلاق، مُجاهرةٌ بالمعاصي والسَّيِّئات.

الشَّابُّ هناك عُرْضَةٌ للتأثُّرِ بمحاكاةِ الكفار في المآكل والمشارب والهيئات، تُرى أخلاقٌ مُنْحَطَّة، وسلوكيَّاتٌ مِعْوَجَّةٌ، سفورٌ وتَبَرُّج، تَزْيِينٌ للرَّذيلة ودعوةٌ للجريمة، وفي المال بَعْثَرَةٌ له وتَبْذِيرٌ؛ ما جُمِع على مدار العام يُزَجُّ به في أَرْصِدَتِهم في ثنايا أيام.

إنَّ أعداءَ اللَّه لا يَرقُبون في المؤمن إلّاً ولا ذِمَّة، نظراتُهم إلى

دينك نظرةُ عِداءٍ مُسْتَحْكِم وإن تظاهروا بالمَوَدَّة واصطَنعوا حميدَ الأخلاق؛ يقول جَلَّ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، ورؤيتُهم لِمَالِك نَظْرَةُ حَسَدٍ وازدراءٍ، يَحسدونك على ما أنعمَ اللَّهُ عليك من النَّعماء، ويتمنون تَحَوُّلَها عنك في الحال؛ يقول تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، لذا فَهُمْ يمكرون بك ليلاً ونهاراً؛ يقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، فما جَريرةُ النَّاشئ يَتعَرَّضُ لِمخاطرِهم، ويُبْصِرُ معابِدَهم وأشربَتَهم المُحَرَّمة وأخلاقَهم الهابطة؟ وقد يَتَأَثَّرُ بمعتقَداتٍ باطلةٍ، ومنهم مَن يَعودُ بأَنَفٍ من العيش في ظِلِّ المحافظة والسِّتر وأحكام الإسلام.

ولَئِنْ صانَ الأبُ من يَعُولُ بعين الرِّعايةِ والمحافظةِ هناك؛ فَتَوَارِدُ الفِتَنِ على القلبِ ودَرْؤُها لا يَمْلِكُه البشر، فَيَتَطَلَّعُ إلى تلك الدِّيار في مُسْتَقْبَل زمانه، فتنشأُ الأجيالُ على مواطأة أراضي الكُفَّار، وتَتَعَلَّقُ لَوْثَةُ الإعجابِ والافتتانِ بهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

فاحْلُلْ وَثَاقَ حقائبِ سفرِك، واعدلْ عن قَرارِ رحلتِك، ولا تستجِبْ لداعي الهوى والشيطان؛ فمَنْ ترك شيئاً للَّه عَوَّضه اللَّه خيراً منه، واجعلْ وِجْهَتَك إلى كعبةِ اللَّهِ المشرَّفة، وأَدِّ فيه عمرةً، وصلِّ في مسجدِ خيرِ الوَرَى ﷺ؛ فصلاةٌ فيه خيرٌ من أَلْفِ صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام.

أيُّها المسلمون:

العنايةُ بالأبناء مَسْلَكُ الأخيارِ وطريقُ الأبرار، وإنَّ حُسْنَ نشأةِ الأولادِ مُرْتَبِطٌ باستمساكِ الوالدين بالدِّين، وكلَّما استقامَ الوالدان كان الأبناءُ بِمَنْجَاةٍ من عوامل الضَّيَاع وأسباب الضَّلال، وأنت السَّعيد بصلاحهم في دنياك وأُخراك.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، ﷺ وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

الكَسَلُ عن الفضائلِ بِئسَ الرَّفيق، وحبُّ الدَّعَةِ والرَّاحةِ يُوْرِثُ من النَّدم ما يَرْبُو على كلِّ مُتْعَةٍ، فَصَاحِبِ المُجِدِّين المُتَيَقِّظين للزَّمان، وجانبِ المجالسَ الخاوية، واقرأْ سِيَر الأفذاذ، واستَزِدْ من المعرفة بعلوم الشَّريعة، واغتنمْ حياتَك النَّفيسة، واحتفظْ بأوقاتِك العزيزة؛ فحياتُك محدودةٌ، وأنفاسُك معدودةٌ، والعُمُرُ قصيرٌ، وما تَبقَّى منه يسيرٌ.

وَحَصِّنْ أهلَك أمامَ تلاطمِ الفِتَنِ بزادِ العِلم، وانتقِ لِصُحْبتِهِمُ الأخيار، واحرصْ على تربيةِ البنينَ على الإيمان والتَّقوى؛ ففي حفْظِهم لكتابِ ربِّهم والعملِ به رِفْعَةٌ وعُلُوّ، وقد كان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَضَعُ القيدَ في قَدَم عِكرمة؛ لتعليمه الكِتابَ والسُّنَّة.

وكَافِئْ أبناءك على ما قَدَّمُوا من صالح عملٍ، يقول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ! اطْلُبِ الحَدِيثَ؛ فَكُلَّمَا سَمِعْتَ حَدِيثاً وَحَفِظْتَهُ فَلَكَ دِرْهَمٌ»، قَالَ: «فَطَلَبْتُ الحَدِيثَ عَلَى هَذَا».

والزَّمانُ أشرفُ مِن أنْ يُضَيَّعَ منه لحظةٌ؛ فـ«**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**» (رواه الترمذي)، ومَنْ أمضى يوماً من عُمُره في غير حقٍّ قضاه، أو فرضٍ أدَّاه، أو خيرٍ أسَّسه، أو عِلمٍ اقتَبسَه؛ فقد عقَّ يومَه وظَلَم نفسَه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

خَيْرُ مَا تُقْضَى بِهِ الإِجَازَةُ الصَّيفِيَّةُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه طريقُ الهُدى، ومُخالفتُها سبيلُ الشَّقاء.

أيُّها المسلمون:

الوقتُ زمنُ الإعمارِ، وتحقيقِ السَّعادة أو الهدم والشَّقاء، ولشرفِه أَقسمَ اللَّه بأجزائِه؛ بل أَقسمَ بالزَّمن كلِّه - ليلِه ونهارِه -؛ فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

وفي مُضِيِّ اللَّيالي والأيَّام ذِكرى وعِظةٌ للمتَّقين؛ قال جلَّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾، ونبيُّنا ﷺ كانتْ حياتُه كلُّها للَّه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحۡيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامسَ عشَر من شهر شعبان، سنة خمس وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

واغتنَمَ الصَّحابةُ زمانَهم، وأَخبرَ اللَّه بشيءٍ من أعمالهم؛ فقال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾، ومن وصايا أبي بكرٍ لِعُمرَ رضي الله عنهما: «إِنَّ لِلَّهِ عَمَلاً بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلاً بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ»، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدَمِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزْدَدْ فِيهِ عَمَلِي».

وكان السَّلفُ رحمهم الله يَغتنِمُون لَحظاتِ أعمارِهم، فَعَمَروا زمانَهم بما يُرضِي ربَّهم، قال الحسنُ البَصريُّ رحمه الله: «أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً كَانُوا عَلَى أَوْقَاتِهِمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ حِرْصاً عَلَى دَرَاهِمِكُمْ وَدَنَانِيرِكُمْ»، و«**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟**» (رواه الترمذي).

وطولُ العُمُرِ مع صلاحِ العملِ من مِنَنِ اللَّه العِظام؛ قال رجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**» (رواه أحمد).

والأَيَّامُ معدودةٌ؛ إِنْ ذهبَ يومٌ نقصَ عُمُرُك، وذهابُ البعضِ أمارةٌ على ذهاب الكلِّ، والعبد من حين استقرَّت قدمُه في هذه الدَّار؛ فهو مسافرٌ فيها إلى ربِّه، والرَّابِحُ من العباد مَنِ اغتنَمَ زمانَه بما ينفعُه، والمَغبُون من فرَّط فيه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا** - أَيْ: يُفَرِّطُ فِيهِمَا - **كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**» (رواه البخاري)، قال ابن القيِّم رحمه الله: «إِضَاعَةُ الوَقْتِ أَشَدُّ مِنَ المَوْتِ؛ لِأَنَّ إِضَاعَةَ الوَقْتِ تَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ، وَالمَوْتُ يَقْطَعُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا»، وَمَنْ

أضاعَ وقتَه تَحسَّرَ على كلِّ لحظةٍ منه، ومَن مضَى عليه يومٌ من عُمُره من غير حقٍّ أدَّاه، ومن غير فرضٍ قضاه، أو علمٍ علِمَه؛ فقد عقَّ يومَه وضيَّع عُمرَه.

والحاذِقُ مَن يشغلُ وقتَه بما يُرضِي ربَّه، وإذا فرغَ من عملٍ قام بآخر؛ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عَلَائِقَهَا؛ فَانْصَبْ إِلَى العِبَادَةِ وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطاً فَارِغَ البَالِ، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ».

وأفضلُ عبادةٍ تقامُ: إفرادُ اللَّه بالتَّوحِيد، وأداءُ أركانِ الإسلام على التَّمام.

ومِنْ خيرِ ما تُعْمَرُ به الأوقاتُ، وتُرفعُ به الدَّرجات: حِفظُ كتابِ اللَّه العظيم، ومُراجعتُه وتدبُّره؛ فهو كنزٌ ثمينٌ وتجارةٌ رابِحةٌ؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ؛ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ» (رواه مسلم).

ومَنْ نالَ حِفظَ كتابِ اللَّه شَرُف، ومَن تلاه عَزَّ، ومن قَرُبَ منه عَظُم، ومنزلةُ العبدِ في الجنة عند آخر آيةٍ يُرتِّلُها منه، وفي زمنِ الفِتَنِ وانفِتاحِ أبوابِ الشُّبُهات والشَّهوات؛ يكونُ الاعتِصامُ بكتاب اللَّه ألزَم، والقُربُ منه أوجَب.

والتَّزوُّدُ من العِلم الشَّرعيِّ - بحُضور مجالِسِ العلماء، وحفظِ

الأحاديث النَّبويَّة ومُختصرَات العلوم الشَّرعيَّة - رسوخٌ في العِلم ورِفعةٌ للمسلِم؛ قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، قال الإمام مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَفْضَلُ مَا تُطُوِّعَ بِهِ: العِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ»، وبالعِلم تُشْرِقُ سيرةُ المرء، ويَبقَى ذِكرُه وإن فُقِد.

والدَّعوةُ إلى هذا الدِّين ونشْرُه بالحكمة: سبيلُ المُرسلين والصَّالحين: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وهو بابُ الخيرِ والبركات؛ «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً؛ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» (متفق عليه).

وبِرُّ الوالدَين طاعةٌ وسعادةٌ، والقُربُ منهما أُنسٌ وتوفيقٌ؛ قال سبحانه عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ بَرَّ بِوَالِدَيْهِ كَانَ مُتَوَاضِعاً سَعِيداً».

والابنُ الفطِنُ يسعَدُ بالإجازة لمزيدِ البرِّ لوالدَيه وإدخالِ السُّرورِ عليهما وصُحبتِهما، وممَّا يُفرِحُهما: استقامةُ ولدِهما على الدِّين، ومِنْ برِّهما زيارةُ صديقِهما وإكرامُهما مِنْ بعدِهما؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَبَرُّ البِرِّ: أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ**» (رواه مسلم).

وصِلةُ الرَّحِمِ تُرضِي الرَّحمن، وتُطيلُ العُمُر، وتَزيدُ في المال، وتُبارِكُ في الوقت، وتُقرِّبُ ما بيْن النُّفُوس، وتُظهِرُ مكارِمَ الأخلاق، وتُبدِي جميلَ المُرُوءَات؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» (متفق عليه).

وزيارةُ أهلِ العِلم والصَّالحين تُهذِّبُ النُّفُوس، وتسمُو بالرُّوح، وتُعلِي الهِمَم، وتُصلِحُ الحال، وتُذكِّرُ بالآخرة، ويَنالُ بها الزائرُ معرفةً وعِلماً؛ فهم ورثةُ الأنبياءِ ودعاةُ الهُدى.

والتَّنافُسُ في الخير والتَّقوى من صفات أهل الجَنَّة؛ قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي خَيْرٍ؛ فَنَافِسْهُمْ فِيهِ».

والصُّحبةُ الصَّالحةُ خيرُ مُعينٍ على العمل الصَّالح؛ تَدفعُ إلى البِرِّ، وتُغْلِقُ أبوابَ الشَّرِّ، وتَحُثُّ على الطَّاعة، والمُتحابُّون بجلال اللَّه على مَنابِر من نورٍ، يغبِطُهم النَّبيُّون والشُّهداء.

ورفيقُ السُّوء يدعُو إلى الشَّرِّ ويَصُدُّ عن الخير، صحبتُه حَسرةٌ، ورُفقتُه ندامةٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعْتَبِرِ الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ - أَيِ: انْظُرُوا إِلَى رُفَقَائِهِ لِتَعْرِفُوهُ -؛ فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ».

والتَّطلُّعُ إلى مواطِن الفِتَن وأسبابِها - من المَرْئيَّات في القنوات وغيرِها -؛ تُورِثُ المرءَ نُكرانَ النِّعم، وتُورِدُ على القلب الظُّلَم.

والإجازةُ مَغْنَمٌ لقُرْب الأبِ من أبنائِه؛ يَمْلأُ فراغَ قلوبِهم، ويُهذِّبُ سلوكَهم، ويُقوِّمُ عِوَجَهم، وواجبُ الأبِ نحوَ أبنائِه عظيمٌ، والأمُّ عليها من الواجِبِ مع بناتها مثلُ ذلك؛ برعايتهنَّ وتعهُّدهنَّ بالنُّصح والتَّوجيه، وأمرِهنَّ بالحجاب والسِّتر والعفاف، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَدِّبِ ابْنَكَ؛

فَإِنَّكَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ: مَاذَا أَدَّبْتَهُ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ؟ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ بِرِّكَ وَطَوَاعِيَتِهِ لَكَ».

والأبناءُ يَسْعَدون بمُرافقة أبيهم وأُنْسِهم به وانتِفاعِهم بأخلاقِه، واكتِسابِهم الصِّفات الحميدة منه، قال ابن عقيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَاقِلُ يُعْطِي لِلزَّوْجَةِ وَلِلنَّفْسِ حَقَّهُمَا، وَإِنْ خَلَا بِأَطْفَالِهِ خَرَجَ فِي صُورَةِ طِفْلٍ، وَهَجَرَ الجِدَّ فِي بَعْضِ الوَقْتِ».

ومُكافأةُ الأبناءِ على الخير من حُسْنِ الرِّعاية، قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ! اطْلُبِ الحَدِيثَ؛ فَكُلَّمَا سَمِعْتَ حَدِيثاً وَحَفِظْتَهُ فَلَكَ دِرْهَمٌ»، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «فَطَلَبْتُ الحَدِيثَ عَلَى هَذَا».

وإعراضُ الأبِ عن أبنائِه وبُعدُه عنهم إهمالٌ لِتنشِئَتِهم، وفيه تَيسيرُ وصولِ أهلِ السُّوء إليهم، فيَجنِي من ذلك الأبُ النَّدامةَ والحسرةَ.

والسَّفرُ المُباحُ بهم يُقرِّبُ ما بين الوالدَين والأبناء، ويسُدُّ ما بينهم من خلَلٍ؛ والعمرةُ سفرُ عبادةٍ تحطُّ الأوزار وترفعُ الدَّرجات، وصلاةٌ في مسجد النَّبيِّ ﷺ خيرٌ مِن ألْف صلاةٍ فيما سِواه.

والسَّفرُ المُحرَّمُ إهدارٌ للمال، وعُرضةٌ للفِتَن، وسببُ كثيرٍ من الشُّبُهات والشَّهَوات، ويعودُ المرءُ مِن سفَرِه أسوأَ حالاً ممَّا كان قبْله.

وفي الإجازة تُبْنَى أُسَرٌ بالزَّواج، ومِنْ شُكرِ تلك النِّعمةِ ودوامِها: أَن لا يَصْحَبَ وليمتَها مُحرَّمٌ، وأن يكونَ زواجاً لا معصيةَ فيه.

واللَّهُ باركَ لهذه الأُمَّة في بُكورِها، وجعل اللَّيلَ سكَناً والنَّهار معاشاً، ومِنْ هدْيِه ﷺ النَّومُ أوَّلَ اللَّيل، والصَّلاةُ آخرَه؛ فعن أبي

بَرْزَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا» (متفق عليه)، وإذا كان السَّهَرُ وسيلةً إلى التَّخلُّف عن صلاة الفجر مع الجماعة؛ كان مُحرَّماً.

والمسلم يُراقبُ ربَّه في أحوالِه وأزمانِه، ويُوقِنُ بأنَّ اللَّهَ يرى أفعالَه ويسمعُ كلامَه، ويعلمُ ما يُكِنُّ فؤادُه؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾.

وأفضلُ الإيمانِ: أنْ تَعلمَ أنَّ اللَّهَ معك، ومن وصايا النَّبيِّ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» (رواه الترمذي).

واللَّه يَغَارُ إذا انتُهِكَتْ حدودُه في سفرٍ أو حضرٍ؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ: أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» (متفق عليه).

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فالمؤمنُ يبتعِدُ عن الخطيئات، ويتزوَّدُ من الصَّالِحات، ويغتنِمُ أوقاتَه فيما شرعَه اللَّه، ولَئِنْ كان العملُ مَجْهَدَةً؛ فإنَّ الفراغَ مفسدةٌ، ونفسُك إن لم تشغَلْها بالحقِّ؛ شغلَتْك بالباطل، والمرءُ مُمتَحَنٌ في رخائِه وسرَّائِه، وعافيتِه وبلائِه، في حلِّه وترحالِه.

والمُوفَّق مَن جَعل التَّقوى مَطِيَّتَه وسارَعَ إلى جنَّة ربِّه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابِه، وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

أَمَدُ الدُّنيا قصيرٌ، ومتاعُها زائلٌ حقيرٌ؛ فلا تتعلَّقْ منها إلَّا بما يقضِي به الغريبُ حاجتَه في غير موطنِه، ولا تَشتغِلْ فيها إلَّا بما يَشتغِلُ به المسافِرُ الذي أعدَّ العُدَّة للرُّجوع إلى أهلِه.

والمؤمنُ بين مخافتَين: بين ذنْبٍ قد مضَى لا يدرِي ما اللَّهُ صانعٌ فيه، وبين أجلٍ قد دنَا لا يعلمُ ما هو صائِرٌ إليه، والعاقلُ يَتعبَّدُ ربَّه في أزمانِ فراغِه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

أَعْمَالٌ فِي الإِجَازَةِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

يُقلِّبُ اللَّهُ الدَّهرَ ويدبِّرُ أمرَه؛ لِيَظْهرَ شُكرُ الشَّاكرين وتَذكُّرُ المتذكِّرين؛ قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وأمَر النَّبيُّ ﷺ باغتنام الزَّمن، وأَقسمَ اللَّهُ بأجزائه؛ تعظيماً لشأنه؛ فأَقسمَ بالفجر والصُّبح والضُّحى والعصر، وأقسمَ بالزَّمنِ كلِّه - ليلِه ونهارِه -، فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالثَ والعشرين من شهر جمادى الآخرة، سنة تسع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وطُولُ العُمُرِ معَ صلاحِ العملِ مِنْ مِنَنِ اللَّه الجِسام؛ قال رجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**» (رواه أحمد)، وكانتْ حياةُ النَّبيِّ ﷺ كلُّها للَّه في اللَّيل والنَّهار؛ قال اللَّه له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وأثنى اللَّهُ على النَّبيِّ ﷺ وصحابتِه؛ لِعمارة أوقاتِهم بالعبادة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾.

وكان السَّلفُ يَغتنمون لحظاتِ زمانِهم لرضوان اللَّه؛ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بِنِيَّةِ إِجْمَامِ نَفْسِي وَإِرَاحَتِهَا؛ لِأَسْتَعِدَّ بِتِلْكَ الرَّاحَةِ لِذِكْرٍ آخَرَ».

وما أعظمَ مَنِ اغتنمَ زمنَ حياتِه بالإكثار من طاعة اللَّه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا** - أَيْ: يُفَرِّطُ فِيهِمَا - **كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**» (رواه البخاري).

ومِنْ خَيرِ ما يُعْمَرُ به زمَنُ الإجازةِ ويُنتفعُ به: حِفْظُ كتابِ اللَّهِ الكريم؛ فهو كنزٌ ثمينٌ، مَنْ نالَه شَرُف، ومَنْ تلاه عَزَّ، ومَنْ قَرُبَ منه عَظُم، ومنزلةُ العبدِ في الجَنَّة عند آخر آيةٍ يُرَتِّلها، وحِفْظُ كتابِ اللَّهِ تجارةٌ رابحةٌ؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ؛ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ** عَزَّ وَجَلَّ **خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**» (رواه مسلم).

وفي زمنِ الفِتَنِ وانفتاحِ أبوابِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ يكونُ الاعتصامُ بِكِتاب اللَّه ألزم، والقُرْبُ منه أوجب؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ؛ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي**» (رواه الحاكم).

والتَّزوُّدُ من العِلم الشَّرعيِّ بحفظِ أحاديثِه، ومتونِ أهلِ العِلم المصنَّفةِ في فنون الشَّريعة؛ رسوخٌ في العِلم، ورِفعةٌ للمسلِم؛ قال اللَّـه ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَفْضَلُ مَا تُطُوِّعَ بِهِ: العِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ»؛ ولأجلِ هذا تَغرَّبَ العلماءُ، وصَبروا على المشاقِّ؛ فتَعلَّموا وعَمِلوا، وعلَّموا وصنَّفوا، فبقي تاريخُهم نبيلاً، وسيرتُهم مَناراً.

والشَّابُّ الفَطِنُ يَسعدُ بالإجازةِ لمزيدِ البرِّ بوالديه؛ فَبِرُّهما طاعةٌ، وطاعتُهما سعادةٌ، والقُربُ منهما توفيقٌ؛ قال سبحانه عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ بَرَّ بِوَالِدَيْهِ كَانَ مُتَوَاضِعاً سَعِيداً»، ومِنْ برِّهما: زيارةُ صديقِهما وإكرامُهما من بعدهما؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَبَرُّ البِرِّ: أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ**» (رواه مسلم).

وصلةُ الرَّحِم؛ تُرضي الرَّحْمَن، وتُطيلُ العُمُر، وتُثري المال، وتُبارِكُ في الوقت، وتُقرِّبُ النُّفوس، وتُظْهِرُ مكارمَ الأخلاق وجميلَ المُرُوءَات؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» (متفق عليه).

وزيارةُ أهلِ العِلم والصَّالحين تُهذِّبُ النُّفوس، وتَسْمُو بالرُّوح، وتُذكِّرُ بالآخرة، وتُعْلِي الهِمَم، وتُصلِحُ الحال، ويَنالُ بها الزَّائرُ معرفةً وعِلماً وأدباً؛ فهم ورثةُ الأنبياءِ ودعاةُ الهدى.

والصُّحبةُ الصَّالحةُ خيرُ معينٍ على العمل الصَّالح؛ تَدفعُ إلى البِرِّ، وتُغْلِقُ أبوابَ الشُّرور، وتَحثُّ على الطَّاعة، واللَّهُ ﷻ أَخبر أنَّ لنبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ صاحباً يُعينُه على طريقِ الدَّعوةِ وتَبليغِ الرِّسالة؛ فقال سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، والمُتحابُّون بجلال اللَّه على منابرَ من نورٍ، يَغْبِطهمُ النَّبيُّون والشُّهداء.

ورفيقُ السُّوء يُميتُ الهمَّة، ويَدفعُ إلى السُّوء، ويَصُدُّ عن أبواب الخير، وقد أَخبرَ اللَّهُ أنَّ رُفقتَه نَدامة؛ قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

والنَّظرُ إلى مواطنِ الفِتَنِ وأسبابِها في المَرئيَّات من القنوات وغيرها؛ يَعيشُ المرءُ معها وَهْماً، وتُورثُه نُكْرانَ النِّعَم، وتَرفعُ القناعةَ من النَّفْس، وتُغْشي على القَلبِ الظُّلَم.

والإجازةُ مَغْنَمٌ لِقُربِ الأبِ من أبنائه؛ يَملأُ فراغَ قلوبهم، ويُهَذِّبُ سلوكَهم، ويُقَوِّم عِوَجَهم، والأبناءُ يَسْعَدون بمرافقتِهم لأبيهم، وأُنسِهم به، وانتفاعِهم بأخلاقه، واكتسابِهم الصِّفاتِ الحميدة، وتَغَافُلُ الأبِ عن أبنائه وبُعْدُه عنهم: إهمالٌ لتنشئتهم، وتيسيرٌ لأهل السُّوء للوصول إليهم؛ فيندمُ الأبُ على تفريطِه وإهمالِه لأبنائه.

والسَّفرُ المُباحُ بهم يُقرِّبُ ما بين الوالدين والأبناء، ويُوَارِي هُوَّةَ الفجوةِ بينهم، والعمرة سَفَرُ عبادةٍ يَحُطُّ الأوزار، ويَرفعُ الدَّرجات، وصلاةٌ في بيت اللَّه العتيق أفضل من مئة ألْف صلاةٍ فيما سواه، وصلاةٌ في مسجد رسول اللَّه ﷺ أفضل من ألْف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام.

والسَّفرُ المُحرَّم: إهدارٌ للمال، وعُرضةٌ للفتن، وقد تقعُ بسببه في قلوب الأولاد شبهاتٌ أو شهواتٌ لا يَملك الأبُ منعَها أو علاجَها، وقد يعودُ المرءُ من السَّفر بحالٍ أسوأَ من حالِه قبْل السَّفر.

وفي الإجازة تُبْنَى أُسَرٌ في المجتمع بالزَّواج، ومن شُكْرِ تلك النِّعمةِ: أن لا يَصْحَبَ وليمتَها محرَّمٌ - من إسرافٍ، أو عُرِيٍّ، أو غِناءٍ، أو تصويرٍ -، وأن يكون زواجاً لا معصيةَ فيه.

ومِن هَدْيه ﷺ: النَّومُ أوَّلَ اللَّيل، والصَّلاةُ آخرَه، فعن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا» (متفق عليه)، وإذا كان السَّهرُ يُوهِنُ العزيمة، ويُثْقِلُ عن صلاة الفجر مع الجماعة؛ كان محرَّماً.

والمسلِمُ يراقبُ ربَّه في أحوالِه وأزمانه، ويَستشعرُ أنَّ اللَّهَ يراه في أفعاله أيّاً كان زمانُها أو مكانُها؛ قال عز وجل: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، والثَّواب والعقاب يُجازَى عليه العبدُ في كلِّ موطنٍ حلَّ فيه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» (رواه الترمذي).

واللَّه جلَّ شأنُه يَغَارُ إذا انتُهِكَتْ حدودُه - في سفرٍ أو حضرٍ -؛ قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ: أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**» (متفق عليه)؛ فَكُنْ مبتعِداً عن الخطيئات - في سفرِك وحِلِّك -، وتزوَّدْ من الأعمالِ الصَّالحة وإن قَلَّت؛ قال ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» (رواه مسلم).

والمرءُ مُمْتَحَنٌ في رخائه وسرَّائه، وعافيتِه وبلائه، والمُوفَّقُ مَنْ جَعلَ التَّقوى مَطِيَّته وسَارَعَ إلى مغفرة ربِّه وجنةٍ عرْضها السَّموات والأرض.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلِمون:

الواجبُ على الأبِ عظيمٌ نحو أبنائِه في كلِّ وقتٍ وفي الإجازة أشدُّ، والأمُّ عليها واجبٌ مضاعَفٌ في الحفاظ على بناتها، وملازمتِها لَهُنَّ في الرِّعاية والنُّصح والتَّوجيه، وَلْتَأْمُرِ الأمُّ بناتِها باغتنام فراغِهنَّ بحفظ كِتاب اللَّه، وسماعِ ما يُفيد من ذكْر اللَّه، والقيامِ بأمور البيت ولو مع توافر مَن يَخدمُهنَّ، مع أمرِهنَّ بالحجاب والسِّتر والعَفاف، ونَبْذِ ما يَضرُّهنَّ ممَّا ينافي الدِّينَ والأخلاق.

والدُّنيا قصيرةٌ ومتاعُها زائلٌ، فلا تَتعلَّقْ منها إلَّا بما يقضي به الغريبُ حاجتَه في غير موطنه، ولا تشتغلْ فيها إلَّا بما يشتغلُ به الغريبُ الذي أعدَّ العُدَّة للرُّجوع إلى أهله؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَاللَّهِ! مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**» (رواه مسلم)، «**وَهَلْ لَكَ - يَا ابْنَ آدَمَ - مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**» (رواه مسلم).

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

اغْتِنَامُ الإِجَازَةِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّهِ طريقُ الهدى، ومخالفتُها سبيلُ الشَّقاء.

أيُّها المسلمون:

الحياةُ سببُ الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة أو السُّفولِ فيهما، ولشرفِ ما حوَتْه من الزَّمان أقسمَ اللَّهُ بأجزائه؛ فأقسمَ بالفجر والضُّحى، والعصر والشَّفَق؛ بل أقسمَ بالزَّمنِ كلِّه - ليله ونهاره -، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

واللَّهُ يُقلِّبُ حالَ الزَّمانِ من ظُلمةٍ إلى إشراقٍ؛ لإيقاظِ القلوبِ بعمارةِ الكونِ بعبادة اللَّه؛ قال جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامسَ والعشرين من شهر رجب، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وأمرَ النَّبيُّ ﷺ باغتنامِ الزَّمانِ بالعمل الصَّالح؛ فقال: «**اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» (رواه مسلم).

وأيَّامُ الحياةِ معدودةٌ؛ إنْ ذَهبَ يومٌ نقصَ عُمُرُ ابنِ آدم، وإن ذهبَ بعضُه زالَ كلُّه، قال ابن القيِّم رحمه الله: «العَبْدُ مِنْ حِينِ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فَهُوَ مُسَافِرٌ فِيهَا إِلَى رَبِّهِ، وَمُدَّةُ سَفَرِهِ هِيَ عُمُرُهُ الَّذِي كُتِبَ لَهُ»، ومن مِنَن اللَّه الجِسام على العبدِ: طُول العُمُر مع صلاحِ العمل؛ قال رجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**» (رواه أحمد).

وحياةُ النَّبيِّ ﷺ - ليلُها ونهارُها - كانت كلُّها لِلَّه؛ قال اللَّه له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وأثنى اللَّه على الصَّحابةِ لعِمارة أوقاتهم بالعبادة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾.

ومن وصايا أبي بكرٍ لعُمر رضي الله عنهما: «إِنَّ لِلَّهِ عَمَلاً بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلاً بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ»، وكان السَّلفُ رحمهم الله يغتنِمُون لحظاتِ أعمارِهم، فَعَمَروا زمانَهم بما يُرضِي ربَّهم؛ قال الحسنُ البَصريُّ رحمه الله: «أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً كَانُوا عَلَى أَوْقَاتِهِمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ حِرْصاً عَلَى دَرَاهِمِكُمْ وَدَنَانِيرِكُمْ».

وقد انقضَى عامٌ من تحصيلِ العِلمِ أو المعرفةِ المُنتظِم في دورِ التَّعليم، وفي حالِ انقِضائه يبقَى في وقتِ المُتعلِّمين سَعَةٌ من الفراغ،

والرَّابحُ منهم مَنِ اغتنَمَ زمنَه بما ينفعُه، والمغبونُ: من فرَّطَ في لحظاته؛ قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا - أَيْ: يُفَرِّطُ فِيهِمَا - كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ» (رواه البخاري)، قال ابن بطَّال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الَّذِي يُوَفَّقُ لِذَلِكَ - أَيْ: لِاغْتِنَامِ الصِّحَّةِ وَالفَرَاغِ - قَلِيلٌ».

ومن خيرِ ما يُعمرُ به زمنُ الإجازةِ ويُنتفَعُ به: حِفظُ كتابِ اللَّه العظيمِ ومُراجعتُه؛ فهو كنزٌ ثمينٌ وتجارةٌ رابحةٌ، قال عُقبة بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ - أَوْ: إِلَى العَقِيقِ - فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ - أَيْ: عَظِيمَتَي السَّنَام -، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ؛ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ» (رواه مسلم).

ومَنْ نالَ حِفْظَ القُرآنِ شرُفَ، ومَنْ تلاهُ عزَّ، ومَنْ قَرُبَ منه عَظُم، ومنزلةُ العبدِ في الجنَّةِ عند آخر آيةٍ يُرتِّلُها منه، وفي زمنِ الفِتَنِ وانفتاحِ أبوابِ الشُّبُهات والشَّهوات؛ يكونُ الاعتصامُ بكتابِ اللَّه ألزَم، والقُربُ منه أوجب؛ قال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ؛ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي» (رواه الحاكم).

والتَّزوُّدُ من العِلمِ الشَّرعيِّ - بحفظِ الأحاديث النَّبويَّةِ ومُتونِ أهلِ العِلمِ المُصنَّفةِ في علومِ الشَّريعة - تأصيلٌ للطَّلَب، ورُسوخٌ في العلم، ورِفعةٌ للمُسلم؛ قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

﴿ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، قال الإمام مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَفْضَلُ مَا تُطُوِّعَ بِهِ: العِلْمُ وَتَعْلِيمُهُ».

وبرُّ الوالدَين طاعةٌ، وصُحبتهما سعادةٌ، والقربُ منهما توفيقٌ؛ قال سبحانه عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ بَرَّ بِوَالِدَيْهِ كَانَ مُتَوَاضِعاً سَعِيداً».

والابنُ الفَطِنُ يَسْعَدُ بالإجازةِ؛ لمَزِيدِ البرِّ بوالدَيْه وإدخالِ السُّرورِ عليهما، وممَّا يُفرِحُهما: استقامتُك على الدِّين، ومن برِّهِما: زيارةُ صديقِهِما، وإكرامُهما من بعدِهما؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَبَرُّ البِرِّ: أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ» (رواه مسلم).

وصِلةُ الرَّحِم تُرضِي الرَّحمنَ، وتُطيلُ العُمُر، وتَزيدُ في المال، وتُبارِكُ في الوقت، وتُقرِّبُ ما بين النُّفوس، وتُظهِرُ مكارمَ الأخلاق، وتُبدِي جميلَ المُرُوءَات؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» (متفق عليه).

وزيارةُ أهلِ العِلم والصَّالحين: تُهذِّبُ النُّفوسَ، وتسمُو بالرُّوح، وتُذكِّرُ بالآخرة، وتُعلِي الهِمَم، وتُصلِحُ الحال، وينالُ بها الزَّائرُ معرفةً وعلماً؛ فهُم ورثة الأنبياء، ودُعاةُ الهُدى.

والتَّنافُسُ في الخير والتَّقوى من صفاتِ الصَّالحين؛ قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي خَيْرٍ؛ فَنَافِسْهُمْ فِيهِ».

والصُّحبةُ الصَّالحةُ خيرُ مُعينٍ على العملِ الصَّالح، تدفعُ إلى البرِّ، وتُغلِقُ عنك أبوابَ الشُّرور، وتحثُّ على الطَّاعةِ، ولا غِنَى لأحدٍ عن الصُّحبةِ الصَّالحةِ؛ فقد كان لنبيِّنا ﷺ صاحبٌ يُعينُه على طريقِ الدَّعوةِ وتبليغِ الرِّسالة؛ قال سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، والمُتحابُّون بجلال اللَّه على منابِرَ من نورٍ، يَغْبِطُهم النَّبيُّون والشُّهداء.

ورفيقُ السُّوءِ يدعُو إلى الشُّرور، ويصدُّ عن أبوابِ الخير، وقد أَخبرَ اللَّه أنَّ رُفقتَه ندامةٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «اعْتَبِرِ الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ - أَيِ: انْظُرُوا إِلَى رُفَقَاءِ الرَّجُلِ -؛ فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ».

والتَّطلُّعُ إلى مواطنِ الفتنِ وأسبابِها - من المَرئيَّات في القنواتِ وغيرِها - يعيشُ المرءُ معها وَهْماً، وتُورِثُه نُكرانَ النِّعَم، وترفعُ القناعةَ من النَّفْسِ، وتُورِدُ على القلبِ الظُّلَم.

والإجازةُ مغنَمٌ لقُربِ الأبِ من أبنائِه؛ يَملأُ فراغَ قلوبِهم، ويُهذِّبُ سُلُوكَهم ويُقوِّمُ عِوَجَهم، والأبناءُ يسعَدون بمُرافقَتهم لأبيهم وأُنسِهم به، وانتِفاعهم بأخلاقه، واكتِسابِهم الصفاتِ الحميدةَ منه، قال ابنُ عقيلٍ رحمه الله: «العَاقِلُ يُعْطِي لِلزَّوْجَةِ وَلِلنَّفْسِ حَقَّهُمَا، وَإِنْ خَلَا بِأَطْفَالِهِ خَرَجَ فِي صُورَةِ طِفْلٍ، وَهَجَرَ الجِدَّ فِي بَعْضِ الوَقْتِ».

وتَغافُلُ الأبِ عن أبنائِه وبُعدُه عنهم: إهمالٌ لتنشِئَتهم، وتيسيرٌ لأهل السُّوءِ للوصولِ إليهم، ويجنِي من ذلك الأبُ النَّدامةَ والحسرةَ.

والسَّفرُ المُباحُ بهم يُقرِّبُ ما بيْن الوالدَين والأبناء، ويُوارِي هُوَّة الفجوةِ بينهم؛ والعُمرةُ سفرُ عبادةٍ يحُطُّ الأوزار، ويَرفعُ الدَّرجات، وصلاةٌ في مسجدِ النَّبيِّ ﷺ خيرٌ من أَلْفِ صلاةٍ فيما سِواه إلا في المسجد الحرام.

والسَّفرُ المُحرَّمُ إهدارٌ للمال، وعُرضةٌ للفتن، وقد تقعُ بسببِه في قلوبِ الأولاد شُبُهاتٌ أو شهواتٌ لا يملِكُ الأبُ منعَها أو تحويلَها، وقد يعودُ المرءُ من السَّفرِ المُحرَّمِ أسوأَ من حاله قبل السَّفر.

وفي الإجازةِ تُبنَى أسرٌ في المُجتمع بالزَّواج، ومن شُكْرِ تلك النِّعمةِ: أن لا يَصْحَبَ وليمتَها مُحرَّم - من إسرافٍ، أو عُرْيٍ، أو غناءٍ، أو تصويرٍ -، وأن يكون زواجاً لا معصيةَ فيه.

واللَّهُ جعلَ اللَّيلَ سكَناً، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، ومن هديِه ﷺ: النَّومُ أولَ اللَّيل، والصَّلاةُ آخره، فعن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا» (متفق عليه)، وإذا كان السَّهرُ وسيلةً إلى التَّخلُّف عن صلاة الفجرِ مع الجماعةِ كان مُحرَّماً.

والمسلم يُراقِبُ ربَّه في أحواله وأزمانه، ويُوقِنُ بأن اللَّه يرى أفعاله أيّاً كان زمانُها أو مكانُها، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾، والثَّوابُ والعقابُ يُجازَى عليه

العبدُ في كلِّ موطنٍ حلَّ فيه، قال ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» (رواه الترمذي)، واللَّهُ يَغارُ إذا انتُهِكَت حُدودُه - في سفرٍ أو حضرٍ -؛ قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ: أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» (متفق عليه).

فكن مُبتعِداً عن الخطيئات، وتزوَّدْ من الأعمالِ الصَّالحة، ولئن كان العملُ مَجْهَدةً فإنَّ الفراغَ مَفْسَدةٌ، ونفسَك إن لم تشغَلْها بالحقِّ شغلَتْك بالباطل، والمرءُ مُمتَحَنٌ في رخائِه وسرَّائِه، وعافيتِه وبلائِه، وفي حلِّه وترحالِه، والمُوفَّقُ مَنْ جعل التَّقوى مطيَّته، وسَارَعَ إلى جنَّة ربِّه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

واجبُ الأبِ نحو أبنائِه عظيمٌ؛ فهو مسؤولٌ عنهم يومَ القيامة، والأمُّ عليها واجبٌ مُضاعَفٌ في الحِفاظِ على بناتِها، ومُلازمَتِها لهُنَّ في الرِّعاية والنُّصحِ والتَّوجيه؛ بِحَثِّهِنَّ على حفْظِ كِتابِ اللَّه وسماعِ ما يُفيدُ من الذِّكرِ، والقيامِ بأمورِ البيتِ ولو مع توافُر مَنْ يخدِمُهنَّ، وأمْرِهنَّ بالحجابِ والسِّترِ والعفاف، ونَبْذِ ما يضُرُّهنَّ ممَّا يُنافِي الدِّينَ والأخلاق.

والدُّنيا أمَدُها قصيرٌ ومتاعُها زائلٌ؛ فلا تَتعلَّقْ منها إلَّا بما يقضِي به الغريبُ حاجتَه في غير موطنِه، ولا تشتغِلْ فيها إلَّا بما يشتغلُ به الغريبُ الذي أعدَّ العُدَّةَ للرُّجوعِ إلى أهلِه، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدَمِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزْدَدْ فِيهِ عَمَلِي».

والمؤمنُ بين مخافتَين: بين ذنْبٍ قد مضَى لا يدرِي ما اللَّهُ صانِعٌ فيه، وبين أجلٍ قد دنا لا يعلمُ ما هو صائرٌ إليه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الإِجَازَةُ وَالدُّرُوسُ المُسْتَفَادَةُ مِنْهَا[١]

الحمدُ للَّهِ الذي سَهَّل لعباده المُتَّقين إلى مرضاتِه سبيلاً، وأَوضحَ لهم طريقَ الهداية وجَعل اتِّباع الرَّسولِ عليه دليلاً، أَحْمَدُه سبحانه وهو المَحْمُودُ على ما قَدَّره وقَضَاه، وأَشْكُرُه تعالى والشُّكرُ كَفِيلٌ بالمزيدِ مِنْ عطاياه.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، لا ربَّ لنا غيرُه، ولا معبودَ لنا سواه.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه المصطفى ونبيُّه المرتضى، صلَّى اللَّه عليه وعلى أصحابه مَصَابِيح الدُّجى وأَعْلام الهدى، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فبالتَّقوى تُرفعُ الدَّرجات، وتُقَالُ العَثَرات.

أيُّها المسلمون:

لقد خَلَق اللَّهُ الخَلْقَ في هذه الحياة، وقدَّر لهم أقداراً، وضَرب لهم آجالاً؛ ليلٌ يُدبِر، وصبحٌ يتنفَّس، يُخلقُ أقوامٌ ويُقبضُ آخرون،

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثلاثين من شهر جمادى الأولى، سنة عشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

والحياة سائرةٌ بسُنَّتها وحِكَمِها، والناس فيها يغدون ويروحون، مطيعٌ عليها وعاصٍ، مؤمنٌ وكافرٌ.

وها هي الإجازة قد انصَرَمَتْ أيَّامُها، وتفرَّقَت أوصالُها، وحَوَت بين جنبيها حِكَماً وعِبراً، وعظاتٍ وأحداثاً، شَقي فيها خلْقٌ وسَعِد فيها آخرون، يَتمنَّى فيها امرؤٌ زوالَ يومِه؛ لِيزولَ معه غمُّه وهمُّه، وآخرُ يَتمنَّى دوام يومه؛ لِيَلْتَذَّ بفرحه وسروره، وفي تقلُّبِ أيامِها مُزْدَجرٌ، وفي تنوُّعِ أحوالِها مُدَّكرٌ، أمورٌ تَتْرى تزيدُ العاقلَ عِظَةً وعبرةً، وتُنبِّهُ الجاهلَ من سُباتِ الغفلة، قيلَ للرَّبيعِ بن خيثم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْنَا ضُعَفَاءَ مُذْنِبِينَ، نَأْكُلُ أَرْزَاقَنَا وَنَنْتَظِرُ آجَالَنَا».

وتقلُّباتُ الدَّهرِ وتَصَرُّمُ الأيَّامِ ومُضِيُّ المناسباتِ يجبُ أن تكونَ مواقفَ محاسبةٍ ومساءلةٍ، وعلى المرءِ أنْ يَقِفَ وقفةَ صدقٍ مع نفْسِه وزمَنه؛ فكلُّ النَّاسِ عند ربِّهم موقوفون، وجميعُهم بين يديه مسؤولون، الرُّسلُ وأُمَمُهم مسؤولون: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وأهلُ الصِّدق مسؤولون: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، وذوو النِّعمةِ مسؤولون، وعنِ النَّعيم محاسبون: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، والأيَّام تُطْوَى، والأعمار تُفْنَى، واللَّيلُ والنَّهارُ يُدنِيان كلَّ بعيدٍ، ويأتيان بكلِّ موعودٍ، وفي سرعةِ مُضيِّها ما يُذكِّرُ اللَّبيبَ بِسُرعةِ تَصرُّمِ عُمُرِه وقُرْبِ حلولِ أَجَلِهِ، يقولُ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ يَوْمِ الشِّدَّةِ؛ فَإِنَّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي

الرَّخَاءِ عَادَ أَمْرُهُ إِلَى الرِّضَا وَالغِبْطَةِ، وَمَنْ أَلْهَتْهُ حَيَاتُهُ وَشَغَلَتْهُ أَهْوَاؤُهُ عَادَ أَمْرُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالخَسَارَةِ».

أيُّها المسلمون:

صفحاتٌ من الإجازة طواها دهرُ اليوم؛ أين مَضتْ؟! وكيف قُضيتْ؟! وصحائفُها ماذا حَوَتْ؟! يقول النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**» (رواه مسلم).

فَصِنفٌ من النَّاس أَمضوها في أَجَلِّ القُرَبِ إلى اللَّه؛ في طَلبِ فُنونِ العلِم؛ لإدراكهم أنَّ العِلمَ يُفْضي بصاحبه إلى السَّعادة؛ فقليلُه يَنفعُ، وكثيرُه يُعلِي، فاجْتَهَدُوا في طَلَبِهِ، واستَعذَبوا المَشقَّةَ في حِفْظِهِ، قومٌ طَووا فراشَ التَّوَانِي والكسل، فنالوا المزيدَ من الفضائل، عليهم بَهاءُ الطَّاعةِ وأنوارُ العبادة، آثَرُوا الباقي على الفاني، وهؤلاءِ هُمُ الأتقياءُ، سادةُ النَّاسِ في الآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

ومنهم من ابتغى طُرُقَ الخيرِ ورياضَ الجَنَّة، ودعا إلى اللَّه على بصيرةٍ - بحكمةٍ وموعظةٍ حسَنةٍ - ملتزِماً بالكِتاب والسُّنَّة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ناصحاً لأولاده، حافظاً أمانةَ اللَّهِ فيهم، ساعياً في إصلاحِهم؛ ليكونوا عوناً له في الحياة وذُخراً له بعد الممات، فهذا قد تَمَطَّى ركائبَ المجد، ورَامَ الخيرَ لنفْسِه والسَّلامة لدينه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

وصنفٌ أَحدق بصرَه وأَظلَمَ قلبُه بمرئياتٍ ذواتِ أطباقٍ عاش معها خَيالاً، وطَلبَ فيها مُحالاً، أفنى عُمُرَه بالنَّدم، وقُوَاه بالحسرة، فهذا كما بَدأَتْ عنده الإجازة انقضتْ، لا لِدنيا جمَعَ، ولا لآخرةٍ ارتَفع.

وآخرون أَفَلَتْ شمسُ عودتِهم مِن سَفَرٍ محرَّمٍ - من ديارٍ تَحمل في طَيَّاتها أخطاراً على العقيدة والأخلاق - فهؤلاء مغبونون خاسرون؛ منهم مَن لوَّث معتقَدَه، ودَنَّسَ وَلاءَه وبَراءَه، وبَعْثَر أموالَه في المُنكَراتِ والمُحرَّمات.

ومنهمْ مَنْ أَوغلَ في الظُّلَم، فاستصحبَ معه نساءه ومَنْ تَحْتَ يده من بَنينَ وبناتٍ - ممَّن نشأَ على الفطرة -؛ لِيُذيقَهم حظَّهم من الشَّقاء، وتَسْتَمْرِئَ نفوسُهم الاستخفافَ بالمعاصي - مِن أفعالٍ تُسْقِطُ المُرُوءَة، وتَقْضي على الفضيلة - في ديارٍ تَلاطَمَتْ فيها أمواجُ الفِتَن، واشْرَأَبَّت فيها مَهَاوي الرَّذيلة، النَّبيُّ ﷺ يَنْهى عن التَّطَلُّعِ إلى الفِتَن والاستشراف إليها، وذا يَنْغَمِسُ بِأهلِه وولدِه في ضَحْلِها ودَرَكِها! فضيَّعَ الأمانةَ، وفرَّطَ في الرِّعاية؛ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، أهكذا تُقابَلُ نِعمةُ المالِ والعافيةِ والبنينَ؟! بالجحود والنُّكران؟!

إنَّ المأمولَ من الآباء: السَّعيُ إلى إصلاح ذويهم، لا الزَّجُّ بِهم في أماكنِ الفِتَن، وتَعريضُ قلوبِهم للظُّلْمةِ والانحرافِ عندَ أدنى مِحنةٍ، والضَّلالِ عند أوَّلِ فتنةٍ، قال أهلُ العِلم: «الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ أَصْلُ فَسَادِ العَبْدِ وَشَقَائِهِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ».

ومنهم مَنْ إذا عادَ تراه يَنزِعُ جِلباب الحياءِ بما اقترفَتْهُ جوارحُه من مُحرَّماتٍ؛ فيَهتِكُ سِترَ اللَّه عليه، ويُرغِّبُ السَّامعَ في تلك الآثام، ويُحَسِّنُها له، ويَمدحُها عنده، فَيَتَفاحشُ ذنْبُه، إنَّ الافتخارَ بالمعصيةِ أمارةٌ على موتِ القلب وفساد الفطرة؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**» (متفق عليه)، فواجبُ العبدِ أن يتَّقيَ اللَّهَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنْ يَعتزَّ بدينه الذي يَحملُ معانيَ الخيرِ وحميدَ الخصال.

أيُّها المسلِمون:

ما ظَهرتْ معصيةٌ على نِعمةٍ إلَّا سَلَبَتْها، ولا تَمكَّنتْ من قَلبٍ إلَّا أَفسدتْه، تُزيلُ النِّعمَ الحاصلة، وتَمنعُ الآلاءَ المُقبِلة؛ فاحرصْ على محاسبةِ نفْسِك، واحذرْ مَزَالِقَ الهوى، ونزغاتِ الشَّيطان، وسُوءَ الخاتمة، فقد أُحصِيَت عليك اللَّفظةُ والنَّظْرة، وعاتِبْ نفْسَك على التَّقصير، واحْمَدِ اللَّهَ أنْ فَسَحَ لك في الأجل، ولم يَجعلْك بغتةً تحت رُكامِ بناءٍ من زلزالٍ، أو جُثَّةً في فيضانٍ، وبادرْ بتوبةٍ نصوحٍ؛ فإنَّ اللَّهَ يَفْرحُ بتوبة التَّائب، وإيَّاكَ والتَّسويفَ؛ فمَنِ استَعملَ التَّسويفَ والمُنى لم يَنبعثْ إلى العمل، ويُروى مِنْ وصايا لقمان: «يَا بُنَيَّ! لَا تُؤَخِّرِ التَّوْبَةَ؛ فَإِنَّ المَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً».

فالسَّعيدُ مَنْ أَخذَ مِنْ نفْسِه لنفْسِه، ومهَّدَ لها قبْلَ يوم قبرِه، يقولُ وهبُ بنُ مُنَبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ جَعَلَ شَهْوَتَهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَزِعَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»؛ فَسَابِقِ الزَّمنَ، وغَالِبِ الهوى، وحاسبِ النَّفْسَ، وامحُ القبيح، واستعدَّ لِمُلِمَّاتِ المَمات، واستَدرِكْ هَفَواتِ الفوات؛ فالتَّرحُّلُ من الدُّنيا

قد دنا، والتَّحوُّلُ منها قد أَزِفَ، ومَنْ أَصلَحَ ما بقي غُفِر له ما مضى، ومَنْ أساء فيما بقي أُخِذَ بما مضى وبما بقي، والأيَّامُ مَطَايا، والأنفاسُ خُطُواتٌ.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّه مُعيدِ اللَّيالِي والأيَّام، أَحْمَدُه سبحانه على ما أَوْلَانَا من الفضلِ والإنعام.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، المَلِكُ العلَّام.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه سيِّدُ الأنام، صلى اللَّه وسلم عليه وعلى آله وأصحابه البرَرَة الكرام.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

لقد أظلَّنا عامُ تعليم جديدٍ، متعدِّدُ العلومِ، متنوِّعُ المعارف، والعلومُ تَختلفُ فضلاً وقَدْراً باختلاف المقاصد، وتَتفاوتُ سُموّاً ورفعةً باختلاف الموارد، وأفضلُ العلوم وأنفعُها للإنسان: ما تَحصُل به سعادةُ قلبِه، وانشراحُ صدره، وهو ما أُخذ من كِتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وما اكتَسبَ مكتسِبٌ مِثلَ علم يَهدي صاحبَه إلى هدًى، أو يَردُّه عن ردًى، وإذا حُفِظَتِ العقولُ والأخلاق، وأحيطتْ بِسِيَاج الدِّين المتين، ورُبِطَت بِرِباط العقيدة الوثيق؛ صَلَحتِ الأعمال، والعِلمُ لا يُنالُ إلَّا على جسرٍ من التَّعب والمشَقَّة، ومَنْ لم يَصبرْ على ذُلِّ التعلُّم ساعةً تَجرَّع كأسَ الجهل أبداً، ولا يَتِمُّ الأمرُ إلَّا بصلاح النِّيَّة، والإخلاص للَّه في طلبِ العِلم ونشْره - من المعلِّم والمتعلِّم -.

وعلى الجميعِ الاتِّصافُ بِسِماتِ السَّلفِ الصَّالحِ الذين يَنشرون العِلمَ محبَّةً له، وللعمل به؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾، وعلى المعلِّمِ أَنْ يَتَحرَّى الأمانةَ والعدالةَ في التَّقويم، وإنَّ الحرصَ ودقَّةَ المتابعة من أولياء الأمور لأبنائهم في تعليمهم؛ فِعلٌ محمودٌ، وتوجيهُهم في اختيار صُحبتِهم وأمْرُهم بالصَّلاة مع جماعة المسلمين ألزمُ وأوجبُ، وفي أداء الطَّالبِ لصلاة الفجر في المسجد حفظٌ له ودفْعٌ للشُّرورِ والآفاتِ عنه - من شياطين الإنس والجِنِّ -؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ؛ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ**» (رواه مسلم)، فاجتَهدوا - يا عباد اللَّه - في طاعةِ ربِّكم والعملِ بسُنَّة نبيِّكم، وحبِّبوا الطَّاعاتِ إلى أولادكم من البنين والبنات، وكَرِّهوا إليهمُ المعاصي والمُنكَرات.

أَلَا ما أعظمَ سعادةَ عبدٍ مَنَّ اللَّه عليه بوقايةِ نفْسِه وأهلِه وولدِه من النَّار، ودعاهم إلى الفوز بالجَنَّة والنَّجاة من النَّار، اصْطَحبَ البنين معه إلى الصَّلاة مع جماعة المسلِمين في المسجد، وعوَّدهم على إجابة النِّداء والإسراع إلى الصَّلاة وفِعْلِ الخيرات! قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وقال ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ**» (رواه أبو داود).

فتربيةُ الأولادِ على الإِيمانِ والتَّقوى والعملِ الصَّالح أَمَانةٌ كُبْرَى عنها تُسْأَلُون، فقوموا بها كما أُمِرتُم، وإيَّاكم والتَّفريطَ! فإنَّكم على أعمالِكُم مُحاسَبون وبأفعالكم مَجْزيُّون.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الباب الخامس عشر

الأَخْـــلَاقُ

وفيه فصلان:

الفصل الأوَّل : الأَخْلَاق الحَمِيدَة.

الفصل الثَّاني : الأَخْلَاق المَذْمُومَة.

الفصل الأوَّل

الأَخْلَاقُ الحَمِيدَةُ

حِفْظُ اللِّسَانِ (١)

إنَّ الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحْدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فمَنِ اتَّقى ربَّه نجا، ومَنْ أعرضَ عن ذِكْره هوى.

أيُّها المسلمون:

نِعَمُ اللَّه على العباد لا تُحصى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، واللِّسانُ من النِّعَم العظيمة ولطائفِ صُنعِ اللَّه العجيبة، امتَنَّ به على الإنسان فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾، به العِلمُ والبيانُ والتَّكريمُ لبني آدم؛ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

وكلُّ ما يقولُه العبدُ محفوظٌ في صحائفِه، وسيلقى به ربَّه يوم

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع من شهر رجب، سنة إحدى وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

القيامة؛ قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ ولذا أمر اللَّه عبادَه بالقول السَّديد؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، كما أمرَهم بأن يقولوا أطيبَ الكلام وأحسَنه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ومن واجبات الإيمان: حِفْظُ اللِّسان إلَّا من الخير؛ قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ» (متفق عليه)، وامتدَح اللَّهُ عبادَه المؤمنينَ بالإعراض عن اللَّغو من القول والعمل؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

والمسلِمُ مَنْ حَفِظَ لسانَه، وحِفْظُه ممَّا تَتَفاضلُ فيه منازلُ العباد؛ سُئِل النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (متفق عليه)، والجَنَّةُ جزاءُ مَنْ حَفِظ لسانه؛ قال ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ - أَيْ: لِسَانَهُ -، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ - أَيْ: فَرْجَهُ -؛ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ» (رواه البخاري).

اللِّسانُ صغيرُ الجُرم، كثيرُ النَّفع، وقد يكونُ شديدَ الضَّرر؛ لذا استعاذ النَّبيُّ ﷺ من شَرِّه فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ لِسَانِي» (رواه أبو داود)، وخافَه ﷺ على أصحابه وأُمَّته؛ قال سفيانُ بنُ عبد اللَّه الثَّقفيُّ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا» (رواه الترمذي).

وعلى الخوفِ منه سار الصَّحابةُ رضي الله عنهم؛ فأخرج أبو بكرٍ رضي الله عنه لسانه وقال: «هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ»، وكان ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما يأخذُ بلسانِه

ويقول: «وَيْحكَ! قُلْ خَيراً؛ تَغْنَمْ، أَوِ اسْكُتْ عَنْ سُوءٍ؛ تَسْلَمْ، وَإِلَّا فَاعْلَمْ أَنَّكَ سَتَنْدَمْ».

اللِّسانُ خطرُه عظيمٌ في الدُّنيا والآخرة؛ فكم أَفسدتِ الكلمةُ على أقوامٍ حياتَهم، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ إِلَى طُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ»، وقد يُهلِكُ الكلامُ صاحبَه حتى يلقَى اللَّهَ مُفلِساً؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟** قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: **إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**» (رواه مسلم)، و«سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: **الفَمُ، وَالفَرْجُ**» (رواه الترمذي)، و«**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا؛ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**» (متفق عليه).

وأعظمُ آفاتِ اللِّسان: دعاءُ غيرِ اللَّه، وجَعْلُ نِدٍّ له سبحانه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، و«**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدّاً؛ دَخَلَ النَّارَ**» (رواه البخاري).

واللَّهُ هو المُنعِمُ وحْدَه، ومِنَ الشِّركِ: نسبةُ النِّعَمِ لغيره؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**قَالَ اللَّهُ** - فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ -: **أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛**

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ» (متفق عليه).

والاستعاذةُ بغيرِ اللَّهِ لا تَزيدُ صاحِبَها إلَّا خوفاً وضَعْفاً؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

ومِنَ الشِّرك في القول: الحَلِفُ بغير اللَّه؛ قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» (رواه أحمد)، و«مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلَامِ كَاذِباً مُتَعَمِّداً؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ» (متفق عليه)، و«مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ؛ فَلَيْسَ مِنَّا» (رواه أبو داود).

وله سبحانَهُ الكمالُ المطلقُ، ومَنْ تسمَّى بأسماءٍ مختصَّةٍ باللَّه؛ أذلَّه اللَّهُ؛ قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ - أَيْ: أَوْضَعَ - اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ» (متفق عليه).

والأمرُ للَّهِ وحدَه، ومشيئة غيره لا تُقرَنُ بمشيئته سبحانه على جهة التَّسوية لفظاً أو معنًى؛ قال ﷺ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ؛ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» (رواه أحمد).

والقَدَر قدْرة اللَّه، والإيمانُ به ركنٌ من الإيمان، فلا يقال: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ ... فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (رواه مسلم)، والتَّسخُّطُ على الأقدارِ بالأقوال من أمر الجاهلية، و«النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ - أَيْ: قَمِيصٌ مُحْرِقٌ - وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» (رواه مسلم).

واللَّهُ يُصَرِّفُ اللَّيلَ والنَّهارَ ويدبِّرُه، وسَبُّ الدَّهرِ يُناقضُ الإيمانَ أو يُضعفُه، قال ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» (متفق عليه).

ومَنْ أساء الظَّنَّ باللَّهِ وقنَّطَ الخلقَ من رحمته؛ فقد تَعرَّضَ لوعيد اللَّه؛ قال عابدٌ من بني إسرائيل لِعَاصٍ منهم: «**وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ! وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**» (رواه مسلم)، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»، و«**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ؛ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**» (رواه مسلم).

وعِلْمُ الغيبِ مختصٌّ به سبحانه؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، و«**مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» (رواه مسلم)، و«**مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**» (رواه أحمد).

ومِنْ أعظمِ المُحرَّماتِ: القولُ على اللَّهِ بلا عِلمٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

والاستهزاءُ بالدِّين يُخرِجُ صاحِبَه منه؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۞ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾.

والكذبُ مِنْ قبائحِ الذُّنوبِ وفواحشِ العيوب، وأصلُ كلِّ شرٍّ، وهو من علامات النِّفاق، «**وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ**

يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً» (متفق عليه)، وأقبحُ الكذبِ ما كان على اللَّه ورسوله؛ قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (متفق عليه).

ومَنْ حَلَفَ كاذباً ذاكراً على أمرٍ ماضٍ؛ فيَمِينُه غَمُوسٌ تَغمِسُ صاحِبَها في النَّار، و«مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ؛ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» (متفق عليه).

ومِنَ الكذبِ: الادِّعاءُ في الأَنْسَاب؛ قال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَى قَوْماً لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ - نَسَبٌ -؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (متفق عليه).

ومِنَ الكبائر: شهادة الزُّور؛ قال ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ - ثَلَاثاً -، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئاً، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ» (متفق عليه).

و«كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» (رواه مسلم)، و«مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» (متفق عليه).

ومِنَ المُوبِقَاتِ: قَذْفُ المُحْصَنَات الغافلاتِ المؤمناتِ؛ قال ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والبُهتان: رميُ بريءٍ بما ليس فيه؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

والغِيبَة: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**» (رواه مسلم)، وهي مِنْ كبائرِ الذُّنوب؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «حَرَّمَ اللَّهُ الغِيبَةَ كَمَا حَرَّمَ المَيْتَةَ».

ومِنْ آفات اللِّسانِ: السَّعيُ بالنَّميمةِ بين الخَلق: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**» (متفق عليه)، قال يحيى ابنُ أبي كثير رحمه الله: «يُفْسِدُ النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي سَنَةٍ».

و«**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**» (متفق عليه)، «**لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالفُسُوقِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ؛ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**» (رواه البخاري).

و«**لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ**» (متفق عليه)، ومَنْ لَعَنَ شيئاً ليس بأهلٍ رجَعَتِ اللَّعنةُ عليه؛ و«**لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ**» (رواه أحمد)؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**» (رواه مسلم).

والسُّخريةُ بالخَلْق من أنواع الكِبر، و«**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**» (رواه مسلم)؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، و«**مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ بِالأَنْسَابِ**» (رواه الطبراني).

وكما حرَّم الإسلامُ سبَّ الأحياء؛ حرَّم أيضاً سبَّ الأموات؛ قال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**» (رواه البخاري)، بل نَهى الإسلامُ عن سبِّ الرِّيح والحُمَّى والدَّواب.

ومَنْ جاهَر بسوءٍ فقد تعرَّضَ لِهَتْكِ سِتْر اللَّه عليه؛ قال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**» (متفق عليه).

والمُسلِمُ يَبتغي بنفقته وجهَ اللَّه، والمنُّ بالصدقة يُبطِلُها، والمنَّانُ لا يُكلِّمُه اللَّهُ، ولا يَنظرُ إليه، ولا يُزكِّيه يومَ القيامة.

وسؤالُ الخَلْقِ منهيٌّ عنه؛ قال ﷺ: «**لَا تَزَالُ المَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**» (متفق عليه).

ومَنْ جادلَ بباطلٍ أبغضَه اللَّهُ؛ قال ﷺ: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ: الأَلَدُّ الخَصِمُ**» (رواه مسلم).

وسلامةُ البيوتِ بِحفظِ أسرارِها؛ قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ: الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**» (رواه مسلم).

وفضولُ الكلام مَزِلَّةُ قَدَمٍ، واللَّهُ كَرِه لنا «قِيلَ وَقَالَ» (متفق عليه)، و«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» (رواه أحمد)، قال سَهْلُ بنُ عبدِ اللَّه رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ؛ حُرِمَ الصِّدْقَ»، قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الكَلَامِ؛ إِلَّا كَلَاماً تَظْهَرُ المَصْلَحَةُ فِيهِ».

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فكفُّ اللِّسانِ وضَبطُه أصلُ الخيرِ كلِّه، ومَن مَلَك لسانَه فقد مَلَك أمرَه وأحكَمَه، و«مَنْ صَمَتَ؛ نَجَا» (رواه أحمد)، ولا يزال العبدُ سالماً ما سكَتَ، فإنْ تكلَّم كُتِبَ له أو عليه، وَمَنْ عدَّ كلامَه من عملِه؛ قلَّ كلامُه فيما لا يعنيه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أي: من كلامهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

أبوابُ الخيرِ كثيرةٌ، ومن مَلَكَ لسانَه فقد مَلكَ ذلك كلَّه؛ قال ﷺ لمُعاذٍ رضي الله عنه: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟** قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: **كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** - أَوْ قَالَ: **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ** - **إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**» (رواه أحمد).

والمرءُ بِأَصْغَرَيْهِ؛ قلبِه ولسانِه، وعلى صلاحِهِمَا وفسادِهِمَا يكونُ صلاحُ العبدِ أو فسادُه، ولا يَستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يَستقيمَ قلبُه، ولا يَستقيمُ قلبُه حتى يَستقيمَ لسانُه.

والقلوبُ كالقدور؛ تَغلي بما فيها، وألسنتُها مَغارِيفُها، وإذا تكلَّمَ المرءُ فإنَّ لسانَه يغرِف لكَ ممَّا في قلبِه؛ فَأَبْطِنْ خيراً يُخرِجْ لسانُكَ خيراً.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الصِّدْقُ(١)

الحمدُ للَّه الذي خَلَقَ الإنسانَ من طينٍ، وجَعَلَهُ بقُدْرَتِه في قرارٍ مَكِين، أَحْمَدُه تعالى حَمْدَ الشَّاكرين.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، المَلِك الحقّ المُبين.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، الصَّادقُ الأمين، أصدقُ النَّاس قولاً، وأخلصُهم عملاً، وأوفاهم عهداً، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه مصابيحِ الهُدَى وأعلامِ الدِّين.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فإنَّ أوثقَ العُرَى تَقْوَى اللَّه، وهي وَصيَّةُ اللَّه للأوَّلين والآخرين، وطريقُ النَّجاة يومَ الدِّين.

أيُّها المسلمون:

لقد خلقَ اللَّهُ الإنسانَ من ضَعْفٍ، وأوجدَه من عدمٍ، وعلَّمه بعد جهلٍ، وشرَّفه مِنْ بينِ المخلوقات، وخصَّه بالنُّطق والبيان، فباللَّفظِ يُعَبِّرُ الإنسانُ عن بُغيتِه، ويُفصِحُ عن مَكْنُون فؤادِه، وبه تَظهرُ الرِّفعةُ والدُّنوُّ، والهِمَّةُ والعلوُّ، مَنْ تكلَّم به بحقٍّ عَلَا ونجا، ومَنْ نطق به بباطلٍ هلك وشقي.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، السادسَ عشَر من شهر ربيع الأول، سنة تسع عشْرة وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

هـذا، وإنَّ مِـنْ أكـرمِ الـصِّـفـات الإنـسـانـيَّـة، وأعـظـمِ الـفـضـائـلِ الأخلاقيَّة: ما يَنطقُ به اللِّسانُ من الصِّدق؛ فهو أساس الحياةِ الكريمة، وأهمُّ الأسسِ في بناءِ الأمَّة وسعادةِ المجتمع.

أمَر اللَّهُ بالتَّحلِّي به، وجَعَله خُلُقاً لِحَمَلَةِ وحيِه ومبلِّغي رسالاته؛ يقولُ تعالى عن خليله إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، ويقولُ عن إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

يتحلَّى بالصِّدقِ الأماثلُ من الرِّجال، ويتَّصفُ به الأوفياءُ من المؤمنين الذين صَفَتْ أرواحُهم من الكَدَر، وطَهُرتْ قلوبُهم من الرَّيْن، وعَلَتْ نفوسُهم عن كلِّ دَنِيءٍ مُحْتَقَر.

إنَّه أمارةٌ على سعادةِ الأُمَّة، ونقاءِ سرِيرَتها وهو مَنْبَعُ الخيرِ لها؛ يقول المصطفى ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً**» (متفق عليه).

هو الحَكَمُ إذا اشتدَّتِ الخصوم، والشَّاهدُ إذا ضاعتِ الحقوق، والمِصباحُ إذا ادْلَهمَّتِ الخطوبُ وتعذَّر الصَّواب.

أيُّها المسلمون:

لقد حثَّ النَّبيُّ ﷺ على الصِّدق؛ لأنَّه مُقدِّمةُ الأخلاق، والدَّاعي إليها، وهو علامةٌ على رِفعة المُتَّصِف به، فبه يَصِلُ العبدُ إلى منازل

الأبرار، وبه تَحصلُ النَّجاةُ من جميعِ الشُّرور، كما أنَّ البركةَ مقرونةٌ به، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا؛ بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا؛ مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**» (متفق عليه)، ولذا فإنَّك لا تَجِدُ صادقاً في معاملته إلَّا وتَجِدُ رِزقَه رَغداً، وحياتَه طيِّبةً، وتسنَّمَ مراتبَ الشَّرفِ والسُّموِّ.

فالصَّادقُ يَطمئنُّ إلى قوله العدوُّ والصَّديق، مؤتَمَنٌ على الأموالِ والحقوقِ والأسرار، ومتى حصلتْ منه كبوةٌ أو عثرةٌ فَصِدْقُه شفيعٌ مقبولٌ، والكاذبُ لا يُؤمنُ على مثقالِ ذرَّةٍ، ولو قُدِّر صِدْقُه أحياناً لم يُسمعْ! أَلَا ترى قولَ اللَّهِ ﷻ في إخوةِ يوسفَ عند ما قالوا لأبيهم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾، فَصِدْقُهُم هذا أَبطلَهُ كَذِبُهُمُ الأوَّلُ حينما قالوا عن يوسف: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ﴾.

فعلى المسلِم أن يَشعُرَ بمرتبته في الوجود، وأن يُدرِكَ منزلتَه في الدُّنيا، وأن يَتخلَّقَ بأخلاق العِظَام؛ فيَصدُقَ إذا تَحدَّث، ويُخْلِصَ إذا تَعامَل، ويُؤدِّيَ إذا اؤْتُمِنَ، ويُنْجِزَ إذا وعد.

وإنَّ قِلَّةَ الصِّدقِ وكَثْرةَ الكَذِبِ آفةٌ، إذا اسْتَشْرَتْ في المجتمع قَوَّضَت أركان سلامتِه، وهَدمتْ أساسَ استقرارِه، وأَبدلَتْ طمأنينةَ أفرادِه قلَقاً، وسعادتَهم شقاءً.

والحياةُ في مجتمعٍ يمارِسُ أفرادُه الكذبَ حياةٌ بئيسةٌ.

إنَّ تَقدُّمَ المجتمعِ المسلِم، ورفاهيَّتَه، وسلامةَ واطمئنانَ أفرادِه؛ كلٌّ ذلك مرهونٌ بشيوعِ الصِّدق بيْنَ أفراده.

لقد طَغتِ المادِّيَّةُ المُظلِمةُ على بعض المسلمين اليوم، فجَهِل مكانَه في هذه الحياة، وبَعُدَ بذاته عن الحِكمة التي مِنْ أجْلها خُلِقَ، وأبى إلَّا أَنْ يَتَخلَّقَ بالأخلاقِ البغيضة، ويَتطبَّعَ بالطِّباع المَرْذولةِ؛ لآمالٍ موهومةٍ كاذبةٍ.

لقد أَنكَرَ القرآنُ العظيمُ على أقوامٍ جَرْيَهم وراءَ الظُّنونِ التي ملأتْ عقولَهم بالخرافات، وأَفسدَتْ حاضرَهم ومستقبلَهم بالأكاذيب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾.

إنَّ الصَّادقَ شهادتُه بِرٌّ، وحُكمُه عَدْلٌ، ومعاملتُه نَفعٌ، مَن صَدَقَ في عمله بَعُدَ عن الرِّياء والسُّمعة؛ صلاتُه وزكاتُه، وصومُه وحجُّه، وعلمُه ودعوتُه للَّه وحده لا شريك له، لا يُريدُ بإحسانه غِشّاً ولا خَدِيعةً، ولا يَطلبُ من أحدٍ من الخلْق جزاءً ولا شكوراً، صدقُه في أقوالِه وأفعاله هو مُطَابقةُ مظهَرِه لِمَخْبَره، وتَصديقُ فِعلِه لقوله.

أيُّها المسلمون:

لقد أمر اللَّهُ جميعَ فئاتِ المُجتَمعِ بالصِّدق على اختلافِ معارفِهم وعلومِهم؛ فالعلماءُ - ورثةُ الأنبياءِ في تبليغ الدِّين - قدوةٌ صالحةٌ في

تحرِّيهم الصِّدقَ في أقوالِهم وأفعالِهم، يَعملون بما يَحمِلون من عِلمٍ وما ينقلونه من الدِّين: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾.

والتَّاجرُ المُؤمِّلُ الرِّبحَ المبارَكَ في تجارته؛ يَجبُ عليه أن يَتحرّى الصِّدقَ، فلا يُرَوِّجْ سلعته بالكذبِ والأيمانِ الفاجرة؛ فإنَّ ذلك مُمْحِق للكسب، مُذهِبٌ لبركةِ الرِّبح، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّاراً؛ إِلَّا مَنِ اتَّقَى وَبَرَّ وَصَدَقَ**» (رواه ابن ماجه)، فجورُهم نابعٌ من تَكْرارِ الكذبِ منهم، «**وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**» (متفق عليه).

والأُجَراءُ على اختلافِ مراتبهم وتنَوُّعِ أعمالِهم ومناصِبهم؛ يَجبُ أن يَتحَرَّوا الصِّدق، فلا يزعمون زعماً تكذِّبُه الحقائقُ، ولا يُصدِّقُه الواقع؛ وكلَّما عَلتِ الهمَّةُ، واتَّسعَ النّفوذُ، وتَشعَّبتِ المسؤوليات؛ كان الصِّدقُ أَوجب، «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» (متفق عليه).

إنَّ التَّمسُّكَ بالصِّدق في كلِّ شأنٍ، وتحرّيَه في كلِّ قضيَّةٍ، والمصيرَ إليه في كلِّ حُكمٍ؛ دِعامةٌ مكينةٌ في خلُق المسْلم؛ فالإيمانُ أساسُه الصِّدق، والنِّفاقُ أساسُه الكذب، وقد أَخبر اللَّهُ سبحانه أنَّه في يوم القيامةِ لا يَنفعُ العبدَ، ولا يُنَجِّيه من عذابِه إلَّا صدْقُه؛ قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾.

صدقٌ في القول، وصدقٌ في الإرادةِ والنِّيَّة، وصدقٌ في العمل، وصدقٌ في المعاملات.

أيُّها المسلمون:

لقد أمر اللَّهُ رسولَه ﷺ أن يَسألَه أَنْ يَجعلَ مُدْخَلَه ومُخْرَجَه على الصِّدق؛ فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، وأَخبر عن خليلِه إبراهيمَ عليه السلام بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وبشَّرَ عبادَهُ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

فهذه خَمْسةُ أمورٍ: مدخَلٌ، ومخرَجٌ، ولسانٌ، وقَدَمٌ، ومقعَدُ الصِّدق؛ وحقيقة هذه كلِّها هو الحقُّ الثَّابتُ المُتَّصِلُ باللَّه، المُوصِلُ إلى اللَّه، وهو ما كان باللَّه وللَّه من الأقوال والأفعال.

وعلى هذا المثالِ القَويم سار الرَّعيلُ الأوَّلُ والسَّلفُ الصَّالحُ رضوانُ اللَّه عليهم أجمعين، وأناروا بصدْقهم الظُّلمَ، وكانوا مَناراتٍ للأمم؛ فهذا كعبُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه عند ما صَدَق في تَخَلُّفِهِ عن غزوة تبوك، وكان من الثَّلاثة الذين خُلِّفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبَت، وضاقتْ عليهم أنفسُهم؛ قال له رسول اللَّه ﷺ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ!** قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: **لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**، قَالَ: وَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقاً مَا بَقِيتُ - قَالَ كَعْبٌ رضي الله عنه -: وَاللَّهِ! مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ» (متفق عليه).

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّه ربِّ البَرِيَّات، عَالِمِ الخَفيَّات، المُطَّلِعِ على الضَّمائرِ والنِّيَّات، أَحْمَدُه سبحانه على ما خصَّنا به من جلائلِ النِّعَم، وأَشْكُرُه تعالى على ما حَبَانا به من أنواع الجودِ والكَرَم.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلام.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، خيرُ مُرْسَلٍ وأكملُ إمامٍ، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً على الدَّوام.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - واعلموا أنَّ خيرَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ رسول اللَّه ﷺ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار، وعليكم بجماعة المسلِمين؛ فإنَّ يدَ اللَّه مع جماعة المسلِمين، ومَنْ شذَّ عنهم شذَّ في النار.

عبادَ اللَّه:

إنَّ الفضائلَ والمحامدَ الَّتي يَغرِسُهَا الإسلامُ في النُّفُوسِ بالصَّلاح والإصلاح، إلى جانبها نقائصُ ورذائلُ حاربها الإسلام؛ لأنَّها مَزِلَّةٌ للأقدام، وعواملُ لهبوطِ النَّفْسِ الخُلُقيّ، وفي طَلِيعَتِها الكذب؛ فهو من

أقبحِ النَّقائص وأردى الرَّذائل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وقرَنَ اللَّهُ الكذبَ بعبادةِ الأوثان؛ فقال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

صِنفٌ من النَّاس يَرى أنَّ الكذبَ لونٌ من ألوانِ الدَّهاءِ والذَّكاءِ وحُسْنِ الصَّنيع؛ بل ومِنْ مميِّزاتِ الشَّخصيَّةِ المُقتدِرة، كيف يكونُ ذلك؟! وهو رذيلةٌ مَحْضَةٌ! أساسُها الآثامُ وأصلُ الشُّرور، يدلُّ على تَغلْغُلِ الفسادِ في نَفْسِ صاحِبه، وهو من علاماتِ الجُبْنِ والضَّعف، وأمارةٌ من أمارات النِّفاق؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» (متفق عليه)، زاد مسلمٌ: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**».

اللَّهُ أكبر! كمْ ضاعتْ بالكذبِ من حقوق، وانتُهِكتْ به من حرمات؟! وكم كان سبباً في قطْعِ الصِّلاتِ وإثارةِ العداوات؟! إنَّ الكاذبَ يُفكِّكُ المجتمعَ بكذبِه، ويُفرِّقُ الجَمْعَ بما يَفْتَرِيه من أجل أمورٍ وهميَّةٍ وظنونٍ كاذبةٍ.

الكذبُ سببٌ ذريعٌ في فشل الأعمالِ وضَياعِ الحقوق؛ يُهِينُ كرامةَ الإنسان، ويُذْهِبُ بشرفِ الرِّجال، وهو من قبائحِ الذُّنوبِ وفواحشِ العيوب، مهانةٌ ورداءةُ طبعٍ، وضعفُ دينٍ، وما كان كذلك فكيف يُوصَفُ صاحبُه بالدهاء؟!

حقُّه يُعْصَى إن أَمَر، ويُخالَفُ إن نهى؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، يُبْتعَدُ عنه إن قَرُب، ويُحْذَر منه إن بَعُد، نَفَسُه مَسْمُومٌ، وقلبُه محمومٌ، ومن نأى عن الصِّدقِ وقع في مَهَاوِي الكذبِ والضَّلال.

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه -، والْزَمُوا صِدقَ القولِ والعمل؛ تَفُوزُوا بخيرَيِ الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الشُّكْرُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه نورٌ في القلب، وذُخْرٌ في المُنْقَلَب.

أيُّها المسلمون:

لقد أَجزلَ اللَّهُ على عباده من نِعَمِه العظيمة، وأَغْدَق عليهم من آلائه الجسيمة، «**يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» (متفق عليه)، يَقْسِمُ الأرزاقَ، ويُغدِق العطايا، ويَرزقُ من يَشاءُ بغير حساب، يَبتلي عباده بالنِّعَم كما يَبتليهم بالمصائب: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، واللَّهُ مُنعِمٌ بهذا كلِّه، وفتنةُ السَّرَّاءِ أَعظمُ من فتنةِ الضَّرَّاء، وصاحبُها يَحتاجُ إلى صبرٍ وشُكرٍ، والفقرُ والغِنَى مَطِيَّتَا

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالثَ والعشرين من شهر شوال، سنة ثلاث وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الابتلاءِ والافتتان، والصَّبرُ والشُّكرُ لازِمان للعبد في أَمْرِ الرَّبِّ ونهْيه، وقضائِه وقدَرِه، والتَّقوى مبنيَّةٌ عليهما، وقد قَرَن سبحانه الشُّكر بالإيمان به؛ فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

وأَخبر سبحانه أنَّ الشُّكرَ هو الغاية مِن خَلْقِه وأمْرِه؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وجَعل سبحانه رضاه في شُكره ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، واللَّهُ خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهار؛ للتَّفكُّر والشُّكر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وانقَسم عبادُه إلى شكورٍ له وكفورٍ به: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وأَخبر سبحانه أنَّه إنَّما يَعبدُه مَن شَكَره، فمَن لم يَشكرْه لم يكنْ من أهلِ عبادته، وقد أَثنى اللَّه على أوَّلِ رسولٍ بَعَثه إلى أهل الأرض بالشُّكر؛ فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وأمَر عبدَه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَتلقَّى ما آتاه من النُّبوَّة والرِّسالة والتَّكليم بالشُّكر؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وأَثنى على خليله إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بشُكرِ نِعَمِه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، وأمَرَ اللَّهُ به آلَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، ودعا سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه أن يكونَ من الشَّاكرين: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾،

وأَمَر اللَّهُ رسولَه مُحَمَّداً ﷺ بالشُّكر؛ فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وأَمَر اللَّهُ لقمانَ بالشُّكر؛ فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾.

وأوَّلُ وصيَّةٍ وصَّى بها ربُّنا الإنسانَ الشُّكرُ له وللوالدين؛ فقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وبالشُّكرِ أَمَر الأنبياءُ أقوامَهم؛ فقال إبراهيمُ عليه السلام لِقومِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾، والآياتُ والعِبَرُ لا يتَّعظُ بها إلَّا الشَّاكر؛ قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾، وأَغْدقَ علينا النِّعمَ؛ لِنُثْنيَ عليه بها؛ قال ﷻ: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وهو وصيَّةُ النَّبيِّ ﷺ لأصحابه؛ فقد قال: «**يَا مُعَاذُ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**» (رواه أبو داود).

ودعاءُ العبدِ ربَّه أن يوافيَ نِعمَ اللَّهِ بالشُّكر مِنْ أفضل الأدعية، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمه الله: «تَأَمَّلْتُ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»»، وأهلُ الشُّكرِ هم المُختصُّون بمنَّتِه من بيْن عبادِه، وهم الَّذين لا يتزعزعون عند الفِتَن: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ولـمَّا عَرف عدوُّ اللَّهِ إبليسُ قَدْرَ مقامِ الشُّكرِ، وأنَّه من أجلِّ العبادات وأعلاها؛ جَعلَ غايتَه السَّعيَ في قطعِ الناسِ عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ أَشكَرُ الخلْقِ لربِّه - خَرجَ من الدُّنيا ولم يَشبعْ من خبز الشَّعير، وربَطَ على بطنِه الحجرَ من الجوع، وغُفِر له ما تقدَّم مِن ذنْبه وما تأخَّر -، يقومُ من اللَّيلِ حتى تَتفطَّرَ قدماه، ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟!» (متفق عليه).

وداود عليه السلام «كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْماً، وَيُفْطِرُ يَوْماً» (متفق عليه)؛ واللَّه ﷻ يقول له: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾.

والشُّكرُ أمَنَةٌ من العذاب؛ قال ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾، ونجَّى اللَّه لوطاً عليه السلام من العذاب بالشُّكر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

ولمَّا تَنَكَّرَ قومُ سبأٍ لنِعَمِ اللَّهِ وجَحَدوها وقابلُوها بالعصيان؛ سلبَها منهم وأذاقهم ألواناً من العذاب؛ قال اللَّه في شأنهم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وأصحابُ الجَنَّةِ - في سورة القلم - قابَلُوا نِعمةَ اللَّهَ بالنُّكرانِ وحِرمانِ المساكين؛ فطافَ على ثمرِهم طائفٌ فأصبحتْ زُروعُهم هباءً كاللَّيل البَهيم، يقولُ الفضيلُ بن عياضٍ رحمه الله: «عَلَيْكُمْ بِمُلَازَمَةِ الشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ؛ فَقَلَّ نِعْمَةٌ زَالَتْ عَنْ قَوْمٍ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ».

والشَّاكرون لنِعم اللَّه قِلَّةٌ في الخلْق؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، وكلُّ نعمةٍ لا تُقرِّبُ من اللَّه فهي نقمةٌ، والشُّكرُ هو الحافظُ

للنِّعم الموجودة والجالبُ للنِّعم المفقودة، يقول عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «النِّعْمَةُ مَوْصُولَةٌ بِالشُّكْرِ، وَالشُّكْرُ يَتَعَلَّقُ بِالمَزِيدِ، وَلَا يَنْقَطِعُ المَزِيدُ مِنَ اللَّهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ».

والعبدُ إذا كانت له عند اللَّه منزلةٌ فحَفِظَها، وبقي عليها، ثمَّ شَكَر اللَّه على ما أعطاه؛ آتاه اللَّهُ أشرفَ منها، وإذا ضيَّعَ الشُّكرَ استدرجَه اللَّه، يقول الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ يُمَتِّعُ بِالنِّعْمَةِ مَا شَاءَ، فَإِذَا لَمْ يُشْكَرْ عَلَيْهَا قَلَبَهَا عَذَاباً»، وإذا رأيتَ ربَّك يوالي عليك نِعَمَهُ وأنت تَعْصِيهِ فاحذره؛ قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَيَمْنَعُهُمُ الشُّكْرَ».

ومَنْ رُزِق الشُّكرَ رُزِقَ الزِّيادة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، يقول أبو قِلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا تَضُرُّكُمْ دُنْيَا شَكَرْتُمُوهَا»، وقد ذمَّ سبحانه الكَنُودَ من عباده - وهو الذي لا يَشكرُ نِعَمَه -؛ فقال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

أيُّها المسلِمون:

بشُكرِ اللَّه وطاعتِه تَتَفَتَّحُ للعبد أبواب الدُّنيا والآخرة؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وشُكرُ اللَّهِ يكونُ بالقلب واللِّسان والجوارح؛ فيكون بالقلب بنسبة النِّعَم إلى بارئها؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ويكونُ باللِّسانِ بالإكثارِ من الحمد لِمُسْدِيها؛ يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالحَمْدُ لِلَّهِ؛ تَمْلَأُ المِيزَانَ**» (رواه مسلم)، فالحمدُ رأسُ الشُّكرِ وأوَّله، وهو أوَّلُ آيةٍ

في كتاب اللَّه المجيد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقد أمَر اللَّهُ نبيَّه ﷺ أن يحدِّثَ بِنعم اللَّه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

والشُّكرُ بالجوارح: يكونُ بالاستعانةِ بِها على مرضاتِ اللَّهِ، ومنْعِ استخدامِها في مَساخِطِه وعِصيانه؛ فشُكرُ العينِ أن لا يُبْصِرَ بها ما حرَّمَ اللَّه، ولا يُطْلِقَ بصرَه على حرمات اللَّه، وشكرُ اللِّسانِ أن لا يَتحدَّثَ به إلَّا حقّاً، ولا يَنطِقَ به إلَّا صدقاً، وشُكرُ الأذنين أن لا يَستمعَ بهما إلى غِيبةٍ وبُهتانٍ ومحرَّم.

وقد أَمَرَ اللَّهُ بشكر الوالدين بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، ومِنْ شكرِهما برُّهما والإحسانُ إليهما، والدُّعاءُ لهما، والتَّودُّدُ والتَّلطُّفُ لرضاهما، وخَفضُ جَناحِ الذُّلِّ لهما، ومِنَ العصيانِ عُقوقُهُما، والتَّأَفُّفُ والتَّنكُّرُ لأوامرِهما، والتَّثاقُلُ عن طاعتِهما. وأسعدُ النَّاس مَنْ جَعلَ النِّعَمَ وسائلَ إلى اللَّهِ والدَّارِ الآخرة، وأشقاهم مَنْ توصَّلَ بنعمه إلى هواه ونيل ملذاته.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

ربُّنا متَّصِفٌ بالشُّكر، وأحبُّ خلْقه إليه مَن اتَّصفَ بصفة الشُّكر، كما أنَّ أَبغضَ خلْقِه إليه مَن عطَّلَها واتَّصفَ بضدِّها، فهو سبحانه شكورٌ يُحِبُّ الشَّاكرين، ومِنْ شُكرِ اللَّهِ شُكْرُ مَنْ أسدى إليك معروفاً مِنْ خلْقه؛ يقول ﷺ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» (رواه أحمد).

وإذا أسْدَيتَ إلى أحدٍ معروفاً؛ فلا تَترقَّبْ منه شكراً، وابتغِ الثَّواب من اللَّه، وكُنْ قَنُوعاً بما رزقَكَ اللَّهُ تَكُنْ أَشكرَ النَّاس، وأَكْثِرْ مِن حَمْدِ اللَّه والثَّناءِ عليه؛ فتلك عبادةٌ مِن أجلِّ العبادات؛ يقول ﷺ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ مِثْلُ الصَّائِمِ الصَّابِرِ» (رواه الحاكم)، ومَنْ لم يَشكرِ القليلَ لم يَشكرِ الكثير، وكان أبو المُغيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قِيل له: كيف أصبحتَ؟ قال: «أَصْبَحْنَا مُغْرَقِينَ بِالنِّعَمِ، عَاجِزِينَ عَنِ الشُّكْرِ»، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، وما مِنَ الناسِ إلَّا مبتلًى بعافيةٍ؛ ليُنظرَ كيف شُكرُه، أو ببليةٍ؛ لِيُنظرَ كيف صبْرُه.

فعليكم - عبادَ اللَّه - بالجمع بين الصَّبر والشُّكر مع التَّقوى؛ تكونوا مِن أعبدِ النَّاس.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

حُسْنُ الخُلُقِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

شرَعَ اللَّهُ لعباده أنواعاً من الطَّاعات والقُرُبات، وأَمَرَنا وأمَرَ الأُمَم قبْلَنا بعبادةٍ تُقرِّبُ العبدَ من ربِّه، وتُثْقِلُ ميزانَه يوم القيامة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ**» (رواه الترمذي)، وتَرفعُ درجاتِه وتزيدُ في حسناته؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**» (رواه أحمد)، وثوابُها يَتضاعفُ ولو كان بأمرٍ يسيرٍ منها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**» (رواه مسلم).

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث عشَر من شهر جمادى الأولى، سنة ثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وخيرُ الخَلْقِ مَنْ كان مؤمناً واتَّصَفَ بها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً» (متفق عليه)، وهي أكثرُ ما يُدخِلُ النَّاسَ الجنَّة؛ «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ» (رواه الترمذي)، وبها يَكمُلُ إيمانُ العبدِ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً؛ أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً» (رواه أحمد)، وأعلى الدَّرجات في الآخرة لِمَنْ أدَّاها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» (رواه أبو داود)، قال ابن القيِّم رحمه الله: «الدِّينُ: الخُلُقُ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ؛ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ»، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يدعو ربَّه في صلاته أن يَنَالها؛ فكان يقول: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» (رواه مسلم)، ويقول ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي؛ فَأَحْسِنْ خُلُقِي» (رواه أحمد)، قال ابن رجب رحمه الله: «لَا تَتِمُّ التَّقْوَى إِلَّا بِحُسْنِ الخُلُقِ».

وأقربُ النَّاسِ منزلةً إلى الرُّسلِ يومَ القيامة أحسنُهم خُلُقاً، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقاً» (رواه الترمذي)، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يُوصِي صحابتَه بها؛ فقال لمعاذٍ رضي الله عنه: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» (رواه الترمذي)، وهي مُنْجِيَة برحمة اللَّه من النَّار، قال النَّبيُّ ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» (متفق عليه).

وبَعَثَ اللَّه نبيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ للدَّعوة إلى الأخلاق الصَّالحة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**» (رواه أحمد)، واتَّصَفَ الرُّسلُ عليهم السلام بأعالي الأخلاقِ وجميلِها؛ فنوحٌ عليه السلام دعا قومَه تسع مئة وخمسين عاماً صابراً عليهم، وإبراهيمُ عليه السلام كان كريماً؛ نَزَل به ضِيفانٌ، فَرَاغَ إلى أهلِه، فجاء بعِجْلٍ سَمِينٍ حنيذٍ، وإسماعيل عليه السلام كان صادقَ الوعد، ويوسفُ عليه السلام قال لِمَنْ كان سبباً في غُرْبَته وسِجْنِه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، وموسى عليه السلام «**كَانَ رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً؛ لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**» (متفق عليه)، وعيسى عليه السلام كان بارّاً بوالدته.

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ أكملُ النَّاسِ أخلاقاً، وصفه اللَّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، نشأ وعاش مُتحلِّياً بكلِّ خُلُقٍ كريم، مُبتعِداً عن كلِّ وصفٍ ذميم، قال له رجلٌ: «يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مُتَوَاضِعاً -: **ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام**» (رواه مسلم).

وكان أكرمَ الخلْق نَفْساً؛ فما ردَّ سائلاً، وأَطلقَهم وجهاً، قال جريرٌ رضي الله عنه: «وَلَا رَآنِي - أَيْ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي» (متفق عليه)، وأشدَّهم وفاءً؛ إن مَرِضَ أحدٌ من صحابته عادَهُ، وإن افتَقده سأل عنه، وأرحَمَهم قلباً؛ كان يَتجوَّزُ في صلاته إذا سمعَ بكاءَ الصَّبيِّ كراهةَ أن يَشُقَّ على أمِّه، وأَلْيَنَهم طبعاً؛ إذا دَخل بيتَه اشتَغلَ في مِهْنة أهله، وكان أعظمَهم صبراً؛ خَرج من بيته والحجَرُ على بطنه من الجوع فما اشتكى، وأوسعَهم عفواً؛ قاتَلهُ أعداؤه وأدمَوه، ولمَّا فَتحَ مكَّةَ قال لهم: «**اذْهَبُوا؛ فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**» (رواه البيهقي)، وأوفرَهم حِلماً؛

آذاه قومه فسأله مَلك الجبال أن يُطبِقَ عليهم جبلَيْن فأبى، وقال لعائشة ﵂: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ!**» (متفق عليه)، ولَمْ يَضْرِبْ «شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِماً» (رواه مسلم).

وعلى هذا النَّهج القويم - من الإيمان باللَّه، وعلوِّ الخُلق -: سار الصَّحابةُ ﵃؛ فكانوا ذوي خُلُقٍ جَمٍّ مع النَّبيِّ ﷺ، قال عُرْوَة بن مسعودٍ ﵁ واصفاً حالهم: «وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ» (رواه البخاري)، وقال عمرو بن العاص ﵁: «وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ» (رواه مسلم).

وكانَ الصَّحابةُ مثالاً في تبجيل بعضهم بعضاً؛ قال عمرُ ﵁: «أَبُو بَكْرٍ أَحْلَمُ مِنِّي وَأَوْقَرُ»، وقال عَلِيٌّ ﵁: «كَانَ أَبُو بَكْرٍ مُتَقَدِّماً فِي كُلِّ خَيْرٍ»، وعثمانُ ﵁ تَسْتَحِي منه الملائكة لحيائه.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فما أَكْرَمَ العبدُ نفْسَه بمثل الإيمانِ باللَّه ودَمَاثة الخُلُق، وأصلُ الأخلاق التَّوحيد؛ فمن فَقَدَه لم يَنتفعْ بغيره، قالت عائشة ﵂ للنَّبيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدْعَانَ - وَكَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ - كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: **لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**» (رواه مسلم).

وإذا تحلَّى المسلمون بأخلاقِ القرآن؛ صَلَح المجتمع، وكانوا دعاةَ خيرٍ إلى الدِّين بالقدوة الحسنة والأفعال الحَمِيدَة.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

أخلاقُ المؤمنِ: استقامةٌ في دينٍ، وبَشاشةٌ في لينٍ، وعفوٌ مع إحسانٍ، وكرمٌ في العطاء، وقَناعةٌ في الفَاقة، وتفريجُ كُربةٍ، وكلمةٌ طيِّبةٌ، وإفشاءُ سلامٍ، وبرٌّ بالوالدين، وإحسانٌ للجار، قال ابنُ المباركِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَخْلَاقُ: بَسْطُ الوَجْهِ، وَبَذْلُ المَعْرُوفِ، وَكَفُّ الأَذَى».

واللَّهُ قسَّمَ الأخلاقَ كما قسَّم الأرزاق، والقرآنُ جامعٌ لمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمال؛ سُئِلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خُلُقِ النَّبيِّ ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ» (رواه أحمد).

فاقتدوا بنبيِّكُم بالتَّخلُّقِ بأخلاق القرآن، وسِيرُوا على نَهْجِ صَحَابتِه الكرام، وكونوا بأخلاقهم أُسوةً لغيركم؛ تنالوا السَّعادة في الدَّارين.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

الحِلْمُ وَالأَنَاةُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

يَعلو المرءُ بالإيمان وحُسن الخُلُق، وترتقي منزلتُه عند اللَّه بالجمْع بينهما؛ قال ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ** - أَيْ: ضَامِنٌ - **بِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**» (رواه أبو داود).

والحِلْمُ: أَسَاسُ الأخلاق، ودليلُ كمالِ العقل وامتلاكِ النَّفْس، والمتَّصِفُ به: عظيمُ الشَّأن، رفيعُ المكانة، محمودُ العاقبة، مرضيُّ الفعل، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحِلْمُ، وَالصَّبْرُ عَلَى الأَذَى، وَالعَفْوُ

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع والعشرين من شهر صَفَر، سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

عَنِ الظُّلْمِ: أَفْضَلُ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، يَبْلُغُ بِهَا الرَّجُلُ مَا لَا يَبْلُغُهُ بِالصِّيَامِ وَالقِيَامِ».

وهو من الخِصال التي يُحبُّها اللَّه في عباده، ووعَد مَن آمَنَ واتَّصفَ به بالمغفرة والجَنَّة؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، قال ابنُ كثيرٍ ﵀: «أَيْ: لَا يُعْمِلُونَ غَضَبَهُمْ فِي النَّاسِ، بَلْ يَكُفُّونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ، وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ».

وأحقُّ المتَّصفين به: همُ الرُّسل، قال الفُضَيل ﵀: «مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ»، واللَّهُ أثنى على إبراهيم ﵇ بالحِلْم؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وبُشِّر بغلامٍ متَّصف بالحِلْم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

ونوحٌ ﵇ دعا قومَه إلى عبادة اللَّه؛ فجَعلوا أصابعهم في آذانِهم استكباراً عليه وقالوا عنه: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، فحَلُم عليهم ألْف سنةٍ إلَّا خمسين عاماً، وموسى ﵇ رماه قومُه بالجنون، وتَحَدَّوْه بالسِّحر، وأْتَمرُوا عليه؛ ليَقتلوه؛ فحَلُم عليهم: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، وحكى النَّبيُّ ﷺ عن نبيٍّ من الأنبياء ضَرَبَه قومُه فأَدْمَوْه؛ فكان يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجهِه، ويقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» (متفق عليه).

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ لاقى الأذى والسُّخريةَ من قومه، وكان يقول لعائشة ﵂: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ**» (متفق عليه)، ومَلَكُ الجبال يأتيه ويقول له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ

النَّبِيُّ ﷺ: **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**» (متفق عليه)، ورآه أعرابيٌّ فَجَذَبَه بردائه جذبةً شديدةً حتى أثَّر في عُنقه، وقال: «يَا مُحَمَّدُ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ» (متفق عليه)، وامتدَّ حِلْمُه إلى الخَدَم، قال أنسٌ رضي الله عنه: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفّاً قَطُّ» (متفق عليه).

وأثنى النَّبيُّ ﷺ على من اتَّصفَ بالحِلْم من الصَّحابة؛ فقال لأشجِّ عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**» (رواه مسلم)، وأبو بكرٍ رضي الله عنه سَبَق غيرَه بالإيمان وكمال الصُّحبةِ للنَّبيِّ ﷺ، وبِما تحلَّى به من صفاتٍ كريمةٍ؛ فشهد له الصَّحابة بذلك، قال عمر رضي الله عنه: «أَبُو بَكْرٍ أَحْلَمُ مِنِّي وَأَوْقَرُ».

والشَّجاعةُ في قوَّةِ القلب وثباتِه، فلا يُزَعْزِعُه قولُ جاهلٍ ولا فِعلُ سَفِيهٍ، والقويُّ الشَّديد هو الذي يَمْلِكُ نفْسَه عند الغضب؛ فيَفعلُ ما يُصْلِحُه، أمَّا المَغلُوب حين غَضبهِ فهو ضعيفٌ، والنَّبيُّ ﷺ مَدَح مَن مَلك نفْسَه عند الغضب؛ فقال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**» (متفق عليه).

واحتمال السَّفيه خيرٌ من التَّحَلِّي بصورته، والإِغْضَاء عن الجاهل خيرٌ من مُشَاكلته، ومَنْ سَكَت عن جاهلٍ؛ فقد أَوْسَعَه جواباً وأَوْجَعَه عقاباً، وقال رجُلٌ لِضِرَار بن القَعْقَاع رضي الله عنه: «وَاللَّهِ! لَوْ قُلْتَ لِي مَسَبَّةً وَاحِدَةً لَسَمِعْتَ مِنِّي عَشْراً، فَقَالَ لَهُ ضِرَارٌ: لَوْ قُلْتَ عَشْراً لَمْ تَسْمَعْ مِنِّي

وَاحِدَةً»، وشَتم رجُلٌ الشَّعْبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ فأجابَه: «إِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللَّهُ لِي، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ».

ومَنْ صَفح عن الخلْق؛ عفا اللَّه عنه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُعَامَلُ العَبْدُ فِي ذُنُوبِهِ بِمِثْلِ مَا يُعَامِلُ بِهِ العَبْدُ النَّاسَ فِي ذُنُوبِهِمْ ...، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَمَنْ عَفَا؛ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ سَامَحَ أَخَاهُ فِي إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ؛ سَامَحَهُ اللَّهُ فِي إِسَاءَتِهِ، وَمَنْ أَغْضَى وَتَجَاوَزَ؛ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنِ اسْتَقْصَى؛ اسْتَقْصَى اللَّهُ عَلَيْهِ».

والغضب: مُفسِدٌ للأخلاق والأعمال، وللعقل والمُرُوءَات، قيل لابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجْمَعْ لَنَا حُسْنَ الخُلُقِ فِي كَلِمَةٍ، قَالَ: تَرْكُ الغَضَبِ».

وتَرْكُ الغضبِ وصيَّةُ النَّبيِّ ﷺ؛ جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «أَوْصِنِي، قَالَ: **لَا تَغْضَبْ**، فَرَدَّدَ مِرَاراً، قَالَ: **لَا تَغْضَبْ**» (رواه البخاري)، قال الرَّجُل: «فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ» (رواه أحمد).

والعقلُ يَنْقُص عند الغضب؛ فيؤدِّي إلى قول الباطل وكتْم الحق، ومن دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ**» (رواه النسائي)، ويَمنعُ من العدل بين النَّاس؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**» (متفق عليه).

وقد يَخسَرُ المرءُ شيئاً من ماله بسبب الغضب؛ قال جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ ...، فَدَارَتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ

مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ - أَيْ: بَعِيرٍ - فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ، فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّلَدُّنِ - أَيْ: تَلَكَّأَ -، فَقَالَ لَهُ: شَأْ! لَعَنَكَ اللَّهُ!، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرَهُ؟** قَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: **انْزِلْ عَنْهُ، فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ؛ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**» (رواه مسلم)، قال ابن رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دُعَاءَ الغَضْبَانِ قَدْ يُجَابُ إِذَا صَادَفَ سَاعَةَ إِجَابَةٍ، وَأَنَّهُ يُنْهَى عَنِ الدُّعَاءِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ فِي الغَضَبِ».

وإذا غَضبَ الإنسانُ قالَ ما لا يَعلمُ، ونَدِمَ على ما قد يَعمَلُ - من عقوق والديه، أو قطْع رحمه، أو مفارقة زوجه، أو قطْع رزقه، أو هُجران الأصحاب له، أو الاعتداء على الآخرين، أو صدور أقوالٍ محرَّمةٍ منه؛ من قذفٍ وسبابٍ وفحشٍ، وأنواعٍ من الظلم والعدوان -، ويتَوَلَّدُ من ذلك الهَمُّ والوَحشة، والحُزن والوِحدة، وقد يُعاقَبُ على ما بَدَرَ منه في غضبه بِحَدٍّ أو تعزيرٍ، أو عقوبةٍ في الآخرة.

وكان النَّبيُّ ﷺ يأمرُ مَنْ غَضبَ بتعاطي أسبابٍ تَدْفَعُ عنه الغضب، فأمَر بالتَّعوُّذ من الشَّيطان؛ لأنَّه سببُ الغضبِ والعدوان، رأى النَّبيُّ ﷺ رجلاً مُغْضَباً قدِ احْمَرَّ وجهُه، فقال: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ؛ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ**» (متفق عليه)، ونَهَى الغضبانَ عن الكلام سوى الاستعاذة؛ فقال ﷺ: «**وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ؛ فَلْيَسْكُتْ**» (رواه أحمد)، فإن كان بقربه ماءٌ

توضَّأ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ؛ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» (رواه أحمد)، وأمَره بالتَّحَوُّل عن الهيئة التي هو عليها؛ قال ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ» (رواه أبو داود).

ومِنْ شرفِ النَّفس وعلوِّ الهِمَّة: التَّرَفُّعُ عن السِّبَاب، وفي الإعراض عن الجاهل: صونٌ للعِرض والدِّين، ومن صفاتِ المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

ومَنْ غضب فعليه: أن يتذكَّرَ حِلْمَ اللَّه عليه، وأن يَخشى عقابَه؛ فَقُدْرَةُ اللَّه عليكَ أعظمُ من قدْرتِك على الخلْق، ولْيَتَذَكَّرْ ما يؤدِّي إليه الغضبُ من النَّدم والحَسْرة، ولْيَحذرْ عاقبةَ العداوة والانتقام وشماتة الأعداء بمصابه، والمؤمنُ يَستشعرُ ثوابَ العفو وحُسنَ الصَّفْحِ، وأنَّ الدُّنيا أهونُ مِن أن يَغضبَ لها.

ومَنْ لم يكن حليماً؛ فعليه أن يَدفعَ نفْسَه للحِلْم، قال الأحنف: «لَسْتُ بِحَلِيمٍ وَلَكِنِّي أَتَحَالَمُ»، وإذا خَالَفَ المرءُ ما يَأْمُرُهُ به غَضَبُه وجَاهَدَ نفْسَهُ على ذلك؛ اندَفعَ عنه شرُّ الغضب.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيما لشأنه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

مَنْ غَرَسَ الحِلْمَ؛ اجتنى ثمرةَ السِّلْم، والحِلْمُ يُعرفُ ساعةَ الغضب، وخيرُ النَّاس: بطيءُ الغضبِ، سريعُ الرُّجوع عنه، وشرُّهم سريعُ الغضب بطيءُ الرُّجوعِ للرِّضا.

ومِنْ كمال العقل: مَنْ إذا غَضِبَ لم يُدخلْه غضبُه في باطلٍ، ومَنْ إذا رضيَ لم يُخْرجْه رضاه من حقٍّ.

وإيَّاك والعجلةَ؛ فإنَّك إذا عَجِلْتَ أخطأتَ حظَّك، وكُنْ سَهْلاً لَيِّناً للقريبِ والبعيد.

والعاقلُ يَدْرَأُ عن نفْسِه غضبَ النَّاس عليه؛ من سُخريَّةٍ بهم، أو استهزاءٍ، أو تنقُّصِ مكانتهم، أو تعدي على أموالهم، أو وقوع في عِرضهم - بغِيبةٍ، أو بهتانٍ، أو افتراءٍ -.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الكَرَمُ[(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلِمون:

اللَّهُ سبحانه غنيٌّ بذاته عمَّن سواه، وله الكمالُ المطلَقُ في ذاته وصفاته وأفعاله، أسماؤه الحُسنى بلغتِ الغايةَ في الحُسن والجمال، وصفاته العُلا بلغتِ المنتهى في العلوِّ والجلال.

ومن أسمائه سبحانه: **الكريم**؛ أعطانا ما سألناه، وأَنعَمَ علينا بما لم نَسألْه، وإذا رَفع العبدُ إليه يديه يَستحي أن يردَّهما صِفْراً خائبتين.

بابُه مفتوحٌ لمن دعاه، وأرزاقُه وخزائنُه دارَّةٌ على عباده لا تَنْقُصُ

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، السادس من شهر رجب، سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

بالعطاء؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَلْأَى، لَا تَغِيضُهَا** - أَيْ: لَا تَنْقُصُهَا - **نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**، وَقَالَ: **أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ** - أَيْ: يَنْقُصْ - **مَا فِي يَدِهِ**» (متفق عليه).

وهو كريمٌ قريبٌ من سائليه، ليس بينه وبين عبده في طلب حوائجه حجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، ويُعطِي عبادَه فوقَ ما تَمنَّوه، وفي الحديثِ القُدْسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» (متفق عليه).

وقد نَهَى عبدَه إذا دعاه أن يُقَلِّلَ المسألةَ؛ بل يُكْثِرُ ما شاء من سؤال اللَّه، فعطاؤه جزيل، فأنزلْ به حوائجَك؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ؛ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ** - يَعْنِي: يَسْأَلُهُ مَا يَشَاءُ -؛ **فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**» (متفق عليه).

وكتابه سبحانه كريم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، مَنْ تلاه وعَمِل به؛ أكرمه اللَّه.

وفي الأجور يُثِيبُ على العملِ الصَّالحِ القليلِ بالجزاءِ الكثير: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾، ويُضاعِفُ أكثرَ من ذلك لمن يشاء، و«**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً**» (متفق عليه)، ويُجَازِي مَنْ أطاعَه في سِنيِّ الحياةِ القصيرة، بالنَّعيم المُقيمِ في الآخرة، ويتفضَّلُ عليهم برؤيتهم لوجهه سبحانه.

والكَرَمُ صفةُ مدحٍ في الانسان، وأمارةٌ على صفاءِ القلبِ ونقاءِ السريرة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُمَّهَاتُ الفَضَائِلِ: العِلْمُ، وَالدِّينُ، وَالكَرَمُ، وَالشَّجَاعَةُ»، وهو من خِصال الخير؛ لا يكون في مؤمنٍ إلَّا رَفعَهُ اللَّه به، وقد حثَّ عليه النَّبيُّ ﷺ في مَطلع قدومِه المدينة بقوله: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» (رواه الترمذي).

وهو عبادةٌ من العبادات، وأثقلُ شيءٍ في الميزان حُسنُ الخُلُق، قال الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُسْنُ الخُلُقِ: الكَرَمُ وَالبَذْلُ»، وفي صبيحةِ كلِّ يومٍ يَنزل مَلَكَان «**فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**» (متفق عليه)، والمُسلِمُ يُغْبَطُ على أدائه تلك العبادة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً؛ فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً؛ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» (متفق عليه).

واللَّهُ سبحانه عليمٌ يُحِبُّ العلماء، وكريمٌ يحبُّ الكُرماء، ومحسِنٌ يحبُّ المحسِنين، والكَرَمُ من شيم الرجال ومن خصال الأبرار، وأكرمُ البشرِ هم أنبياء اللَّه؛ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءته رسُل ربه بِبُشرى في صورة بشرٍ - ولم يَعلمْ أنَّهم من الملائكة -؛ فأَحسنَ إكرامهم، وذَبحَ لهم عِجلاً سميناً، وشَوَاهُ على حجارةٍ محماةٍ، وأَسرع في تقديمه لهم: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَعتَه اللَّه بأنَّه كريم: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ**» (رواه البخاري).

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ كان أجودَ النَّاسِ وأحسنَهم عطاءً، نفْسُه كريمةٌ، ويدُه سخيَّةٌ، ما سُئِل عن شيءٍ قطُّ فقال: لا؛ سأَلَه رجُلٌ غنَماً بيْن جبلين؛ فأعطاه إيَّاه، فرَجع إلى قومه وقال: «يَا قَوْمِ! أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الفَاقَةَ» (رواه مسلم)، ولبس بُرْدة فقال رجُلٌ: «اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا! - فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا -» (رواه البخاري)، وتأتيه العطايا فيُوَزِّعُها على النَّاس، وفي حُنَيْنٍ أعطى صَفْوَانَ بن أُمَيَّةَ مئةً من النَّعَم، ثمَّ مئةً، ثمَّ مئةً، قال صفوان: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» (رواه مسلم)، وأتاه مالٌ عظيمٌ من البَحْرَيْن - وكان أكثرَ مالٍ أُتِي به لرسول اللّه ﷺ -، فقال: «انْثُرُوهُ فِي المَسْجِدِ، إِذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِنِي؛ إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً، قَالَ: خُذْ، فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ» (رواه البخاري).

ولو عنده أكثرُ من هذا؛ لبذَلَه ابتغاءَ مرضاتِ اللَّه؛ قال ﷺ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَا يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ» (متفق عليه)؛ بل كان مِن كرَمه يَعِدُ الناسَ بالمال قبْل أن يأتيه؛ قال لجابرٍ: «لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ البَحْرَيْنِ؛ قَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» (متفق عليه)، قال ابن رجبٍ رحمه الله: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي عَطَاءً يَعْجِزُ عَنْهُ المُلُوكُ، مِثْلُ: كِسْرَى وَقَيْصَرَ».

وأكرمُ النَّاسِ بعْد نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ: هم صحابَتُه الأفذاذ؛ أمر

النَّبيُّ ﷺ بالصَّدقة؛ فجاء عمرُ بنصفِ مالِه، وجاء أبو بكرٍ بكلِّ ماله، وعثمانُ جهَّز جيش العُسْرة؛ وقال له النَّبيُّ ﷺ مُثْنِياً عليه: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ» (رواه الترمذي)، وضَيَّف أبو طلحةَ رضي الله عنه رجُلاً فقالت له زوجته: «مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً؛ فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ - أَوْ: عَجِبَ - مِنْ فَعَالِكُمَا» (متفق عليه)، و«كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ» (رواه البخاري).

وللكرم أبوابٌ متنوِّعة؛ فالإنفاقُ على النَّفْس إحسانٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِذَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدَكُمْ خَيْراً؛ فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ» (رواه مسلم)، والإنفاقُ على الزَّوجةِ والولدِ بما يَسُدُّ حاجتَهم مِنْ أعظمِ الوجوه، قال النَّبيُّ ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ؛ أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» (رواه مسلم)، و«إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا؛ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً» (متفق عليه).

ومِنْ الكرمِ والوفاءِ: إكرامُ صديقِ الوالدين، وإكرامُ الجارِ مِنَ الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ» (متفق عليه)، ومِنْ حُسْنِ الجِوارِ: إرسالُ الطَّعامِ إليهم، وإشراكُهم فيما

يَطْعَمه أهلُه؛ قال ﷺ: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً؛ فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ» (رواه مسلم)، وضِيافةُ الضَّيفِ مِنَ المُرُوءَاتِ والأخلاقِ الكريمة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» (متفق عليه).

ومَنْ لا مالَ عنده فليكنْ كلامُه طيِّباً؛ فالكلمةُ الطَّيِّبةُ من السَّخَاء ونوعٌ من العَطَاء؛ قال ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» (متفق عليه)، والإحسانُ إلى الآخرين بتفريج الكُرُوبِ والهموم من الجُود؛ قال ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» (متفق عليه)، قال عليٌّ رضي الله عنه: «لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ القَلِيلِ؛ فَالحِرْمَانُ أَقَلُّ مِنْهُ، وَلَا تَجْبُنْ عَنِ الكَثِيرِ؛ فَإِنَّكَ أَكْثَرُ مِنْهُ».

وأكرمُ الأفعالِ ما قُصِدَ بها وجهُ اللَّه، وأعظمُ النَّاسِ كرماً أطوَعُهم للَّه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، قيل للنَّبيِّ ﷺ: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ» (متفق عليه).

فتَحَلَّ بكرمِ المال، وكُنْ كريماً بنفْسِك وجاهِك ومالِك، واحرصْ على طاعةِ ربِّك وعبادته؛ تكُنْ من السُّعداء.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

الكرمُ غِطاءُ المَعَايِب، وهو مِنْ محاسنِ الدِّين، ودليلُ حُسن ظنٍّ باللَّه، وهو خَصلةٌ بيْن الإسرافِ والبخل؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، والمُكرَمُ مَن أكرمَهُ اللَّهُ بالطَّاعةِ ولو كان فقيراً، والمُهَانُ مَنْ أهانَه اللَّهُ بالمعصية ولو كان غنيّاً؛ فاحرِصوا على الكرَم وتَحَلَّوْا به؛ تُفلحوا، وتَنَالُوا الخيرَ من ربِّكم.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الوَفَاءُ[(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

تَكْمُلُ النَّفْسُ البشريَّةُ بعبوديَّتها للَّه وحُسْنِ معاملتِها مع الخلْق، فشرَعَ اللَّهُ لعباده الأخذَ بمعالي الأمور، ونهاهم عن سافلِها، والوفاءُ مِنْ أُسسِ بناءِ المجتمعِ واستقامةِ الحياة، ومِنَ الأخلاقِ الكريمة، وصفاتِ النُّفوسِ الشَّريفة، وهو: الاعترافُ بالفضل، ورَدُّ الجميل لِمَنْ أَسْدَى إليك معروفاً، أو مَدَّ إليك يداً.

وأعظمُ عهدٍ يجبُ الوفاءُ به: الوفاءُ مع اللَّه؛ بأن تَعْبُدَه وحده لا

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامسَ والعشرين من شهر محرَّم، سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

تشركُ به شيئاً؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، وأَوْفى الخلْقِ بهذا العهدِ الرُّسُلُ؛ قال سبحانه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ: وَفَّى جَمِيعَ مَا شُرِعَ لَهُ؛ فَعَمِلَ بِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ».

ومِنَ الوفاءِ العظيمِ: الوفاءُ للنَّبيِّ ﷺ بطاعتِه، واتِّباعِ هدْيِه، واقتفاءِ أثرِه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾.

والوفاءُ من شِيَم الرِّجال، ويدلُّ على سُموِّ النَّفْس وحُسنِ الخُلُق، وأَوْفَى النَّاسِ: رسلُ اللَّه؛ موسى عرفَ حقَّ أخيه هارونَ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ؛ فسأل ربَّه أن يَجعلَه شريكاً معه في الرِّسالة ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾.

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ كان وفيّاً مع مَنْ نَصرَه لإبلاغ رسالةِ ربِّه؛ منَع المُطعِمُ بنُ عديٍّ المشركين أن يُؤذُوا رسولَ اللَّه ﷺ قبل الهجرة؛ فحفِظَ له إحسانَه وقال في أُسارى بدر: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيّاً ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى؛ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**» (رواه البخاري).

وكان ﷺ وفيّاً مع صحابته؛ أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أفضلُ الصَّحابة، نصَر النَّبيَّ ﷺ بمالِه ونفْسه، وكان أكثرَ الصَّحابة صُحبةً له؛ فقال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي**» (متفق عليه).

وبعثَ النَّبيُّ ﷺ عثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يوم الحديبية إلى قريشٍ في

مَكَّة، فتأخَّرَ رجوعُه إليه؛ فأمَرَ رسول اللَّه ﷺ صحابتَه بالبَيْعَة؛ فبايع النَّاسَ، ثمَّ قال - وفاءً لحقِّ عثمانَ بما قام به من خدمة الإسلام -: «إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ، فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى - وَقَالَ: هَذِه عَنْ عُثْمَان -؛ فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ خَيْراً مِنْ أَيْدِيهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ» (رواه الترمذي)، وصلَّى على شهداء أُحُدٍ بعْد ثَمَانِ سِنِينَ مِن استِشهَادهم؛ كالمُودِّع لهم (متفق عليه)، وصلَّى على قبرِ جاريةٍ سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجدَ، ولمَّا ناصرَ الأنصارُ المهاجرين دعا لهم النَّبيُّ ﷺ ولذراريهم فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» (رواه مسلم).

ولم يُسْدِ أحدٌ من الصَّحابةِ للنَّبيِّ ﷺ معروفاً؛ إلَّا ويُكافِئُه عليه، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا لِأَحدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ، مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَداً يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» (رواه الترمذي)، وأمَرَ بحفظِ الوُدِّ لصحابته كلِّهم بعدَ مماتِه؛ فقال: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» (رواه مسلم)، ووفاؤُه امتدَّ إلى أُمَّتِه وذلك في الموقف العظيم، فقال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» (متفق عليه).

وعلى هذا الخُلُقِ العظيمِ مِنَ الوفاءِ سار الصَّحابةُ ﷺ؛ فالنَّبيُّ ﷺ لمَّا قُبِض قال أبو بكرٍ للصَّحابة: «مَنْ كَانَتْ لَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِ، قَالَ جَابِرٌ: فَقُمْتُ، فَقُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ البَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**؛ فَحَثَى أَبُو بَكْرٍ مَرَّةً، ثُمَّ قَالَ لِي: عُدَّهَا، فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ خَمْسُ مِئَةٍ، فَقَالَ: خُذْ مِثْلَيْهَا» (متفق عليه).

وأنفذَ أبو بكرٍ رضي الله عنه جيشَ أسامةَ بنِ زيدٍ على شدَّةِ حاجتِه بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ، وكان يقول: «لَا أَدَعُ أَمْراً رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ إِلَّا صَنَعْتُهُ».

والصَّحابةُ رضي الله عنهم حَفِظوا لأبي بكرٍ مكانتَه وسبْقَه للإسلام؛ فاتَّفقُوا على بَيْعَتِه خليفةً لرسول اللَّه ﷺ، وأَبُو بَكْرٍ أَدرَكَ منزلةَ عمرَ الَّتي أنزلها إيَّاه رسول اللَّه ﷺ، حيث كان النَّبيُّ ﷺ كثيراً ما يقول: «**جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»؛ فعهِدَ أبو بكرٍ بالخلافة مِن بَعده لعُمر.

والوفاءُ يعظُم مع الوالدَيْن؛ فقد تعِبا لراحتك، وسهِرَا لنومك، وكدَحَ الوالدُ لِعيشِك، وحمَلَتْكَ أمُّك كُرْهاً ووضعَتْكَ كُرْهاً، وأوَّل واجبٍ فرَضَه اللَّه من حقوقِ الخلقِ البرُّ بالوالدين؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾.

ومن الوفاء لهما: الدُّعاءُ لهما: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، وطاعتُهما في غير معصيةٍ، وفِعْلُ الجميلِ معهما، وإدخالُ

السُّرورِ على نفوسِهما، ومِن البِرِّ بهما: أن يريَا ثمرةَ جُهْدِهما على أولادِهما بِسلوكِهم طريقَ الاستقامة والصلاح، ومن الوفاء لهما: إكرامُ صديقِهما بعد موتِهما.

مرَّ أعرابيٌّ على ابنِ عمر رضي الله عنهما فقال له ابن عمر: «أَلَسْتَ ابْنَ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، قَالَ: بَلَى؛ فَأَعْطَاهُ الحِمَارَ، وَقَالَ: ارْكَبْ هَذَا؛ وَالعِمَامَةَ، قَالَ: اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ لَهُ: بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ! أَعْطَيْتَ هَذَا الأَعْرَابِيَّ حِمَاراً كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيْهِ - أَيْ: تَأْخُذُ عَلَيْهَا رَاحَتَكَ - وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ: صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّي** - أَيْ: يَمُوتَ -، وَإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقاً لِعُمَرَ» (رواه مسلم).

ومن الوفاء: الوفاءُ بين الزَّوجين؛ فقد جَمعهما عقدٌ عظيم؛ قال سبحانه: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ رضي الله عنها وَاسَتِ النَّبيَّ ﷺ بمالِها، وحَفِظَتْ عَهدَه، ورُزِق منها الولد، وأوَّلُ مَن صَدَّقه وآمنَ به من النِّساء، وهي سببُ ثباتِ فؤادِه عند نزول الوحي، وقوَّةِ عزيمتِه، وكانت خيرَ زوجةٍ لزوجها في حياتها، قال ابن حجرٍ رحمه الله: «كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى رِضَاهُ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَلَمْ يَصْدُرْ مِنْهَا مَا يُغْضِبُهُ قَطُّ».

فقابَلَ رسول اللَّه ﷺ وفاءَها بوفاءٍ أعظمَ منه، فكان في إحسانها يَشكُرُها، وظلَّ بعد موتها يُكثِرُ ذكرها، ويقول عنها: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**» (رواه مسلم)، «وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا

فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَيَقُولُ: **إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**» (رواه البخاري)، قال النَّوَوِيُّ ﷀ: «وَفِي هَذَا كُلِّهِ دَلِيلٌ لِحُسْنِ العَهْدِ وَحِفْظِ الوُدِّ، وَرِعَايَةِ حُرْمَةِ الصَّاحِبِ وَالعَشِيرِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، وَإِكْرَامِ أَهْلِ ذَلِكَ الصَّاحِبِ».

ومن الوفاء: محبَّةُ العلماءِ وتوقيرُهم وإجلالُهم؛ إذ هم حملةُ الدِّينِ وورثةُ المرسلين، قال الطَّحاويُّ ﷀ: «وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ - مِنَ التَّابِعِينَ أَهْلِ الخَبَرِ وَالأَثَرِ، وَأَهْلِ الفِقْهِ وَالنَّظَرِ - لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالجَمِيلِ»، قال الإمامُ أحمدُ ﷀ: «مَا بِتُّ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً؛ إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو لِلشَّافِعِيِّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ».

وللصَّاحبِ وفاءٌ يَتحقَّقُ بشكرِ أفعالِه وحفْظِ سرِّه ووُدِّه، والثَّناءِ الحَسنِ عليه، ومنْعِ وصولِ الأذى إليه، وبذْلِ النَّدَى له ولأولاده، ومَنْ صَنعَ إليك معروفاً؛ فكافِئْه عليه، فإن لم تجد ما تُكافِئُه؛ فادعُ له فإنَّه من الوفاء.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

الوفاءُ صدْقُ اللِّسانِ والفعلِ معاً، ويُحدِثُ الوفاءُ في نفْسِ صاحبِه من الغِبطةِ والسُّرورِ ما لا حدَّ له، وفي نفْسِ المُوفَى له الرَّغبةَ في البِرِّ والمُجَازَاة، ومَنْ جَحَدَ معروفاً فهذا ممَّن صغُرَتْ هِمَّتُه عن الوفاء، وليَكُنِ العملُ في العطاء وغيره خالصاً لوجه اللَّه، فإنِ استَنكَف أحدٌ عن ردِّ معروفٍ أسدَيتَه فلا يحزُنك ذلك؛ فأنت تطلبُ الثَّوابَ على المعروف من اللَّه لا من البشر، مُمتثِلاً قول اللَّه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

فاحرِصوا على الوفاء؛ ففيه سلامةُ القلبِ والنَّماءُ، واجتهِدوا في التَّحلِّي بكل خُلقٍ كريمٍ، ووصفٍ حميدٍ؛ فهو عنوان الظَّفَر والفلاح.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الرَّحْمَةُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فالتَّقوى لا يَقبلُ ربُّنا غيرَها، ولا يَرحمُ إلَّا أهلَها.

أيُّها المسلمون:

الدِّينُ قائمٌ على أداء حقوقِ اللَّه وحقوقِ خلْقِه؛ فحقُّ اللَّه: أن نَعبدَه ولا نُشركَ به شيئاً، وحقُّ المخلوقين: الإحسانُ إليهم وحُسنُ الخُلُق معهم، وخَصلةٌ عظيمةٌ جَعلها اللَّه بيْن خلقِه؛ قال عنها ﷺ: «**خَلَقَ اللَّهُ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ، وَخَبَّأَ عِنْدَهُ مِئَةً إِلَّا وَاحِدَةً**» (متفق عليه)، قدَّمَها اللَّهُ على نعمةِ العِلْم: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، التاسعَ والعشرين من شهر جمادى الأولى، سنة ست وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وهو سبحانه يُحِبُّ مَنِ اتَّصَفَ بها، وأَثْنَى على عبادِه المُتواصِين بها: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، بها يقومُ أساسُ بُنيانِ القيامِ بحقوقِ العباد من الحقوق الواجِبة؛ كالزَّكاة، أو المُستحبَّة؛ كالعَفْوِ والصَّدَقة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُهُ نَفْعَ الخَلْقِ وَالإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ مُطْلَقاً، وَهَذِهِ هِيَ الرَّحْمَةُ الَّتِي بُعِثَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ».

وهي مِنْحةٌ مِنَ اللَّه يهَبُها لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِه؛ قال ﷺ لِأَعْرَابيٍّ جفَا عن رَحْمَةِ أولادِه: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!**» (متفق عليه)، ومتى أراد اللَّه بعبدِه خيراً أَنزلَ في قلبِه الرَّحمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَيِ: الرَّحْمَةَ»، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

ونصيبُ كلِّ عبدٍ منها على قدرِ نصيبِه من الهُدى؛ فأَكملُ المُؤمنين إيماناً أعظمُهم رحمةً؛ قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، واللَّهُ وصَفَ المُؤمنين بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يَعْنِي بِالذِّلَّةِ: الرَّحْمَةَ»، وامتلاءُ القلبِ بها علامةُ السَّعادة، وهي سببُ نَيلِ رحمةِ اللَّه؛ قال ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ؛ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» (رواه أبو داود)، وممَّن يدخلُ الجنَّةَ: أقوامٌ مُلِئَت قلوبُهم رحمةً ورِقَّةً مع الإيمان؛ قال ﷺ: «**وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ**

مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ» (رواه مسلم).

وقسوةُ القلبِ في فراغِه منها، ذمَّ اللَّه أقواماً فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، قال البَغويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: يَبِسَتْ وَجَفَّتْ، وَجَفَافُ القَلْبِ خُرُوجُ الرَّحْمَةِ وَاللِّينِ مِنْهُ» وذلك هو علامة الشَّقاء؛ قال ﷺ: «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ» (رواه أبو داود).

ومَن لا يرحَمُ الخلقَ لا يَرحمُه اللَّه؛ قال ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» (متفق عليه)، وأَنكرَ النَّبيُّ ﷺ على مَنِ استَنكَفَ عن اليسير من آثار الرَّحمة؛ قبَّل رسولُ اللَّه ﷺ الحسنَ بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعنده الأقرعُ بنُ حابسٍ التَّميميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جالِساً، فقال الأقرع: «إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ، مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحداً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ لَا يَرْحَمُ؛ لَا يُرْحَمُ» (متفق عليه)، قال ابن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحْمَةُ الوَلَدِ الصَّغِيرِ وَمُعَانَقَتُهُ وَتَقْبِيلُهُ وَالرِّفْقُ بِهِ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي يَرْضَاهَا اللَّهُ وَيُجَازِي عَلَيْهَا، وَتَقْبِيلُ الوَلَدِ الصَّغِيرِ وَحَمْلُهُ وَالتَّحَفِّي بِهِ مِمَّا يُسْتَحَقُّ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ».

وأولَى النَّاسِ بالرَّحمةِ: الوالِدان؛ قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، وخيرُ الأولادِ من كان أقربَ إلى رحمةِ والدَيه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، ورحمةُ المؤمنين فيما بيْنهم تَجعلُهم كجسدٍ واحدٍ؛ قال ﷺ: «تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى

لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى» (متفق عليه)، والبَهائِمُ حضَّ الشَّرعُ أيضاً على رحمتِها؛ قال ﷺ: «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا؛ رَحِمَكَ اللَّهُ» (رواه أحمد).

والمُؤمنُ يَرحمُ الكافِرَ؛ لفقدِه الهِداية، ويُبغِضُه؛ لعدمِ إيمانِه، ومَن زلَّت قدمُه في المعاصِي يستحقُّ الرَّحمةَ بالنُّصح، والدُّعاءِ له بالهداية؛ «أُتِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: اضْرِبُوهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ اللَّهُ» (رواه أحمد).

وأشدُّ الخلقِ رحمةً: رُسُلُ اللَّه؛ سَعَوْا لهدايةِ الخَلْق، ودعَوْا أقوامَهم بكلِّ سبيلٍ لإنقاذِهم من الهلَكَة، وصبَرُوا على أذاهم، ولم يَستعجِلُوا بطلبِ عذابِهم؛ آدمُ عليه السلام إذا رأى أهلَ النَّارِ من ذريَّته يبكِي؛ قال ﷺ في قصَّة المِعرَاج: «قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى» (متفق عليه).

وإبراهيمُ عليه السلام كان رؤوفاً بقومِه؛ قال لربِّه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ولرِقَّة قلبِه جادَلَ الملائكةَ أن لا يُهلِكُوا قومَ لُوطٍ لعلَّهم يُؤمِنون.

ومُوسَى عليه السلام رحِمَ امرأتَين، فسَقَى لهما - وهو من أُولِي العزم -،

وامتدَّت رحمتُه عليه السلام إلى هذه الأُمَّة؛ فحثَّ نبيَّنا مُحمَّداً ﷺ أن يُراجِعَ ربَّه في تخفيفِ الصَّلاة عن أمَّته، فخفَّفها الرَّبُّ جل جلاله من خمسين صلاةً إلى خمسِ صلواتٍ، ويحيَى عليه السلام جعله اللَّه ذا حَنانٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾، قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «وَمَعْنَى الآيَةِ: وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَتَحَنُّناً عَلَى العِبَادِ؛ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَيَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً فِي إِخْلَاصٍ».

وعيسَى عليه السلام جَعله اللَّه بارّاً بوالدَتِه ولم يكُن جبَّاراً عديمَ الرَّحمة: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، ونبيٌّ من الأنبياء ضَربَه قومُه فأدمَوْه، فهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهِه ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (متفق عليه).

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ أَرْحمُ خلقِ اللَّه، ومن أسمائِه: «نَبِيُّ الرَّحْمَةِ» (رواه النسائي)، ولمَّا قيلَ له: «ادْعُ عَلَى المُشْرِكِينَ، قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً» (رواه مسلم)، ولمَّا آذاهُ قومُه ناداه ملَكُ الجِبال، فسلَّم عليه، وقال: «يَا مُحَمَّدُ! إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» (متفق عليه).

بعثَهُ اللَّهُ رحمةً للخلْقِ عامَّةً؛ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، فمَن قَبِلَ هذه الرَّحمةَ، وشكَرَ هذه النِّعمةَ؛ سَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، ومَنْ ردَّها وجحَدَها؛ خسِرَ الدَّارَيْن، بعثَه اللَّه رحمةً للمُؤمنين خاصَّةً؛ قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾.

كان شفيقاً على أُمَّته؛ «تَلَا النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: **يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ -، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟** فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ - وَهُوَ أَعْلَمُ -، فَقَالَ اللَّهُ: **يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ**» (رواه مسلم)، قال النَّوَوِيُّ رحمه الله: «وَهَذَا مِنْ أَرْجَى الأَحَادِيثِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، أَوْ أَرْجَاهَا».

كان رحيماً بأصحابه؛ «اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: **قَدْ قَضَى؟** قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ؛ بَكَوْا» (متفق عليه)، و«رُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَبِيٌّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ - أَيْ: يُسْمَعُ لَهَا صَوْتٌ - فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ فَقَالَ: **هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ**» (متفق عليه).

وكان ﷺ رحيماً بالشَّباب؛ قال مالِكُ بن الحُويرث رضي الله عنه: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَفِيقاً رَحِيماً، فَقَالَ: **ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ؛ فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا**

رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؛ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» (متفق عليه).

وكان رحيماً بالنِّساء، يُخفِّفُ الصَّلاةَ لئلَّا يَشُقَّ على الأُمِّ وولدِها؛ قال ﷺ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ؛ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**» (متفق عليه).

وكان رحيماً بالصِّبيان؛ قال أنسٌ رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ أَحَداً كَانَ أَرْحَمَ بِالعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (رواه مسلم)، و«كَانَ ﷺ يَخْطُبُ، فَجَاءَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ؛ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ المِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾؛ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**» (رواه أحمد)، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وَهَذَا مِنْ كَمَالِ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ بِالصِّغَارِ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ تَعْلِيمٌ مِنْهُ لِلْأُمَّةِ الرَّحْمَةَ وَالشَّفَقَةَ وَاللُّطْفَ بِالصِّغَارِ».

وأشدُّ هذه الأمَّة رحمةً: صحابةُ رسولِ اللَّه ﷺ؛ قال سبحانه في الثَّناءِ عليهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾، وأرحمُهم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، جمعَ اللَّه له بين سعَة العِلم والرَّحمة، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وَهَكَذَا الرَّجُلُ كُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُهُ؛ اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ»، وأهلُ العِلم والصَّلاح ذوو رحمةٍ يَسْعَون بالخير والهُدى للنَّاس، ولا يَظلِمُون مَن خالفَهم ولا يبغُون عليه.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فالشَّريعةُ وَسِعَت برحمتِها وعدلِها العدوَّ والصَّدِيق، والجزاءُ مِن جنسِ العمل، فمَن طمِعَ في رحمةِ اللَّه فلْيرحَمْ خلْقَه؛ قال ﷺ: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» (متفق عليه)، ومَنْ رَحِمَهُ اللَّه؛ غمَرَتْهُ السَّعادةُ، ونالَ حُسْنَ العاقِبة في الدُّنيا والآخرة.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

يصفُو القلبُ من الكِبْرِ واحتقارِ النَّاس بتحقيق الرَّحمة، وهي وسطٌ بين القسوة والجفاء، وبين الضَّعفِ والخَوَر، والرَّأفةُ والرَّحمةُ يُحبُّهما اللَّهُ ما لم تكُن مُضيِّعةً لدينِ اللَّه؛ كدعوَى ترْك الحُدود رحمةً بالعباد، وإذا سلِمَ العبدُ من فتنةِ الشُّبُهات والشَّهوات؛ حصلَ له الهُدى والرَّحمة، قال اللَّه إخباراً عن أصحابِ الكهف: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، ومِنْ أسبابِ نوالِ الرَّحمة: بِرُّ الوالدَين، وصِلَةُ الرَّحِم، والصَّدقةُ، والإحسانُ للمكرُوبين والمرضَى، وزيارةُ الرِّجال للمقابِر، والإكثارُ من تلاوةِ القرآنِ العظيم وذكْرِ اللَّه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

مِفْتَاحُ العُبوديَّةِ للَّه وسِرُّهَا هو العِلمُ بأسماءِ اللَّهِ وصفاتِه، فأسماؤُه تعالى حُسنى وصفاتُه عُلْيَا، وله سبحانه في كلِّ اسم وصفةٍ عبوديَّةٌ خاصَّةٌ، هي من موجِبات العِلم بها ومقتضياتها، واللَّهُ يُحبُّ أسماءَه وصفاتِه، ويُحبُّ ظهورَ آثارِها في خَلْقه، فأمر عبادَه أن يدعوه بها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾، وأحبُّ الخلْقِ إلى اللَّهِ مَنِ اتَّصفَ بالصفاتِ التي يُحبُّها ولا تختصُّ به سبحانه، ومَنْ تعبَّد اللَّهَ بصفاته؛ قَرُبَ من رَحْمَتِه.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، السابع من شهر جمادى الآخرة، سنة تسع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

ومَنْ أحصى أسماءه أنزله في جنَّته، ومن أسماء اللَّه: **الحَيِيّ**، ومن صفاته: الحياء، وقد وصَف اللَّهُ نفسَه بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وسمَّاه رسولُ اللَّهِ ﷺ بذلك فقال: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَيِيٌّ سَتِيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسِّتْرَ**» (رواه أبو داود)، ويستَحْيي سبحانه أن يَرُدَّ مَنْ طَلبهُ شيئاً؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً**» (رواه أبو داود)، قال ابن القَيِّم ﵀: «حَيَاءُ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْ عَبْدِهِ لَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ وَلَا تُكَيِّفُهُ العُقُولُ؛ فَإِنَّهُ حَيَاءُ كَرَمٍ وَبِرٍّ وَجُودٍ وَجَلَالٍ».

ورأسُ مكارمِ الأخلاقِ في الخَلْق وأجلُّها وأعظمُها قدراً، وأكثرُها نفعاً: الحياءُ وهو خُلُقٌ يَبْعَثُ على ترْك القبائح، ويَمْنَعُ من التَّفريط في حقِّ صاحبِ الحقِّ، مبعثُه ومادَّتُه من الحياة، وعلى حسبِ حياةِ القلب؛ يكون الحياءُ فيه، وكلَّما كان القلبُ أَحْيَا؛ كان الحياءُ فيه أَتَمَّ وأقوى، ولم يَزلْ أمرُ الحياء ثابتاً واستعمالُه واجباً منذ زمان النُّبوَّة الأُولى، وما من نبيٍّ إلَّا ندَبَ أمَّتَه إليه، وبُعِثَ عليه، لم يُنسخْ فيما نُسِخَ من شرائعهم، ولم يُبَدَّل فيما بُدِّلَ منها؛ وذلك أنَّه أمرٌ قد عُلِمَ صوابُه، وبانَ فضلُه، واتَّفقتِ العقولُ على حُسنه، وما كان هذا صفتَه لم يَجُزْ عليه النَّسْخُ والتَّبديل؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» (رواه البخاري).

بالحياء اتَّصفَ خِيَارُ الخلْق، وأثنى اللَّهُ على أهْله؛ فالملائكةُ

موصوفون به، قال الرَّسُول ﷺ في عثمان رضي الله عنه: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ؟» (رواه مسلم)، والأنبياءُ عُرِفَتْ في أقوامها بذلك؛ «يَسْتَشْفِعُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيامَةِ بِآدَمَ وَنُوحٍ وَمُوسَى عليهم السلام؛ فَيَذْكُرُ كُلٌّ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي» (متفق عليه)، وموسى عليه السلام حَيِيٌّ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيّاً سَتِيراً، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ» (رواه البخاري).

ونبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ له من ذلك النَّصيبُ الأوفر، فحياؤُه يُعرَفُ في وجهه؛ قال أبو سعيد الخُدريُّ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا - أَيْ: مِنَ البِكْرِ فِي سِتْرِهَا -، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئاً عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ» (متفق عليه)، وتردَّدَ النَّبيُّ ﷺ ليلةَ المِعْرَاج بين موسى عليه السلام وربِّه يسأله التَّخفيفَ في الصلاة حتى قال: «قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي» (متفق عليه)، و«لَمَّا بَنَى النَّبِيُّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ؛ دُعِيَ النَّاسُ لِذَلِكَ، فَطَعِمُوا وَخَرَجُوا، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي البَيْتِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَحْيِي مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ شَيْئاً، فَخَرَجَ وَتَرَكَهُمْ فِي البَيْتِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾» (متفق عليه).

وعثمانُ رضي الله عنه المثَلُ في الحياء بين الصَّحابة؛ دَخل يوماً على النَّبيِّ ﷺ فجَلس النَّبيُّ ﷺ وسوَّى ثِيابه، فسُئلَ عن ذلك؛ فقال: «إِنَّ

عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ» (رواه مسلم).

والمَرأةُ جُبِلَتْ على الحَيَاء، وبه زينتُها وجَمَالُها، وهو لها حِصْنٌ وأَمَانٌ؛ قالت عائشة ﵂: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ البِكْرَ تَسْتَحْيِي؟ قَالَ: **رِضَاهَا** - أَيْ: فِي النِّكَاحِ -: **صَمْتُهَا**» (رواه البخاري)، وابنةُ صاحبِ مَدْيَنَ جاءت تمشي وقد غَمَرَهَا جلبابُ الحياء، وَسَتَرَتْ وجْهَها بيدها وثوبها؛ قال سبحانه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وعائشةُ أُمُّ المُؤْمِنين ﵂ بلغ بها الحياء أن تَحْتَشِم في حُجرتها؛ حياءً من عمر ﵁ بعد دفْنِه، قالت ﵂: «كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي، فَأَضَعُ ثَوْبِي، فَأَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمَا؛ فَوَاللَّهِ! مَا دَخَلْتُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي؛ حَيَاءً مِنْ عُمَرَ» (رواه أحمد).

وامرأةٌ صبرتْ على البلاء ولم ترضَ بنزع الحياء، فكان لها الجَنَّة؛ قال ابن عبَّاس ﵄ لِعَطَاء بن أبي رَبَاح ﵀: «أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ؛ فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: **إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**، فَقَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ؛ فَدَعَا لَهَا» (متفق عليه).

وهو من الأخلاق الكريمة الَّتي بقي عليها أهلُ الجاهليَّة؛ قال أبو سفيان رضي الله عنه لَمَّا سأله هِرَقْل عن النَّبيِّ ﷺ - وهو يومئذٍ على الكُفْر -: «وَاللَّهِ لَوْلَا الحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الكَذِبَ كَذَبْتُ عَنْهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِ اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ» (متفق عليه).

بالحياء نَيْلُ السَّعادةِ وإدراكُ أسبابِها وهو خيرٌ كلُّه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**، أَوْ قَالَ: **الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ**» (رواه مسلم)، وعاقبةُ صاحبِه إلى خيرٍ، ولا يَلحَقُه ندمٌ فيه البتَّةَ؛ قال الرَّسُول ﷺ: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**» (رواه مسلم)، قال ابن القيِّم رحمه الله: «الحَيَاءُ: مَادَّةُ الحَيَاةِ لِلْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الخَيْرِ أَجْمَعِهِ».

ومن أعظم الخير فيه: تعويدُ النَّفْس على الخصال الحَمِيدَة، ومُجَانَبَةُ الخِلالِ الذَّمِيمَة، وإذا اشتدَّ حياءُ المرء؛ صَانَ عِرضَه، ودفعَ مساوِيَه، ونشَر محاسنَه.

ومن عقيدة أهْل السُّنَّة والجماعة: أنَّ الإيمانَ قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، والحياءُ شُعبةٌ منه؛ قال الرَّسُول ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ** - أَوْ: **سِتُّونَ** - **شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» (متفق عليه)، قال ابن حبَّان رحمه الله: «الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالمُؤْمِنُ فِي الجَنَّةِ، وَمَا نُزِعَ الحَيَاءُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِنَزْعِ إِيمَانِهِ»، و«مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضَرَّ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**» (متفق عليه)، وما عاقب

اللَّهُ قلباً بأشدَّ مِنْ أن يَسلُبَ منه الحياء، قال ابن عمرُ رضي الله عنهما: «إِنَّ الحَيَاءَ وَالإِيمَانَ قُرِنَا جَمِيعاً، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ».

الحياءُ طاعةٌ تَبعثُ على طاعاتٍ، وينتهي بصاحبه في الورع، ومَنْ أَخَلَّ به فعَلَ نَقِيضَ ذلك، ومِنْ أكبرِ ما يَحولُ بيْن المَرْء وركوبِ المعاصي: الحياءُ، والمُسْتَحْيِي ينقطعُ بالحياء عن المعاصي؛ كما ينقطعُ بالإيمان عنها، فإذا سُلِبَ من العبد الحياءُ؛ لم يَبق له ما يَمنعه من ارتكاب القبيح والأخلاق الدَّنيئة؛ قال الرَّسُول ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ؛ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**» (رواه البخاري)، قال ابن عبد البَرِّ رحمه الله: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَيَاءٌ يَحْجِزُهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ؛ فَسَوَاءٌ عَلَيْه فِعْلُ الصَّغَائِرِ وَالكَبَائِرِ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّحْذِيرِ وَالوَعِيدِ عَلَى قِلَّةِ الحَيَاءِ».

والذُّنوبُ تُضعِفُ الحياءَ من العبد حتى رُبَّما انْسَلَخ منه بالكُلِّيَّة، فلا يتأثَّرُ بعِلم النَّاس بحاله، ولا باطِّلاعهم عليه؛ بل قد يُخبِرُ عن حالِه وقبيحِ فعاله.

في الحياء زينةٌ وجمالٌ لصاحبه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ** - أَيْ: زَيَّنَهُ -» (رواه الترمذي)، وهو دَاعٍ لِعِزَّة النَّفْس وصيانَتِها، فلا يَسألُ النَّاسَ شيئاً وإن احتاج لذلك؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الأُكْلَةُ وَالأُكْلَتَانِ؛ وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي، أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافاً**» (متفق عليه).

والحياءُ حادٍ على حُسْن الأَدب؛ سأل النَّبيُّ ﷺ عن شجرةٍ تُشْبِهُ المسلمَ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ»، وفي لفظٍ: «فَاسْتَحْيَيْتُ» (متفق عليه).

والجزاءُ من جنسِ العمل، ومن ثمار الحياء وحسنِ جزائه: حياءُ اللَّه من أهله؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا؛ فَاسْتَحْيَا اللَّهُ** عز وجل **مِنْهُ**» (متفق عليه)، ورأسُ الحياء: ما كان حياءً من اللَّه؛ لئلَّا يراك حيث نهاك، ولا يَفتقدَك حيث أمرك، فاللَّهُ أحقُّ أن يُسْتَحْيَا منه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ**» (رواه الترمذي)، والحياءُ من اللَّه: نورٌ يقعُ في القلب، يريه ذلك النُّورُ أنَّه واقفٌ بين يدي ربِّه عز وجل؛ فيستحيي منه في خَلَوَاتِه وجَلَوَاتِه، ويتحقَّقُ الحياءُ من اللَّه بمطالعة مِنَنِهِ، وعظيم نِعَمِه، مع استحضار عيْب النَّفْس وتقصيرها، وأنَّه مُطَّلِعٌ على السِّرِّ وأخفى.

وإذا عَلِم العبدُ بنظرِ اللَّهِ سبحانه إليه، وأنه بِمَرْأًى منه ومَسْمَعٍ وكان حَيِيّاً؛ اسْتَحْيَا أن يَتعرَّضَ لِمَساخطِه، ومع الإنسان ملائكةٌ لا تُفَارِقُه، ومن إكْرَامِهم: الحياءُ منهم؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «أَي: اسْتَحْيُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الحَافِظِينَ الكِرَامِ، وَأَكْرِمُوهُمْ وَأَجِلُّوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ».

والحياءُ من النَّاس باعثٌ على الفضائل، ولو أنَّ المسلمَ لم يُصِبْ من الجليس الصَّالح إلَّا أنَّ حياءَه منه يَمنعه المعاصي لَكَفى، وهو خيرُ عونٍ لصاحبه على الحياء من اللَّه، وَمَنْ لا يستحيي من الناس؛ لا يستحيي من اللَّه، ومن جَالَسَ أهلَ الحياء؛ تَجدَّدَ حياؤُه، وأَولى مَنْ يُكرِمُ المرءَ: نفسُه، ومَنْ عَمِلَ في السِّرِّ عملاً يَستحيي منه في العلانية؛ فلا قدرَ لنفْسِه عنده، ومن استحيا من النَّاس ولم يستحي من نفْسِه: فنفسُه أهونُ عنده من غيره، ومَنِ استحيا منهما ولم يستحي من اللَّه: فما عرف ربَّه، ومَنْ كساه الحياءُ ثوبَه؛ لَمْ ير النَّاسُ عيبَه.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فالإسلامُ دينُ المحامدِ والمكارم، جَمَعَ من الأخلاق أحسنَها، ومن الأوصاف أعلاها، ما من خيرٍ إلَّا أَمَرَ به، وما من شرٍّ إلَّا حذَّر منه، وواجبٌ التَّمسُّكُ به، والاعتزازُ به، ودعوةُ النَّاس إليه، وحَتْمٌ علينا ملازمةُ الحياء من اللَّه بامتثال أوامره واجتناب معاصيه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

الحياءُ المَمْدُوحُ من النَّبيِّ ﷺ هو: الخُلُق الذي يَحْمِلُ على فِعْلِ الجميل وترْكِ القبيح، أمَّا الضَّعْفُ والعجزُ الذي يُوجبُ التَّقصيرَ في شيءٍ من حقوق اللَّه أو حقوق عباده؛ فليس من الحياء في شيءٍ، وإذا مَنَعَ صاحبَه من خيرٍ؛ لم يكن ممدوحاً، قالت عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ؛ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَسْأَلْنَ عَنِ الدِّينِ، وَيَتَفَقَّهْنَ فِيهِ» (رواه مسلم)، ولا حياءَ في تعلُّم الدِّين، ومَنْ ترَكَ العِلمَ حياءً؛ بقي أبدَ الدَّهرِ في جهْله محروماً، قال مجاهد رحمه الله: «لَا يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ».

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الفصل الثَّاني

الأَخْلَاقُ المَذْمُومَةُ

الكِبْــرُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فالتَّقوى في مخالفة الهَوَى، والشَّقاءُ في مُعَارَضَةِ الهُدَى.

أيُّها المسلمون:

صلاحُ ابنِ آدمَ في الإيمان والعمل الصَّالح، والسَّعيُ في إصلاح القلب؛ أفضلُ مِنْ نوافلِ العبادات، وأعمالُ القلوبِ في الثَّوابِ والعقابِ كأعمال الجوارح؛ يُثابُ على الموالاة والمعاداة في اللَّه، وعلى التَّوكُّل والرِّضا والعزم على الطَّاعة، ويُعاقَبُ على الكِبر والحسد والعُجب والرِّياء، وكلَّما ازداد العبد تواضعاً وعبوديةً للَّه؛ ازداد إلى اللَّه قرباً ورِفعةً.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الأول من شهر رجب، سنة أربع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وأصلُ الأخلاقِ المذمومة كلِّها: الكِبرُ والاستعلاء؛ به اتَّصف إبليسُ فحَسَدَ آدمَ واستَكبرَ وامتَنع من الانقياد لأمرِ ربِّه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن اليهود الذين رأوا النَّبيَّ ﷺ، وعَرَفُوا صِحَّةَ نُبوَّتِه، وهو الَّذي مَنَعَ ابنَ أَبي سَلُولٍ مِنْ صِدْقِ التَّسليم، وبه تخلَّف إسلامُ أَبي جهلٍ، وبه اسْتَحبَّتْ قريشٌ العَمَى على الهُدَى؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ودعا سليمانُ عليه السلام بَلْقِيس وقومَها إلى نَبْذِ الاستعلاء وإلى الإذعان: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وهو سببٌ للفُرقة والنِّزاع والاختلاف والبَغضاء؛ قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وبسببه تنوَّعتْ شنائعُ بني إسرائيل مع أنبيائهم بين تكذيبٍ وقتلٍ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، وهو من أوصاف أهل النِّفاق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

وعُذِّبَتِ الأُممُ السَّالفةُ لاتِّصافِهم به؛ قال تعالى عن قوم نوحٍ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾، وقال عن فرعونَ وقومِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، وقال عن قوم هُودٍ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

المُستكبِرونَ همْ أعداءُ الأنبياءِ وأتباعِهم: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ استعاذ باللَّه منهم، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

المُتكبِّرُ متَّبِعٌ لهواه، يَنظرُ إلى نفْسه بعين الكمال وإلى غيره بعين النَّقص، مطبوعٌ على قلبه، لا يَقبلُ إلَّا ما يهوى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، واللَّهُ تعالى يُبْغضه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

المتَّصِفُ بالكِبر مصروفٌ عن الاعتبار والاتِّعاظ بالعِبر والآيات: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، والمُسْتكبِرُ عن الحقِّ يُبتلى بالانقياد للباطل، وقد تُعجَّلُ له العقوبةُ في الدُّنيا؛ فقد شُلَّتْ يدُ رجُلٍ في عهد النُّبوَّة بسبب الكِبْر؛ يقولُ سلمةُ بنُ الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: **كُلْ بِيَمِينِكَ**، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: **لَا اسْتَطَعْتَ**، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الكِبْرُ - قَالَ الرَّاوِي -: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ» (رواه مسلم)، وقد خُسِفَتِ الأرضُ بمتكبِّرٍ؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ؛ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» (متفق عليه).

وفي الآخرة يُعامَلُ بنقيض قصْده؛ فمَن يَترفَّعْ عن النَّاس في الدُّنيا؛ يَطأُهُ الناس بأقدامهم في الآخرة، يقول المصطفى ﷺ: «**يَبْعَثُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ نَاساً فِي صُوَرِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ، فَيُقَالُ: مَا**

هَؤُلَاءِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ؟ فَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ المُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا» (رواه البزار)، قال في نوادر الأصول: «كُلُّ مَنْ كَانَ أَشَدَّ تَكَبُّراً؛ كَانَ أَقْصَرَ قَامَةً فِي الآخِرَةِ، وَعَلَى هَذَا السَّبِيلِ كُلُّ مَنْ كَانَ أَشَدَّ تَوَاضُعاً لِلَّهِ؛ فَهُوَ أَشْرَفُ قَامَةً عَلَى الخَلْقِ»، ومَنْ حمَل في قلبه ولو شيئاً يسيراً من الكِبر؛ حُرِم عليه دخولُ الجَنَّة؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» (رواه مسلم)، والنَّار دارٌ لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**» (متفق عليه)، ويقول النَّبيُّ ﷺ: «**احْتَجَّتِ النَّارُ وَالجَنَّةُ، فَقَالَتْ هَذِهِ** - أَيِ: النَّارُ -: **يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتْ هَذِهِ** - أَيِ: الجَنَّةُ -: **يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالمَسَاكِينُ**» (رواه مسلم).

أيُّها المسلِمون:

الكبرياءُ من خصائص الرُّبوبية لا يُنازَعُ فيه، ومَنِ اتَّصفَ به من المخلوقين؛ عذَّبه اللَّه؛ يقول النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ القُدْسيِّ: «**يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: العِزُّ إِزَارِي، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**» (رواه مسلم)، واللَّه جل وعلا هو **المُتكبِّر**؛ قال سبحانه عن نفْسه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، والإسلامُ حَمَى جَنابَ الكبرياءِ والعظمةِ للَّه، وحرَّم كلَّ طريقٍ ينازعُ الرَّبَّ في كِبْريائِه؛ فمنَع لُبْسَ الذَّهب والحرير للرَّجُل؛ لكونِهما مَدْعَاةً للكِبر والخُيَلَاء، وتوعَّدَ المسبِلَ إزارَه بالعذاب؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

الْمُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ» (رواه مسلم)، ونهى عن ميل الخَدِّ والإعراض به تعاظماً على الآخرين، ولَمْ يأذن بِمِشْيَة الخُيَلاء تَبَخْتُراً في غير الحرب؛ قال ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ونهى عن التَّشدُّق في الكلام اعتزازاً؛ قال ﷺ: «**وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالمُتَشَدِّقُونَ، وَالمُتَفَيْهِقُونَ**» (رواه الترمذي).

فانزِعْ عنك رداءَ الكبرِ والتَّعاظُم؛ فإنَّهما ليسا لك؛ بل هما للخالق، والْبَسْ رداء الانكسار والتَّواضع، فما دَخلَ قلبَ امرِئٍ شيءٌ من الكِبْر قطّ؛ إلَّا نَقصَ مِنْ عقلِه بقدر ما دَخل من ذلك أو أكثر، ومَنْشَأُ هذا من جهل العبد بربِّه وجهْلِه بنفْسه، فإنَّه لو عَرف ربَّه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعَرف نفْسه بالنَّقائص والآفات لم يَسْتَعْلِ ولم يَأْنَف؛ يقول سفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله: «مَنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي الكِبْرِ فَاخْشَ عَلَيْهِ؛ فَإِبْلِيسُ عَصَى مُتَكَبِّراً فَلُعِنَ».

والعذابُ يقعُ على مَن تَغلغلَ ذلك في قلبه، وتكونُ خِفَّتُه وشِدَّتُه بحسب خِفَّتِها وشِدَّتها، ومَنْ فَتحها على نفْسه؛ فَتح عليه أبواباً من الشُّرور عديدةً، ومَنْ أَغلقها على نفْسه؛ فُتحت له - بإذن اللَّه - أبوابٌ من الخيرات واسعةً، والكِبرُ المباينُ للإيمان لا يَدخلُ صاحبُه الجَنَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ومِنَ الكِبْر ما هو مباينٌ للإيمان الواجب، بل كِبْره يُوجِبُ له جَحْدَ الحقِّ واحتقارَ الخَلْق؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ**

كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ؛ الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**» (رواه مسلم)، ولا تَفْخَرْ على أحدٍ فدنياك زائلةٌ؛ يقول ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**» (رواه البخاري).

أيُّها المسلمون:

في التَّواضع رِفعةُ الدُّنيا والآخرة؛ يقول ﷺ: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ**» (رواه مسلم)، وهو من أخلاق الأنبياء وشِيَمِ النُّبلاء؛ موسى عليه السلام رَفع الحجرَ لامرأتين أبوهما شيخٌ كبيرٌ، وداود عليه السلام كان يَأكلُ من كسْب يده، وزكريا عليه السلام كان نجَّاراً، وعيسى عليه السلام يقول: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، و«**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إِلَّا رَعَى الغَنَمَ**»، ونبيُّنا ﷺ كان رقيقَ القلب، رحيماً خافضَ الجناح للمؤمنين، ليِّنَ الجانب لهم، يَحملُ الكَلَّ ويَكْسِب المعدوم، ويُعين على نوائب الدَّهر، ورَكب الحمار وأَردف عليه، ويُسَلِّمُ على الصِّبْيَان، ويَبدأُ مَنْ لَقِيَه بالسَّلام، ويُجيبُ دعوة من دعاه ولو إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ، ولمَّا سُئِلتْ عائشة رضي الله عنها: «مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي: خِدْمَةَ أَهْلِهِ -، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؛ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ» (رواه البخاري).

التَّواضعُ سببُ العدلِ والأُلفةِ والمَحبَّةِ في المجتمع؛ يقول ﷺ: «**وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا**

يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (رواه مسلم)، المُتواضعُ مُنكَسِرُ القلبِ للَّه، خافضٌ جناحَ الذُّلّ والرَّحمة لعباده، لا يَرى له عند أحد حقّاً؛ بل يرى الفضلَ للنَّاس عليه، وهذا خُلُقٌ إِنَّما يُعطيهِ اللَّهُ مَن يُحِبُّه ويُقَرِّبُه ويُكْرِمُه.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فأكرمُ التَّواضعِ بعد حقِّ اللَّه: التَّواضعُ في جَنْب الوالدين؛ ببرِّهما وإكرامهما، وطاعتِهما في غير معصيةٍ، والحُنُوِّ عليهما، والبِشْرِ في وجههما، والتَّلَطُّفِ في الخطاب معهما، وتوقيرِهما والإكثار من الدُّعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما؛ قال ﷻ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، والاسْتِنْكافُ عن أوامرهما والاستكبارُ عليهما، والتَّأَفُّفُ من قضاء حوائجهما؛ ضربٌ من الكِبْر والعُقُوق، مُتَوَعَّدٌ صاحبُه بدخول النَّار.

وتَواضَعْ للدِّين ولا تُعارِضْه برأيٍ أو هوًى، ولا تُعْرِضْ عن تَعلُّمِه والعَمَلِ به، ومَنْ أَسْدَى إليك نُصحاً؛ فاقبلْه واشْكُرْ قائله، ومَنْ أمرَكَ بمعروفٍ أو نهاك عن منكَرٍ؛ فامتثلْ لِرُشْده؛ فالحَظْوَةُ في التَّواضع للطَّاعة، يقول الفضيل ؒ: «التَّوَاضُعُ: أَنْ تَخْضَعَ لِلْحَقِّ وَتَنْقَادَ لَهُ»، وقال رجُلٌ لمَالِك بن مِغْوَلٍ: «اتَّقِ اللَّهَ! فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الأَرْضِ».

والمُعلِّم والمُتعلِّم يتواضعان لبعضهما مع توقير المعلِّم، ولقد كان شيخُ المُحدِّثين أبو موسى المَدِينيُّ ؒ يُقْرِئُ الصِّبْيَانَ القرآنَ في الألواحِ معَ جلالةِ قَدْرِه وعُلُوِّ منزلتِه، وتواضعْ للمَرْضَى بعيادتهم والوقوف بجانبهم وكشْفِ كُربتهم، وتذكيرهم بالاحتساب والرِّضا والصَّبر على

القضاء، وأَلِنْ جانبك لذوي الفَقْر والمَسْكَنة، وتصفَّحْ وجوه الفقراء والمحاويج وذوي التَّعَفُّفِ والحياء في الطَّلب، وَوَاسِهم مِنْ مالِك، وتواضعْ لهم في حَسَبِك، يقول بِشْر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ غَنِيٍّ جَالِسٍ بَيْنَ يَدَيْ فَقِيرٍ».

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

يُحِبُّ اللَّه تَواضُعَ العبدِ عند أَمْرِه امتثالاً وعند نَهْيِه اجتناباً، والشَّرفُ يُنالُ بالخُضوع والاستكانةِ للَّه والتَّواضُعِ للمسلِمين، ولِينِ الجانبِ لهم، واحتمالِ الأذى منهم والصَّبرِ عليهم؛ قال سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، كلُّ ذلك مع التَّشاغلِ بتلاوة كتاب اللَّه، والنَّظر في الأحاديث، مع حُسن الخُلُق وبذْلِ المعروف وكفِّ الأذى، وترْكِ الغيبة والنَّميمة، وعاملِ النَّاس معاملة إيثارٍ لا استئثارٍ.

والمتواضعُ مَنْ إذا رأى أحداً؛ قال: هذا أفضلُ منِّي، يقول الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرْفَعُ النَّاسِ قَدْراً؛ مَنْ لَا يَرَى قَدْرَهُ، وَأَكْبَرُ النَّاسِ فَضْلاً؛ مَنْ لَا يَرَى فَضْلَه»، وإذا أَنْعَمَ اللَّهُ عليك بنعمةٍ فاستقبِلها بالشُّكر والاستكانة، قال عبد اللَّه بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَضَعَ نَفْسَكَ عِنْدَ مَنْ هُوَ دُونَكَ فِي نِعْمَةِ الدُّنْيَا، حَتَّى تُعْلِمَهُ أَنْ لَيْسَ لَكَ بِدُنْيَاكَ عَلَيْهِ فَضْلٌ».

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

الحَسَدُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عباد اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

صلاحُ الجوارحِ بصلاح القلب، وأعمالُ القلوب في الثَّواب والعقاب كأعمال الجوارح، يُثابُ على الموالاة والمعاداة في اللَّه، ويُعاقَبُ على الحسد والفخر والرِّياء.

وإصلاحُ القلبِ أفضلُ من نوافل العبادات، ولا يَنالُ المسلِمُ الكمالَ إلَّا بزوال ما في قلبه من الحسدِ والأَضْغَان، وسلامةُ الصَّدرِ من صفاتِ الأنبياء؛ قال اللَّهُ مُمتدِحاً خليلَه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وشُقَّ صدرُ النَّبيِّ ﷺ مرَّتين؛ مرةً في صِباه وأُخرِج منه العَلَقة،

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامس والعشرين من شهر صَفَر، سنة ثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وشُقَّ مرةً أخرى قبل الإسراء، وغُسِلَ قلبُه في طَستٍ من ذهب بماء زمزمٍ.

ومن دعاء النَّبيِّ ﷺ مُعلِّماً أمَّته: «**وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي** - أَيْ: حِقْدَهُ -» (رواه أبو داود).

وأَثنى اللَّهُ على الأنصار بسلامة صدورهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ أي: ما أُوتِي إخوانُهم المهاجرون من فضْلٍ، وأَخبر عن الصَّالحين مِنْ بعدِهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهو من أسباب دخول الجَنَّة؛ قال النَّبيُّ ﷺ للصَّحابة رضي الله عنهم: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ - فَسَأَلُوهُ عَنْ عَمَلِهِ - فَقَالَ: لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ غِشّاً، وَلَا أَحْسُدُ أَحداً عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ» (رواه أحمد).

وكان السَّلف يَسْعَوْنَ لسلامةِ صدورهم فنُعِتوا بذلك، قال ابن كثيرٍ وَاصِفاً قرينَه ابن القيِّم رحمهما الله: «كَانَ حَسَنَ القِرَاءَةِ وَالخُلُقِ، وَكَثِيرَ التَّوَدُّدِ؛ لَا يَحْسُدُ أَحداً وَلَا يُؤْذِيهِ وَلَا يَسْتَعِيبُهُ، وَلَا يَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ».

ولا يَنفعُ يومَ القيامةِ إلَّا سلامةُ الصَّدرِ مع الإيمان؛ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، واللَّهُ سبحانه فضَّلَ عبادَه بعضَهم على بعضٍ في العطاء؛ عدلاً منه وفضلاً؛ لِيَظهرَ صبرُهم وشكرُهم؛ قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾.

والحسدُ خُلُقٌ ذميمٌ ونَعْتٌ دنيءٌ، يَقصِد به الحاسد ذوي الفضائل والنِّعَم، اتَّصفَ به إبليسُ فامتنع أن يَسجدَ لآدمَ حسداً له: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فكان أوَّلَ ذنْبٍ عُصِي اللَّهُ به في السَّماء، وهو مِنْ صفاتِ اليهودِ والنَّصارى؛ قال ﷻ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾، وهو مِنْ أقوالِ مرضى القلوب؛ قال ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾، وقد يُؤدِّي بِصاحبِه إلى الكُفر باللَّه؛ قال ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ويتمنَّى به غيرُ المسلِم إخراجَ أهلِ الإسلام عن دينهم؛ قال ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾.

وقد يَمْنَعُ من الدُّخول في الإسلام؛ قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَةَ لأَبِي جَهْلٍ: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَ مُحَمَّداً بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ! لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا وَهُوَ شَابٌّ يُدْعَى الأَمِينُ، فَمَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِباً قَطُّ، قَالَ: فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو هَاشِمٍ الشَّرَفَ، فَأَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، وَسَقَوْا وَسَقَيْنَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكَبِ وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟ وَاللَّهِ! لَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُهُ أَبَداً».

وقد يَقتلُ الحاسدُ المَحْسُود؛ قال سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾.

وهو فتنةٌ لقلوبِ الناس؛ قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، قال ابن رجبٍ رحمه الله: «الحَسَدُ مَرْكُوزٌ فِي طِبَاعِ البَشَرِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ دَفَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ».

وهو مُنافٍ لكمال الإيمان؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ**» (رواه النسائي)، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَه من هذا الدَّاء، فقال: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا**» (متفق عليه).

الحسدُ مَنبعُ الشُّرور، ويُوجِبُ الظُّلْم، ويُورِثُ القَطِيعَة، قال ابن عقيلٍ رحمه الله: «اعْتَبَرْتُ الأَخْلَاقَ - أَيْ: تَأَمَّلْتُهَا -، فَإِذَا أَشَدُّهَا وَبالاً: الحَسَدُ».

والحاسدُ ضعيفُ النَّفْس، كلُّ نعمةٍ على غيره يراها عظيمةً، مُبغِضٌ لنِعَم اللَّه على عباده، يَتَأَلَّمُ من فضيلةٍ تَظْهر، أو منقبةٍ تُشكَر، إِنْ رَأَى فضْلَ اللَّه على خَلْقه اغتمَّ، وإن عايَنَ زَوَالَها سُرَّ، فلا راحة لحاسدٍ؛ يَفرحُ لحَزَنِ النَّاس، ويَحْزَن لِفرحهم، لا يرى قضاءَ اللَّهِ عدلاً، ولا لِنِعَمِهِ على النَّاس أهلاً، ولِسانُه يُخرِجُ سوادَ قلبه؛ قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، قال معاوية رضي الله عنه: «إِيَّاكَ وَالحَسَدَ! فَإِنَّهُ يَتَبَيَّنُ فِيكَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ فِي عَدُوِّكَ»، يُرْدِي صاحبه ويقُودُه إلى الذُّلِّ والمَهانة؛ كما حَصَلَ لإخوةِ يوسفَ حينما طلبوا من أخيهم الذي حَسدوه الصَّدقةَ عليهم، قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

ليس في خِصال الشَّرِّ أَعْدَلُ من الحسد؛ يَنْتَقِمُ الحَاسِدُ من نفْسِه بنفْسِه قبل أن يَصِلَ إلى المحسود، ومَنْ رأى حالَ الحاسدِ في همِّه وغمِّه وكمَدِه؛ أَشْفَقَ عليه، والحاسدُ اشتَغل بما لا يعنيه، فأضاع ما يعنيه.

الحسدُ رِفعةٌ للمحسود؛ إذ النُّفوسُ لا تَحسُد إلَّا العظيم، وكم مِنْ نعمةٍ خافيةٍ أَظهرها حسودٌ، وكم مِنْ عبدٍ أُثنِي عليه بعد أن حُسِد، حُسِدَ هابيل ابن آدم فبقيَ ذِكرُه يُثنَى عليه في كِتاب اللَّه.

وبِحَسَبِ فضْلِ الإنسانِ، وظهور نِعَم اللَّه عليه؛ يَكثُر حَسدُ النَّاس له، وأعظمُ نعمةٍ يُحسَد المرءُ عليها: هي نعمة الإسلام؛ قال سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾، والنَّبيُّ ﷺ حُسِد على القرآن: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾.

والمحسودُ مظلومٌ مأمورٌ بالصَّبر والتَّقوى والعفو والصَّفح؛ قال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، ويوسف عليه السلام قال لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾.

ونارُ الحاسد تُطفَأُ بالإحسان إليه، وكلما ازداد شرُّ الحاسد؛ فزِدْه إحساناً ونُصحاً وشفقةً عليه، والحسدُ يَمنعُ كمالَ الإيمان؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (متفق عليه).

والحسدُ معصيةٌ يَجِبُ على المسلِم أن يتوبَ منها، وأن يَرضى بالقضاء، ويَستسلمَ للمقدور، ولا يُعارِضَ اللَّهَ في أمره، ويَفرحَ بكرم اللَّه على عباده، ويَدْفعَ عن قلبه تلك المعصية؛ طاعةً للَّه وخوفاً من عقابه، وبُعداً من أن يَكْرَه نِعمَ اللَّهِ على عباده، وأن يَنْظرَ إلى من هو دونه، ويتذكَّرَ نِعَمَ اللَّهِ عليه، ويَقْنَعَ بعطاء اللَّه له، فكلُّ حاسدٍ محسودٌ، وأن يتعوَّذَ باللَّه من الحسد، ويُبادرَ إلى الدُّعاء للمحسود، ويَتمنَّى زيادةَ الخير لأخيه المسلِم، ومَنْ أَعطى غيرَك نعمةً؛ قادرٌ أن يُعطِيَك مثلها وأكثر منها: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

والغِبْطَةُ حقّاً في عطاءِ درجات الآخرة.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

أحبُّ القلوبِ إلى اللَّه: أرقُّها وأصفاها، ولا أَهْنَأَ حياةً من مؤمنٍ سليم الصَّدر؛ إنْ رأى نعمةً ساقها اللَّهُ إلى أخيه فَرِح، ورأى فضْلَ اللَّهِ فيها، وفَقْرَ عبادِه إليها، وما عادى أحدٌ مسلماً فأفلح، وفي الرِّضا بما قَسَمَه اللَّه سلامةٌ للقلب، وكلَّما كان العبدُ أشدَّ رضاً؛ كان قلبُه أَسلم.

وعلى المرءِ أن يَقْهَرَ نفسَه عن مذمومِ خُلُقِها، ويَحْجِزَها عن لَئِيم طَبْعِها، وجِماعُ الطرق التي يُصانُ منها القلب: الحِرصُ، والشَّهْوَة، والغضب، والحسد.

ومَن أحبَّ أن يُنعِمَ اللَّهُ عليه؛ فلا يَلتفتْ إلى أحوالِ النَّاس، وَلْيَجْعَلْ صدرَه سليماً، ومَنْ نَظر إلى ذنوبه؛ استَكثَرَ ما هو فيه من النِّعَم، وما حَفظَ عبدٌ نعمةَ اللَّهِ عليه بمثل شُكرِها، ولا عَرَّضَها للزَّوال بمثل عِصيانِ اللَّه بها.

فسارعوا إلى شُكرِ نِعَمِه عليكم يَزِدْكم من فضلِه، ويَهَبْ لكم من الخير ما تَسعدون به في الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الظُّلْمُ[(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

خَلَق اللَّهُ الإنسانَ وفَطَرَ فيه خِصالاً حميدة، وأَمَره بالسَّير والثَّبات عليها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، وفيه صفاتٌ مذمومةٌ أَمَره بمجاهدة نفْسه وهواه منها، فيه خصلةٌ إن أَرخى لنفسه العنانَ لها هلك: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾.

والنَّفْسُ السَّليمةُ تَحْذَرُ الظُّلْمَ والطُّغيان، وتتَّصفُ بالعدل والتَّقوى، وقد تنزَّهَ الباري ﷻ عن الظُّلم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، وجَعلَه بين العباد مُحرَّماً، فقال: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ**

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الأول من شهر صَفَر، سنة تسع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً؛ فَلَا تَظَالَمُوا» (رواه مسلم).

الظُّلْمُ يَسلُبُ الحقوق، ويُفسدُ المجتمع، ويَقْهرُ الضَّعيف، ويَجْلِبُ الهموم، ويُهلِكُ الدِّيارَ، وتَنْهارُ به الأمم والبلدان، دعا أوَّلُ الرُّسلِ نوحٌ عليه السلام على الظَّالمين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا خَرج من المنزل استعاذ باللَّه منه بقوله: «**بِسْمِ اللَّهِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَزِلَّ، أَوْ أَضِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**» (رواه أحمد)، وأمَر أفرادَ أمَّتِه أن يَتعوَّذُوا باللَّه منه فقال: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الفَقْرِ، وَالقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَأَنْ تَظْلِمَ أَوْ تُظْلَمَ**» (رواه النسائي)، ونَهَى المسلمين أنْ يَتَظَالَمُوا فقال: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ**» (رواه البخاري).

الظُّلْمُ لُؤْمٌ؛ إذ لا يُظلمُ إلَّا الضَّعيف، قال ابن الجوزيِّ رحمه الله: «المَعْصِيَةُ فِي الظُّلْمِ أَشَدُّ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ غَالِباً إِلَّا بِالضَّعِيفِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الِانْتِصَارِ»، وهو خُلُقٌ ذميمٌ يَمنعُ الرِّزقَ عن العباد: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، والظُّلْمُ ولو في شيءٍ يسيرٍ تَعْظُمُ فيه العقوبة؛ قال ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً؛ فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» (متفق عليه)، ولَئِنْ كان ظُلْمُ الهِرَّة يُدْخِلُ النَّارَ؛ فَظُلْمُ المُسلِم أَبْشَعُ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا؛ فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**» (متفق عليه).

والأُمَمُ في مَأْمَنٍ من العذاب إذا آمَنَتْ ولم تَظْلِم؛ فإنْ ظَلَمَت

هَلَكَت: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، وقد توعَّد اللَّهُ الظَّالِمَ وهدَّدَهُ بعذابٍ أليم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، واللَّهُ لا يَهديه ولا يَنصرُه ولا يُحبُّه؛ قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الظَّالِم مقطوعُ الدَّابرِ، لا يُخَلِّفُ ذِكْراً حسناً، وربُّك له بالمرصاد، وعاقبتُه إلى تَبَابٍ، وقد تكونُ عقوبتُه معجَّلةً - وإن لم يَدْعُ عليه المظلوم -، وعذابه كبيرٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا - مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ - مِنَ البَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**» (رواه الترمذي)، وقد يُمهلُه اللَّهُ فلا يُعاقبُه في الدُّنيا؛ استدراجاً له، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ؛ لَمْ يُفْلِتْهُ**» (متفق عليه)، ويومَ القيامة يَتضاعَفُ عليه ظُلْمُه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**» (متفق عليه)، ولا أنصارَ له ولا شُفَعَاء، ولا تُقْبلُ منه المعاذير، وَيَوُدُّ الافتداءَ بما في الأرض؛ بل ومثلُه معه للنَّجاة من العذاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾، ولَئِنْ تولَّى ظالمٌ ظالماً في الدُّنيا؛ فمآلُهُما الافتراق والنِّزاع، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، قال شيخ الإسلام ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ عَلَى مَعْصِيَةٍ؛ إِلَّا تَنَازَعَا»، والظَّالِمُ لا يَهْنَأُ بِظُلمه؛ بل يُبتلى بمن هو أقوى منه ظُلْماً فيَقْهَرُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

واللَّهُ بقوَّته وقدرته يَنْتَصِرُ للمظلوم، وجَعل دعوتَه مستجابةً؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ،**

وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» (رواه الترمذي)، قال الزَّبِيديُّ ﵀: «المَظْلُومُ إِذَا شَكَا إِلَى اللَّهِ؛ اقْتَضَى عَدْلُ اللَّهِ الإِيقَاعَ بِظَالِمِهِ»، ودعوتُه لا حجابَ دونها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (متفق عليه)، قال ابن عقيلٍ ﵀: «يُسْتَجَابُ لِلْمَظْلُومِ وَالْمُضْطَرِّ بِسُرْعَةٍ».

ادَّعَتِ امْرأةٌ ظُلماً على سعيدِ بن زيدٍ ﵁ - وهو أحدُ العشرةِ المُبشَّرين بالجنَّة - أنَّه أَخذ أرضها فقال: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً؛ فَعَمِّ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا؛ فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا؛ إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ» (رواه مسلم).

وأصحابُ البُستان الَّذين قَصَّ اللَّه أمرهم في سورة القلم، لمَّا منعوا الفقراءَ حقَّهم؛ أهلك اللَّه زُرُوعَهُم: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾.

ومَن ظُلِم فَصَبر؛ زاده اللَّه عزّاً، قال النَّبيُّ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزّاً، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ» (رواه الترمذي)، واللَّهُ يُخاصِمُ عن المظلوم يومَ القيامة، ومَنْ خَصَمه اللَّه خُصِمَ؛ قال ﵇: «قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرّاً فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ» (رواه البخاري)، ولا يَدخلُ المظلومُ الجنَّةَ حتى يُقتَصَّ له ممَّن ظَلمه وتطيبَ

نفْسُهُ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا**» (رواه البخاري).

ومِن الظُّلْم: حِرْمانُ العَامِلِينَ حقوقَهم، أو إنقاصُها، أو المُمَاطَلةُ في دفْعِهَا، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**» (متفق عليه).

ومن الظُّلْم: الاعتداءُ على أملاك الآخرين أو سلبُها أو أذيَّتُهم فيها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً؛ فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» (متفق عليه)، وأَكْلُ أموالِ اليَتَامَى ظُلماً من موجبات النَّار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾، وتقصيرُ الزَّوجةِ في حقوق زوجِها، وإنكارُها محاسنَه، والتَّشكِّي ممَّا لم يفعله؛ ظلمٌ منها له؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**» (متفق عليه)، وظُلمُ الزَّوج زوجتَه، أو تقصيرُه معها فيما أَوجبَ اللَّهُ لها من الحقوق؛ تعدٍّ عليها، وعدمُ العدلِ بين الزَّوجات، والميلُ إلى إحداهنَّ في القَسْم والنَّفقةِ ونحوِهما؛ حَيْفٌ مُتوَعَّدٌ عليه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا؛ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**» (رواه أبو داود).

وتَفْضِيلُ الأولادِ بعضِهم على بعضٍ في الهِبَات وغيرِها، أو التَّقصيرُ في رعايتهم وتوجيهِهم ظلمٌ من الأب لهم؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**» (متفق عليه)، ومن الظُّلم: منْعُ الأبِ ابنتَه من الزَّواج، أو تزويجُها من غير كُفْءٍ لها؛ طمعاً في مالٍ أو غيره.

وتقديمُ المعلِّم بعضَ طلابه على بعضٍ بغير حقٍّ؛ مَيلٌ عن العدل، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَحَدِيثُ: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ» يَدْخُلُ فِيهِ مُعَلِّمُ الصِّبْيَانِ».

وأذيَّةُ المسلِمِ والإضرارُ به من أعظمِ العدوان؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ: اسْتِطَالَةَ المَرْءِ فِي عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ» (رواه أبو داود).

والتَّصويرُ بأنواعه من ظُلْم العبد لنفْسِه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقاً كَخَلْقِي؟! فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» (متفق عليه).

وأعظم الظُّلْم: الشِّركُ باللَّه؛ قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فمَنْ دَعَا غير اللَّه، أو نذَر أو طاف أو ذبح لغير اللَّه، أو حَلَف بغير اللَّه؛ فهو ظالمٌ لنفسه، واجبٌ عليه أن يتوب.

ومَن ظَلم غيره؛ فليتذكَّرْ قُدْرَة اللَّه عليه، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

واللَّهُ يَقْبَلُ توبةَ الظَّالِمِ إذا تاب وردَّ المَظَالمَ إلى أهلها؛ قال سبحانه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئاً، وَاللَّهُ يَسْتَوْفِيهِ».

ومِنْ عَدلِ اللَّه: أنَّ الخلائقَ يُقتصُّ لهم ممَّن ظَلَمَهُم، حتى البهائمَ فيما بينها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى

يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ - أَيِ: الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا - **مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ** - أَيِ: الَّتِي لَهَا قَرْنٌ -» (رواه مسلم).

وقد أمَر النَّبيُّ ﷺ أن يَتحلَّلَ الظَّالِمُ من المَظْلُومِ في الدُّنيا قبْلَ حسابِ الآخرة؛ فقال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ؛ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**» (رواه البخاري).

وظُلمُ الشِّركِ لا يُغْفرُ إلَّا بالتَّوحِيد، ويجبُ نصْرُ الظَّالمِ ببذل النَّصيحة له؛ ليَكُفَّ عن مظلمتِه؛ قال اللَّه لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾، ومَنْعُ الظالمِ عن ظُلمه نصرٌ له؛ لئلَّا يَحيقَ به العذاب، قال عليه الصلاة والسلام: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً؟ قَالَ: **تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ**» (رواه البخاري).

فاتَّقوا اللَّه، وكونُوا قَوَّامين بالقِسْط والعَدْل، واحذَروا الظُّلْم، وعظِّموا حرمات المسلِمين، وردُّوا المظالم إلى أهلها قبْلَ يومِ الحساب.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

أصلُ كلِّ خيرٍ: العِلمُ والعدل، وأصلُ كلِّ شرٍّ: الجهلُ والظُّلْم؛ وأعقلُ النَّاسِ مَنْ أنصفَ عقله مِن هواه، وممَّا يُعينُ على مُجانَبَةِ الظُّلم: القَنَاعَةُ، ومراقبةُ اللَّهِ، وكثرةُ الدُّعاء، ومَنْ عَدَلَ ورَاقَبَ ربَّه وأطاعه؛ عاش آمناً مُطْمَئِناً، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وإذا ابتَعد العبادُ عن الظُّلْم ولَجَؤُوا إلى اللَّه بالتَّوبة والدُّعاء؛ نالهم الخَصْبُ والعطاء.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عُقُوبَةُ الظَّالِم(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّهِ طريقُ الهدى، ومخالفتُها سبيلُ الشَّقاء.

أيُّها المسلمون:

فضَّل اللَّهُ الإنسانَ وكَرَّمَهُ، وهَيَّأَ له أسبابَ الطُّمأنينة؛ ليعبدَه وحده سبحانه كما أمر، ومعاشُ النَّاسِ لا يستقيمُ إلَّا بالدِّين، وبه سعادتُهم في الآخرة، ومن دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي**» (رواه مسلم).

وأساسُ الدِّين: العدلُ فيما بين العبادِ وبين خالقِهم بإفرادِ العبادةِ

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثلاثين من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

له، وبينهم وبين المخلوقينَ بعدمِ بَغْيِ بعضِهم على بعضٍ؛ إذ الظُّلمُ أصلُ كلِّ شرٍّ وفسادٍ للدِّين والدُّنيا، واللَّهُ نزَّه نفْسَه عن الظُّلم وجَعله بيْن العبادِ محرَّماً؛ فقال: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً؛ فَلَا تَظَالَمُوا**» (رواه مسلم)، وكان أبو إدريسَ الخَوْلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ - راوي الحديث - إذا حدَّث بهذا الحديثِ جثَا على ركبتيه.

واللَّهُ أَخبر أنَّه لا يُحِبُّ الظَّالمَ، ونَفى عنه الفلاح، ووَعد بقطعِ دَابِرِه، ولا يدومُ على نصرتِه أحد؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾، بل يُسلِّطُ عليه ظالماً أقوى منه؛ قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنُهْلِكُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَنَنْتَقِمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ؛ جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ».

وتوعَّده اللَّهُ بسوءِ المنقَلَب؛ فقال: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾، قال شُريح رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ العِقَابَ، وَالمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ».

والظَّالمُ أيامُه في الدُّنيا معدودةٌ واللَّهُ يُمْهِلُه؛ قال جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾، ومَنْ طالَ عدوانُه زال سلطانُه؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُهْلِكَ أَعْدَاءَهُ وَيَمْحَقَهُمْ؛ قَيَّضَ لَهُمُ الأَسْبَابَ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهَا هَلَاكَهُمْ وَمَحْقَهُمْ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا - بَعْدَ

كُفْرِهِمْ -: بَغْيُهُمْ وَطُغْيَانُهُمْ، وَمُبَالَغَتُهُمْ فِي أَذَى أَوْلِيَائِهِ وَمُحَارَبَتِهِمْ وَقِتَالِهِمْ وَالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ».

واللَّهُ ذَكَرَ في كِتابه ظالمين وذَكرَ سوءَ عاقبتِهم، وأَخبر أنَّه جَعلهم عبرةً لغيرهم؛ ففرعون طغى وعاث في الأرض فساداً، قال سبحانه عنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ بل تَطاولَ على الرَّبِّ وأنكره وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وافتَخر بجريان الماء من تحت قدميه، وكان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ﴾، واللَّهُ له بالمرصاد يُمْهِلُه ولا يُهْمِلُه؛ فأَجرى الماءَ من فوقِه وأغرقَه به، وقال له ساعةَ هلاكِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ﴾، وأَخبر بأنَّ تلاطُمَ أمواجِ البحرِ من فوقِه حين هلاكِه كان أمراً مهولاً؛ فقال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

وشعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومَه إلى الإسلام ونهاهم عن ظُلْم الناس، وقال لهم: ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ فسَخروا به وقالوا له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ فأَرسل اللَّهُ عليهم ناراً أَحرَقَتْهُم، وأَحْرَقَتْ أموالَهم التي اكتسبوها بالظُّلم؛ قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ﴾ أي: النَّارِ المُحْرِقَةِ النَّازلةِ عليهم من السَّماء: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وثمودُ كان ذنْبُهم مع الشِّركِ: عَقْرَ بهيمةٍ جَعلها اللَّهُ لهم آيةً؛ فأَرسلَ عليهم صيحةً قطَّعَتْ قلوبَهم، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنِ انْتَهَكَ مَحَارِمَ اللَّهِ، وَاسْتَخَفَّ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعَقَرَ عِبَادَهُ، وَسَفَكَ دِمَاءَهَمْ؛ كَانَ أَشَدَّ عَذَاباً مِنْهُمْ».

وإذا وَقع بالمؤمنين شدةٌ وبلاءٌ وكَرْبٌ وعناء؛ فاللَّهُ لطيفٌ في قَدَرِه، حكيمٌ في تدبيره، قادرٌ على نصرة عباده؛ ولكن لحكمته يبتليهم؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

وهو سبحانه قويٌّ في مدافعته عن عباده؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ - الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ - شَرَّ الأَشْرَارِ وَكَيْدَ الفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ»، وهذه المدافعةُ بحسب إيمان العبد بمولاه؛ فمَنْ زاد إيمانُه قَويتْ مدافعة اللَّه عنه؛ قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللَّهِ! مَا يُضَيِّعُ اللَّهُ رَجُلاً قَطُّ حَفِظَ لَهُ دِينَهُ».

والمسلمُ يأخذ بأسبابِ النَّصرِ ودفْعِ الظُّلم والقَهْرِ بحسنِ الظَّنِّ باللَّه بأنَّ اللَّهَ سينصرُه، وباعتقادِ ما دلَّت عليه أسماؤه وصفاته - من القوَّةِ والقُدْرةِ والعَظَمَةِ والعِزَّة -، وبالإيمانِ بما جاءَ في القرآنِ مِن وَعْدِ اللَّه بنصرةِ المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وبالإكثارِ من التَّعبُّدِ والاستغفارِ والإنابةِ إلى اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وبالثقةِ بقربِ ساعةِ الفرج: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وأنْ يوقنَ أنَّ التَّوكُّلَ على اللَّه أساسُ النَّصر: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وتوحيدُ الكلمةِ على الحقِّ ونبذُ النِّزاع؛ قوةٌ على الأعداء؛ قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، والصَّبرُ مفتاحُ الفرج، ويُتأكَّدُ عند حلولِ المِحَن والمصائب، والدُّعاءُ أقوى سلاحٍ ضدَّ العدوِّ؛ قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**» (متفق عليه)، قال ابن عقيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسْتَجَابُ لِلْمَظْلُومِ بِسُرْعَةٍ».

والفَأْلُ هديُ نبيِّنا ﷺ؛ فقد قوتِل وحوصِر، وجُرِح وأوذي، ومُكِر به وكِيدَ به وأُخرِج، وسُمَّ وسُحِر، ومات له ستةٌ من أولاده، وكان يقول: «**وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: **كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**» (متفق عليه).

والمسلِمُ موقِنٌ بنصرِ اللَّه، ويَحْرُم عليه الرُّكون إلى الظَّالمين؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، واللَّهُ بقدرته ينصرُ الضَّعيفَ، ولو تَكَالبتْ عليه الشَّدائدُ أو خُذِل؛ قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ونصرةُ اللَّه للمؤمنين إنما هي بالإيمانِ والتَّقوى، وهو سبحانه ناصرٌ عبادَه وإن قلَّ عددُهم وعتادُهم؛ فالقوَّةُ للَّهِ جميعاً؛ قال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وهو سبحانه قد يَنْصُرُ عبادَه بلا قتالٍ - كما في الأحزاب -؛ قال ﷻ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، وقد يَنصرُهم بإلقاءِ الرُّعب في قلوبِ

الأعداء - كما حصلَ ليهود بني النَّضير -؛ قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وقد يُرْسِلُ اللَّهُ جنوداً من عنده؛ لإهلاك المعتدين؛ فأبرهةُ أتى بجيشٍ من اليمنِ لهدم الكَعْبَةِ مُصْطَحِباً معه أقوى الحيوانات - الفيل -؛ فسلَّط اللَّهُ عليه أضعفَ الحيوانات - الطُّيور -، وجَعل كيدَهم في تضليلٍ.

وإذا حَصل قتلٌ وجراحٌ في المسلمين - كما في أُحُدٍ -؛ فالعاقبةُ لهم، قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فلَئِنْ خُذِلَ المسلِمون فهم المنتصرون، ولئن قُوتِلُوا فهم الغالبون، ولئن شُرِّدُوا فهم المُؤَيَّدون، وما تَعلَّق أحدٌ باللَّه فخُذل، وما لجأ إليه أحدٌ إلَّا نُصر.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

التَّاريخُ مليءٌ بالعِظَاتِ والعِبَر، زاخرٌ بالحوادثِ والقَصَص، وفي معرفة أحوال الأُمَم وعاقبة الظُّلم والظَّالمين؛ عبرةٌ لأُوْلي الألباب، والسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره.

وسِيَرُ المسرفين وعاقبةُ الظَّالمين ومَآلَاتُ المُجْرِمين؛ عبرةٌ لِمَنْ عَرف اللَّهَ حقَّ المعرفة، وآمن بأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير؛ قال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ونهايةُ كلِّ ظُلم - وإنْ طالت - آتيةٌ، والنَّصرُ مع الصَّبر، والفَرَجُ مع الكرب، والعُسْرُ يَعْقُبُه يُسر؛ قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

ثُمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الباب السَّادس عشر
الأَمَاكِنُ وَالغَزَوَاتُ

وفيه فصلان:

الفصل الأوَّل : الأَمَاكِن.

الفصل الثَّاني : الغَزَوَات.

الفصل الأوَّل

الأَمَـاكِـنُ

أَفْضَلُ الأَزْمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ وَالأَعْمَالِ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

انفردَ اللَّهُ سبحانه بالاصطِفاء والتَّفضيل، كما تفرَّد بالخلق والتَّدبير: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولِكمال عِلمِه خصَّ ما شاءَ بفضلِه، واختيارُه سبحانه وتخصيصُه؛ دالَّان على ربوبيَّته ووحدانيَّته، وكمال حكمتِه وقُدرتِه، فاصطفَى ملائكتَه على سائر خلقِه؛ خَلقَهم من نورٍ، ووكَلَ إليهم بعضاً مِنْ شُؤون مُلكِه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الأول من شهر رجب، سنة سبع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وكرَّمَ بني آدم، واختارَ منهم أنبياءَ ورُسُلاً، واصطفَى منهم نبيَّنا مُحَمَّداً ﷺ، وجَعله سيِّدَ ولدِ آدمَ وأكرمَهم، وأفضلَ الأنبياء والرُّسُل، وصحابتُه خيرُ صحبٍ، وأفضلُ جيلٍ، لا كانَ ولا يكونُ مثلُهم؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (متفق عليه)، قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ فِقْهٍ وَعِلْمٍ وَدِينٍ وَهُدًى، وَفِي كُلِّ سَبَبٍ يُنَالُ بِهِ عِلْمٌ، أَوْ يُدْرَكُ بِهِ هُدًى، وَرَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرٌ مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا».

وهذه الأُمَّة تمامُ سبعين أمَّة، هي خيرُها وأكرمُها على اللَّه، صفوف أهل الجَنَّة عشرون ومئة صفٍّ، ثمانون من هذه الأُمَّة، وأربعون من غيرها، وأكرمُ الخلْق عند اللَّه أتقاهم؛ «مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالآخَرُ مِنْ أَشْرَافِ الْقَوْمِ، فَقَالَ فِي الأَوَّلِ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» (رواه البخاري).

والجَنَّةُ دارُ كرامتِه أعدَّها اللَّه لعبادِه المُؤمنين؛ «وَلَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (رواه البخاري)، وأفضلُها الفردوسُ؛ «فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» (رواه البخاري)، وأفضلُ نَعيمِ أَهْلِ الجَنَّة: رؤيتُه سبحانه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ» (رواه مسلم).

وخَلَقَ اللَّهُ الأماكنَ وفاضلَ بينها، وخيرُها ما وَصَل به العبدُ إلى ربِّه، وكان أقربَ لِنَيل رضاه وجنَّته.

ومكَّةُ خيرُ أرضِ اللَّه وأحبُّها إليه؛ بلدٌ حرامٌ، وفيها قِبلةُ المسلِمين، وأوَّلُ مسجدٍ وُضع في الأرض، الصَّلاة فيه خيرٌ من مئة ألْف صلاةٍ فيما سِواه، جَعل اللَّهُ فيها مناسِكَ عباده، وإليها تهوِي القلوبُ، ويأتيها الخلْقُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ.

والمدينةُ مُهَاجَرُ رسولِ اللَّه ﷺ، وبلدٌ حرامٌ، البرَكة فيها ضِعْفَا ما بمكَّة، والصَّلاة في مسجدِ رسول اللَّه ﷺ خيرٌ من ألْفِ صلاةٍ فيما سِواه إلَّا المسجد الحرام، و«**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءٍ فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً؛ كَانَ لَهُ أَجْرُ عُمْرَةٍ**» (رواه ابن ماجه).

والمسجدُ الأقصى أُوْلَى القبلتين، ومسرَى رسولِ اللَّه ﷺ، و«**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**» (متفق عليه).

و«**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا**» (رواه مسلم)، ومجالسُ الذِّكر رياضُ الجنَّة؛ قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**» (رواه مسلم).

والزَّمانُ مطيَّةٌ للدَّار الآخرة، واللَّبيبُ من اغتنمَ أنْفَسَه؛ وأفضلُ الشُّهور رمضانُ، فرضَ اللَّهُ صومَه وأَنزلَ فيه القرآن، وأشهرُ اللَّهِ الحُرُمُ عند اللَّه مُعظَّمةٌ، والمعاصِي فيها أشدُّ قُبحاً من غيرِها.

وخيرُ الأيَّام يومُ النَّحر، ثمَّ يومُ عرفة، وما من أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ

فيها أحبُّ إلى اللَّهِ من أيَّام عشرِ ذي الحِجَّة، ويومُ الجُمُعُة خيرُ يوم طلعَتْ فيه الشَّمس، «فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ خيراً؛ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»، وليالِي العشرِ من رمضانَ مُبارَكةٌ، وخيرُ ليالي الدَّهرِ ليلةُ القَدْر: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، والثُّلُثُ الآخِرُ من اللَّيل أنفَسُ ما في اللَّيل؛ يَنزلُ فيه الرَّبُّ إلى السَّماء الدُّنيا ويَتودَّدُ إلى عباده، فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (متفق عليه).

واللَّهُ طيِّبٌ لا يَقبلُ من الأقوال والأعمال إلَّا طيِّبَها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، والأعمالُ الصَّالحةُ مُدَّخرُ العبادِ عندَ اللَّه، وبِها سعادتُهم ونجاتُهم وفوزُهم، واللَّهُ فاضَلَ بينها، وما تقرَّبَ عبدٌ إلى اللَّه بشيءٍ أحبَّ ممَّا افترضَ عليه، ولا يزالُ يَتقرَّبُ بالنَّوافِلِ حتى يُحبَّه، وأعظمُ الفروضِ: إيمانٌ صادقٌ ويقينٌ راسِخ؛ سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ» (متفق عليه).

وخيرُ القلوب: القلبُ السَّليم، وبصلاحِه تصلُحُ الجوارِح، وفي الآخرة: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، وما سَبقَ الأوَّلون إلَّا بصلاحِ بَوَاطِنِهم، قال بكرٌ المُزنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا سَبَقَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ»، قال أهل العِلم: «الَّذِي وَقَرَ فِي صَدْرِهِ هُوَ حُبُّ اللَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِخَلْقِهِ».

وإخلاصُ العبادةِ للَّهِ وحدَه أصلُ كلِّ خيرٍ وفلاح، وخيرُ الهَدْيِ هَديُ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، والمتابعةُ له سببُ القَبولِ وبركَةِ العمل، وكلمةُ

التَّوحيدِ شِعارُ الإسلام، ومِفتاحُ الجنَّة؛ جمعَتِ الدِّينَ كلَّه، فكانت أوَّلَه وخاتمَه، وهي أفضلُ شُعب الإيمانِ وأعلاها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ فَأَعْلَاهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**» (متفق عليه)، والولاءُ والبراءُ حِصنٌ للدِّين وأهلِه، وأوثقُ عُرَى الإيمانِ: الحبُّ في اللَّه والبُغضُ في اللَّه، و«**مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»، وإنَّما تُنالُ وَلايةُ اللَّه وحلاوةُ الدِّين بذلك.

والصَّلاة صِلَةٌ بين العبدِ وربِّه، وهي أفضلُ أعمالِ الجوارِح وأزكاها، ثانِي أركانِ الإسلام، ومبانِيه العِظام، وفارِقةٌ بين المُؤمنين والكُفَّار، أداؤُها جماعةً في المسجِد واجبٌ على الرجال، وفضْلُ الجماعةِ على صلاةِ الفَرْد سبعٌ وعشرون درجة، وأعظمُ النَّاسِ أَجْراً في الصَّلاةِ أبعَدُهم إليها مَمْشًى، و«**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**».

وأفضلُ الصَّلاةِ: طولُ القيام إلَّا ما جاء النَّصُّ بتخفيفِه، و«**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»، وصلاة المرأة في بيتِها خيرٌ من صلاتِها في المسجِد، و«**خَيْرُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ؛ إِلَّا الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ**»، و«**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ المَكْتُوبَةِ: صَلَاةُ اللَّيْلِ**»؛ وهي في الجُزء الآخِر منه مشهُودةٌ، و«**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ: صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»، و«**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

والصَّدقةُ تُطفِئُ الخطيئة؛ كما يُطفِئُ الماءُ النَّار، وهي بُرهانٌ على

الإيمان، ومن خير الأعمال؛ سُئِل النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ» (متفق عليه)، وأعظمُ الصَّدقةِ أجراً: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ؛ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» (متفق عليه)، و«خَيْرُ الصَّدَقَةِ: مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى» (متفق عليه)، وإخفاءُ الصَّدقة خيرٌ من إظهارها؛ فهو أبعَدُ عن الرِّياء، إلَّا أَنْ يترتَّبَ على الإظهار مصلحةٌ راجِحةٌ؛ كالاقتِداء بالإنفاق؛ قال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ومن السَّبعةِ الذين يُظلُّهم اللَّه في ظلِّه: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ؛ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» (رواه البخاري)، والتَّيسيرُ على المُعسِرين صدقةٌ، ومَنِ استدانَ أموالَ النَّاس يُريدُ قضاءَها أدَّى اللَّهُ عنه، و«إِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ: أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً» (متفق عليه).

والصَّوم جُنَّةٌ من النَّار، و«لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ» (متفق عليه)، و«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ: شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ» (رواه مسلم)، «وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ: صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً».

و«العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ» (متفق عليه)، وأفضلُ أنساك الحجِّ: التَّمتُّعُ لمن لم

يَسُقِ الهَدْي، والحَلْقُ في النُّسُك أفضلُ من التَّقصير، وما عمِلَ آدميٌّ يومَ النَّحر أفضلَ من إراقَة دمِ نُسُكه.

ولَرَوْحةٌ في سبيل اللَّه أو غَدوةٌ؛ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ورِباطُ يومٍ وليلةٍ؛ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِه، وخيرٌ من الدُّنيا وما عليها.

والعِلمُ سابِقُ العمل ومُقدَّمٌ عليه، وهو إمامٌ والعملُ تابِعُه، و«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (متفق عليه)، واللَّهُ نفَى التَّسويَةَ بين العلماء والجاهلين، و«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ» (رواه الترمذي).

والنَّاس معادِن؛ «خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا» (متفق عليه)، وخيرُ الخلْق مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَه، قال سُفيانُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا مِنْ عَمَلٍ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ».

وذِكرُ اللَّه أفضلُ ما تحرَّك به اللِّسان، وأفضلُه: القرآنُ العظيمُ، كلامُ ربِّ العالمين، وهو أفضلُ الكُتب المُنزَّلة، و«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» (رواه مسلم)، و«أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، قال عنها النَّبيُّ ﷺ: «أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» (رواه مسلم)، و«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ» (متفق عليه).

والدَّعوةُ إلى اللَّه مُهِمَّةُ الرُّسُل، ولا أحسنَ قولاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللَّه، وبها خيريَّةُ هذه الأُمَّة وشرفُها، و«لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» (متفق عليه)، و«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ - إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ -» (رواه مسلم)، وأوَّلُ ما يُبدأُ به من الدَّعوة الأَهمُّ فالأَهمُّ، ورأسُ الأمورِ وأصلُها دعوةُ الخلقِ إلى توحيدِ اللَّه وعبادتِه، وإنقاذُهم من الشِّركِ وسَخَطِ اللَّه.

وإصلاحُ ذاتِ البَيْن دِينٌ وقُرْبة، وبه المحبَّةُ والأُلْفة؛ قال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ولِعظيم نفعِه يُدرِكُ به المرءُ درجةَ الصِّيام والصَّلاةِ والصَّدقة، قال النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ» (رواه الترمذي).

والعبدُ مُكلَّفٌ بعبادةِ اللَّهِ والإحسانِ إلى خلْقِه، وأَولَى النَّاسِ بالبرِّ وحُسنِ الصُّحبة: الوالِدان، وبرُّهما أوجبُ حقوق المخلُوقين وأفضلُ عملٍ بعد الإيمان، ثمَّ بعد الوالدَين الأقربُ فالأقرب.

و«المُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»، وخيرُ النَّاسِ: المؤمنُ النَّافعُ المُحْسِنُ للخلْق، يعامِلُهم بما يَودُّ أن يُعامِلوه، ويُحبُّ لهم ما يُحِبُّ

لنفْسِه، ويَنصحُ لهم ويصبرُ على أذاهم، و«**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً: أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً**» (رواه أحمد)، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ: أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً**» (متفق عليه)، و«**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**» (رواه أبو داود)، وخيرُ الأصحابِ خيرُهم لصاحبِه، وخيرُ الجيران خيرُهم لجارِه، و«**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ**» (رواه مسلم)، وخيرُ النَّاسِ خيرُهم لأهله.

و«**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**» (متفق عليه)، والقليلُ الدَّائِمُ قد يُثمِرُ حتى يزيدَ على الكثير المُنقطِع أضعافاً مُضاعفَة، وأحبُّ الدِّين إلى اللَّه: الحنيفيَّةُ السمحة، و«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؛ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً» (رواه مسلم)، و«**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» (رواه مسلم)، وإذا قَوِيَ داعي الشَّرِّ؛ عَظُم شأنُ الثَّبات، وممَّن يُظِلُّهم اللَّهُ في ظلِّه: «**رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ؛ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**» (متفق عليه).

والعَامِلُ أيَّامَ الصَّبرِ المُتمسِّكُ بدينِه له أجرُ خمسين من الصَّحابة، وفضْلُ الصُّحبة يفوقُ ذلك، وأجرُ العبادةِ في الفِتَنِ كأَجْر الهِجرة إلى النَّبيِّ ﷺ، والفِتَنُ بلاءٌ، والقاعدُ فيها خيرٌ من القائِم، والسَّلامةُ في اعتِزالِها.

والدُّنيا دارُ سعيٍ وكِفاحٍ، وأطيبُ الكسبِ عملُ المرءِ بيدِه، و«**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**» (رواه البخاري)، وأطيبُ ما أكلَ الرَّجُل مِن كسبِه، وولدُه من كسبِه، و«**لَأَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ**

حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ؛ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» (رواه البخاري)، و«**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**» (رواه مسلم)، و«**خَيْرُ النِّكَاحِ أَيْسَرُهُ**» (رواه أبو داود)، وأعظمُه بركةً: أقلُّه مُؤْنَة.

و«**أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»، وأفضلُ ما غُيِّر به الشَّيبُ: الحِنَّاءُ والكَتَمُ، و«**أَفْضَلُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ: الحِجَامَةُ**»، وخيرُ المياه: ماءُ زمزم؛ ماءٌ مُبارَك، وطعامُ طُعمٍ، وشفاءُ سُقم.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فالمؤمنُ يَطْمَحُ للوصول إلى أعالِي الأعمال وأكملِها وأفضلِها، وظنُّه باللَّهِ عظيمٌ، واللَّهُ لا يُخيِّبُ مَنْ رَجَاه وأَحْسَنَ الظَّنَّ به، ومَنْ تنوَّعَتْ أعمالُه المَرْضِيَّة وأصابَ أعالِيَها؛ زادَ نعيمُه في الدُّنيا والآخرة، وليس جزاءُ ولذَّةُ من ضربَ في كلِّ طاعةٍ بسهمٍ وأخذَ منها أفضلَها كجزاءِ ولذَّةِ من اقتصَرَ على نوعٍ واحدٍ وحُرِمَ فاضلَها.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

السَّعادةُ وانشراحُ الصَّدر في القُرْبِ من اللَّه، والطَّاعة تُورِثُ الأُنْسَ باللَّهِ والمَحبَّةَ له، والدُّنيا دارُ سباقٍ في الخيرات ومُسارعةٍ إلى الطَّاعات، والمُوفَّقُ مَنْ بادرَ إلى العمل قبْل أن يَفْجَأه الأجل، فنافِسِ السَّابقين بالخير، ولا تَخلُدْ إلى اللَّهْوِ والكَسَل، ولازِمِ الطَّاعةَ، ولا تشتغِلْ بالمفضُولِ عن الفاضِلِ والأكمل، ومَنِ استطاعَ أن لا يَسبِقَه إلى اللَّهِ أحدٌ؛ فليفعل.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

أُمُّ القُرَى (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِه اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

تَفَرَّدَ اللَّهُ بالخلْقِ والتَّدبيرِ والاصطفاء، واختيارُه دالٌّ على رُبوبيَّته تعالى ووحدانيَّتِه، وكمالِ حكمتِه وعِلمِه وقُدرتِه، وقد فاضَلَ سبحانه بين الأمكِنة، والذَّوات، والأعمال، والشُّهور، واللَّيالِي، والأيَّام.

فخيرُ الخَلْقِ: مُحمَّدٌ ﷺ، وأفضلُ الأعمالِ: توحيدُ اللَّه وإفرادُه بالعبادة، وأشرفُ الشُّهورِ: شهرُ رمضان، وأعزُّ اللَّيالِي: ليلةُ القَدْر، وأفضلُ الأيَّامِ: يومُ النَّحر، وخيرُ البِقاعِ عندَ اللَّهِ وأحبُّها إليه: مكَّة؛

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث والعشرين من شهر ذي القَعدة، سنة سبع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

قال النَّبيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ! إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ؛ مَا خَرَجْتُ» (رواه أحمد)، هي أمُّ القُرى، وما سِواهَا تَبَعٌ لها، أَقسَمَ اللَّهُ بها؛ إشارةً لعظَمَتِها؛ فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، ومع القَسَمِ سمَّاها البلدَ الأمين؛ فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾.

مسجِدُها أشرفُ المساجِد، وهو أوَّلُ بيتٍ وُضع في الأرضِ مُباركاً وهدايةً للنَّاس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى» (متفق عليه).

هَدَى اللَّهُ إبراهيمَ لبناءِ البيتِ فيها: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، فرفَعَه مع ابنه إسماعيل، ودعا الخليلُ بمحبَّةِ قلوبِ النَّاسِ لمكَّة، وفَرَحِهِم بالقُدُومِ إليها؛ فقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

اختارَها اللَّهُ لأَكْرَمِ رُسُلِه، ففيها وُلِدَ نبيُّنا ﷺ، وفيها نشَأ، ومنها بُعِث، وبدأَ نُزُولُ الوحي والقرآنِ عليهِ فيها، وعاشَ النَّبيُّ ﷺ فيها أكثرَ من خمسين عاماً، ومنها انطلَقتِ الدَّعوة، وفيها نشأَ خيرُ رجالٍ بعد الأنبياء - وهُمُ الصَّحابةُ -، ومنها أُسرِيَ بالنَّبيِّ ﷺ إلى المسجدِ الأقصى.

أحبَّها رسولُ اللَّهِ ﷺ حُبّاً جمّاً، وأُخرِجَ منها مُكرَهاً، ولَمَّا نَزل

المدينة كان يدعو: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ» (متفق عليه).

بلدٌ آمِنٌ، دعا إبراهيمُ عليه السلام له بالأمنِ؛ فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، فامتَنَّ اللَّه بذلك، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، قال القُرطبيُّ رحمه الله: «إِنَّ مَكَّةَ لَمْ تَزَلْ حَرَماً آمِناً مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَمِنَ الزَّلَازِلِ، وَسَائِرِ المَثُلَاتِ الَّتِي تَحُلُّ بِالبِلَادِ»، والدَّاخِلُ إلى مسجدِها يشعُرُ بأمنِها؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

حرَّمَها اللَّهُ منذُ خَلَق السَّمواتِ والأرض؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؛ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» (رواه البخاري)، وأَظهرَ إبراهيمُ عليه السلام للخلْقِ حُرمَتَها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ» (متفق عليه)، وكان نبيُّنا ﷺ مُعظِّماً لها؛ قال يومَ الحديبية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» (رواه البخاري).

من حُرمَتِها: أنَّ سَفكَ الدَّم فيها بغير حقٍّ أشدُّ حُرمةً من غيرها، قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَماً» (متفق عليه)، ولا يُخَافُ أهلُها بحملِ سلاحٍ فيها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ» (رواه مسلم).

والحيواناتُ آمنةٌ بأمان اللَّهِ في العَرَاء، والطُّيورُ سابحةٌ في الفَضَاء، وأشجارُها تُرفرِفُ بالأمنِ فلا تُقطَع، والأموالُ المفقودةُ فيها لا تُلْتَقَطُ إلَّا لِتَعْرِيفِهَا، قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا يُعْضَدُ

شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ» (متفق عليه).

شبَّه النَّبيُّ ﷺ حُرمةَ الأموالِ والأعراضِ والدِّماءِ بحُرْمَةِ مكَّة؛ لعلوِّ منزلَتِها عند اللَّه، فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**» (متفق عليه).

ومَن هَمَّ بسوءٍ فيها عذَّبه اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ رَجُلاً هَمَّ فِيهِ بِإِلْحَادٍ وَهُوَ بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لَأَذَاقَهُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً».

والظَّالِمُ فيها أبغضُ النَّاسِ عند اللَّه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ**» (رواه البخاري)، ولِعظيم حُرمَتِها لا يَطأُ أرضَها مُشرِكٌ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

والدَّجَّالُ كافرٌ باللَّه، يَفتِنُ النَّاسَ في دينِهم، فيمنَعُهُ اللَّهُ من دخولِ مكَّةَ والمدينة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ؛ إِلَّا مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ**» (متفق عليه).

حفِظَ اللَّهُ مكَّة، وستبقَى محفوظةً بحفظِ اللَّه، ومَنْ أرادَها بسُوءٍ أهلكَهُ اللَّه، فأصحابُ الفيلِ أرادُوها بشرٍّ؛ فحبَسَهم اللَّه عنها، وجَعَلهم عبرةً إلى يوم الدِّين، و«**يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ** - أَيْ: صَحْرَاءَ - **يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**» (متفق عليه).

وكما أحلَّ اللَّهُ فيها الأمنَ، تكرَّمَ على أهلِها بالخيراتِ والثِّمار، مع أنَّها وادٍ بين جبَلَين غير ذي زَرعٍ، والجبالُ مُحيطةٌ بها من كلِّ جانبٍ، وأرضُها مظِنَّةٌ للمجاعة، فدعَا إبراهيمُ عليه السلام لأهلها أن يُرزَقُوا من الثَّمرات كما رزَقَ اللَّهُ البُلدانَ ذواتَ الماءِ والزُّرُوع؛ فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ فأجابَه اللَّهُ وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ بل ودعَا إبراهيمُ عليه السلام ربَّه بالبركةِ في صاعِها ومُدِّها - أي: في طعامِها -، وكان من دُعاء النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ البَرَكَةِ**» (متفق عليه).

وسقَى أهلَها ماءً لا يُوجدُ في الأرضِ مِثلُه، ويتمنَّى النَّاسُ قطَرَاتٍ منه؛ فماءُ زمزمَ مبارَكٌ، وهو طعام؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**» (رواه مسلم)، وهو شفاءٌ من جميعِ الأسقام، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**» (رواه الطبراني)، وصَدْرُ النَّبيِّ ﷺ شقَّه المَلَكُ وغسلَه بماء زمزم (متفق عليه).

وحُلولُ الرِّزق فيها والأمنِ مُوجِبانِ لعبادةِ اللَّهِ وحده؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، واللَّهُ يَدفعُ السُّوءَ عن أهلِها؛ لتعظيمِهم البيتَ؛ قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «أَيْ: يَرْفَعُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهَا: السُّوءَ».

مكَّةُ بلدةٌ مبارَكةٌ، وخيرُها عَميم، ومن بركاتِها: مضاعفةُ الصَّلاةِ فيها؛ فـ«**صَلَاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ**»

(رواه أحمد)، والطَّوافُ بالبيت عبادةٌ، لا يُمنع عنه أحدٌ أيَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

مشاعِرُها مناسِكُ للمسلِمين، فرَضَ اللَّه عليهم قصْدَها، وجَعَله أحدَ أركانِ الإسلام، ومسجدُها يُثابُ المسافرُ إليه؛ قال الرَّسُولُ ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى**» (متفق عليه)، وليس في الأرضِ بُقعةٌ يُشرعُ الطوافُ حولَها سِوَى الكعبة، وليس في الدُّنيا موضعٌ يُشرعُ تقبيلُه واستلامُه؛ غيرَ الحَجَرِ الأسودِ من الكعبة، والرُّكنُ اليمانِيُّ منها يُستلَم.

جَعلَ اللَّهُ البيتَ فيها مثابةً للناسِ وأمْناً، فإليه يَفِدُ الخلقُ على تعاقُبِ الأعوامِ من كلِّ فجٍّ عميقٍ، تشتَاقُ له الأرواحُ، وتَحِنُّ إليه النُّفُوس، وإنْ زارُوه زادَ شوقُهم إليه، قصَدَه الأنبياء، فحجَّ موسى ويونُسُ ومُحَمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهم وسلَّم؛ قال الرَّسُول ﷺ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ وَهُوَ يُلَبِّي**» (رواه مسلم).

شرَّفَ اللَّهُ البيتَ فأضافَه إلى نفْسِه، وجَعَله منارةً للتَّوحيدِ، وأمَرَ بتطهيرِه ممَّا يُضادُّ ذلك من الأصنام وعبادةِ الأوثان؛ فقال: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وجَعَلَ قصْدَه مُكفِّراً لِمَا سَلَفَ من الخطايا والذُّنوب؛ قال الرَّسُول ﷺ: «**مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» (متفق عليه)، ولم يرضَ اللَّهُ

لقاصِدِه ثواباً دونَ الجَنَّة؛ قال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةَ» (متفق عليه).

وهو قِبلةُ أهلِ الأرضِ جميعاً؛ يتوجَّهُ كلُّ مسلِم إلى جِهتِه كلَّ يوم مراراً؛ قال سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، ومَنْ مَاتَ من المسلمين؛ وُجِّه قَبْرُهُ إليه.

عَظَّم سبحانه حُرمَتَه؛ فلا تُستقبَلُ جهةُ البيتِ الحرامِ حالَ البولِ أو الغائِطِ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ؛ وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا» (متفق عليه)، وإليه يُساقُ الهَدْيُ والقَرَابِين؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وفي البيتِ آياتٌ بيِّناتٌ على أنَّ الذي بناه إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، منها مَقامُه، وأمرَنا اللَّهُ أنْ نتَّخِذَ منه مُصلًّى، وفي بيتِ اللَّهِ الحرام: الحجرُ الأسود؛ «نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ؛ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ» (رواه الترمذي)، وهو حجرٌ لا ينفَعُ ولا يضُرُّ، وإنَّما يُقبَّلُ؛ امتِثالاً للسُّنَّة؛ قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ؛ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» (متفق عليه).

وفي المسجدِ الحرام الصَّفا والمَرْوَةُ، وهما من شعائِرِ اللَّه، وتعظيمُ الشَّعائرِ هنا بالذكر والدعاء والسَّعيُ بينهما، وفي بيتِ اللَّه ماءُ زمزمَ عبرةٌ وآيةٌ في كثرتهِ وبركتِهِ ونفعِهِ.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فبيتُ اللَّهِ إِنَّما أُسِّسَ لعبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريك له، وهو من مواطِن التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى اللَّه، فعلى العبدِ أن يقصِدَ المسجدَ الحرام وهو خاضِعٌ، ذليلٌ للَّهِ؛ للتَّقرُّبِ إليه سبحانه، وحطِّ الأوزَار، وواجِبٌ على العبادِ تعظيمُ بيتِ اللَّه؛ فتعظيمُ ما عظَّمه اللَّهُ من التَّقوَى، وبذلك صلاحُ المسلمين في دينِهم ودنياهم.

ومَنْ خَدَمَ الحَرَمَيْن الشَّرِيفَيْن والحُجَّاجَ والمعتمرين والزوَّارَ؛ فأجرُه عند اللَّه عظيمٌ، فكِلَا المسجدَين بناهما نبيٌّ، وهما من شعائِرِ اللَّه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

في البلد المُبارَك الآمِن يُؤدِّي المُسلِمون حجَّهم مُتجرِّدين عن الدُّنيا وأطماعِها، مُسَلِّمين أنفسَهم لِلَّه عبوديةً ورِقّاً، يَجمعُهم التَّوحيدُ، ويُؤلِّفُ بين قلوبهِم الإيمان، مُظهِرين الطَّاعةَ لِلَّه ذُلّاً وانقِياداً، مُفتقِرين إليه طلباً وسؤالاً، مُكثِرين من ذِكْرِ اللَّه إقامةً وارتِحالاً.

في مشاعِرِ الحجِّ العِبَرُ والعِظات، الكلُّ عند اللَّه سواءٌ، والميزانُ هو التَّقوَى، وفي الإحرامِ واجتماع النَّاسِ تذكيرٌ بالمحشَر، والمَقبُولُ مَنْ كان عملُه خالِصاً لِلَّه صواباً، لم يَشُبْه شركٌ أو رياءٌ أو عدمُ اتِّباع، ولحظاتُ الحجِّ ثمينة، والمُوفَّقُ مَنِ اغتنَمَها بالإكثارِ من ذكرِ اللَّه وعملِ الصَّالحات.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

إنَّهَا المَدِينَةُ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

مِنْ كمالِ حكمةِ اللَّه وعلمِه الدَّالَّيْن على رُبوبيَّته ووحدانيَّته: اختيارُ رُسُلِه وملائكتِه والصَّالحين، فلا شريك له يخلُقُ كخلْقِه ويختارُ كاختِياره؛ قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، فبحكمتِه سبحانه فضَّل أياماً وشهوراً، وبعِلمِه اختارَ بِقاعاً بارَكَ فيها؛ فاختار مكَّةَ وجَعل فيها بيتَه الحرام، واصطفَى الأرضَ المُقدَّسةَ وجَعلَ فيها المسجِدَ الأقصَى، وشرَّف مدينةَ رسولِه ﷺ وخصَّها بفضائلَ ليست في غيرِها، وكثُرَت أسماؤها لشرفِها، فَسَمَّاهَا النَّبيُّ ﷺ: المدينةَ، وطَيْبَةَ، وطَابةَ.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث عشَر من شهر صَفَر، سنة ست وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

إليها هاجرَ النَّبيُّ ﷺ، ومنها فُتِحَت مكةُ وسائرُ الأمصار، وانتشَرَتِ السُّنَّةُ في الأقطار، في مهد الإسلام هي موطِنُه، وكما خرجَ منها الإيمانُ سيعودُ إليها، قال ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ - أَيْ: يَرْجِعُ إِلَيْهَا - كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا» (متفق عليه)، وصفَها النَّبيُّ ﷺ بأنَّها تأكلُ القُرَى، فقال: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ - أَيْ: بِالهِجْرَةِ إِلَى قَرْيَةٍ - تَأْكُلُ القُرَى - أَيْ: تَكُونُ الغَلَبَةُ لَهَا عَلَى القُرَى -، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ» (متفق عليه).

مدينةٌ تحُطُّ الذُّنوبَ والخطايا؛ قال ﷺ: «إِنَّهَا طَيْبَةُ؛ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ» (متفق عليه)، وتَنفِي منها الخبيثَ من النَّاس؛ قال ﷺ: «تَنْفِي النَّاسَ - أَيْ: خَبِيثَهُمْ - كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ» (متفق عليه)، وشبَّه النَّبيُّ ﷺ قوَّةَ تطهيرِها بالكِير، فقال: «المَدِينَةُ كَالكِيرِ؛ تَنْفِي خَبَثَهَا» (متفق عليه).

بلدٌ آمِنٌ؛ لينتشِرَ منها الدِّينُ، وتُقامَ فيها شعائِرُ الإسلام، قال ﷺ: «إِنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ» (رواه مسلم)، مَنْ أرادَ مدينةَ رسول اللَّهِ ﷺ بسُوءٍ أهلكَه اللَّه؛ قال ﷺ: «مَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ؛ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ» (رواه أحمد)، ومَنْ مكَرَ بأهلها أهلكَه اللَّه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَكِيدُ أَهْلَ المَدِينَةِ أَحَدٌ؛ إِلَّا انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ المِلْحُ فِي المَاءِ» (متفق عليه)، ومَنْ أرادَ أهلها بسُوءٍ توعَّدَه اللَّهُ بالعذابِ الشَّديدِ في النَّار؛ قال عليه الصلاة والسلام: «وَلَا يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ المَدِينَةِ بِسُوءٍ؛ إِلَّا أَذَابَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ، أَوْ ذَوْبَ المِلْحِ فِي المَاءِ» (متفق عليه)، ومَنْ أخافَ

ساكِنَها؛ أخافَه اللَّهُ، وتوعَّدَه باللَّعنة، قال ﷺ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ المَدِينَةِ ظَالِماً لَهُمْ؛ أَخَافَهُ اللَّهُ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ - أَيْ: فَرِيضَةٌ - وَلَا عَدْلٌ - أَيْ: نَافِلَةٌ -» (رواه النسائي).

ولِمكانتِها: جَعلها اللَّهُ حرَماً كَمَكَّة؛ قال ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ المَدِينَةَ» (متفق عليه)، فلا يُحمَلُ فيها سلاحٌ لقتالٍ، ولا يُهراقُ فيها دمٌ إلَّا لإقامةِ القِصاص والحُدود، وصيدُها آمِنٌ، وشجرُها لا يُقطَع، ومن أحدثَ فيها حدَثاً في الدِّين أو آوَى جانِياً فعليه لعنةُ اللَّه؛ قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثاً أَوْ آوَى مُحْدِثاً؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ» (متفق عليه).

بلغَتِ المدينةُ الغايةَ في الأَمْنِ؛ فجميعُ طُرقِها محروسةٌ بالملائكة إذا خَرج الدَّجَّال، قال ﷺ: «وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا - أَيْ: طَرِيقٍ - مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا» (متفق عليه)، وشِعابُها محروسةٌ بالملائكة؛ قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنَ المَدِينَةِ شِعْبٌ وَلَا نَقْبٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكَانِ يَحْرُسَانِهَا» (رواه مسلم)؛ بل محروسةٌ من كلِّ جانبٍ بالملائكة، قال ﷺ: «يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ؛ فَيَجِدُ المَلَائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا» (رواه البخاري)، قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِيهِ بَيَانُ كَثْرَةِ الحُرَّاسِ، وَاسْتِيعَابِهِمُ الشِّعَابَ».

مدينةٌ محفوظةٌ من الدَّجَّال؛ قال ﷺ: «يَأْتِي الدَّجَّالُ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المَدِينَةِ» (متفق عليه)، وإذا سمِعَ النَّاسُ بالدَّجَّال

يفزَعُون ويهرُبُون منه إلى الجِبال، أمَّا المدينةُ فلا يدخُلُها خوفُ الدَّجَّال؛ قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ» (رواه البخاري).

صانَها اللَّهُ من مَرَضٍ مُهلِكٍ؛ قال ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ المَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ؛ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَلَا الدَّجَّالُ» (متفق عليه)، ودعَا النَّبيُّ ﷺ لها بالصِّحَّة من الوباء، فقال: «اللَّهُمَّ صَحِّحْهَا» (رواه أحمد)، قال ابن حجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعَادَتِ المَدِينَةُ أَصَحَّ بِلَادِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ».

السُّكنَى فيها أفضلُ من السُّكنَى في غيرِها، ولو كان غيرُها أرغَدَ عيشاً منها؛ قال ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (رواه مسلم)، ولِطِيبِها ينصَعُ ذِكرُ ساكنِها من أهل الإيمان؛ قال ﷺ: «وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا» (متفق عليه)، وكذا الأعمالُ الصَّالحةُ فيها تنصَعُ، وتظهرُ في الآفاق.

والمُسلِمُ إنْ صبرَ على شدائِدِها؛ نالَ شفاعةَ النَّبيِّ ﷺ أو شهادتَه، ومَنْ ماتَ بها وهو مؤمنٌ كان النَّبيُّ ﷺ شفيعاً له يوم القيامة؛ قال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لَهُ - أَوْ: أَشْهَدُ لَهُ -» (رواه النسائي).

مدينةٌ مباركةٌ بدعوةِ النَّبيِّ ﷺ لها؛ بل البركةُ مُضاعفةٌ مرَّتَين عمَّا في مكَّة؛ بل دعا النَّبيُّ ﷺ أن تكونَ مع كلِّ برَكةٍ بركتَان، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ البَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ» (رواه مسلم)، وطعامُها مُبارَكٌ؛ قال ﷺ:

«**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا**» (متفق عليه)، قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظَّاهِرُ: أَنَّ البَرَكَةَ حَصَلَتْ فِي نَفْسِ الكَيْلِ، بِحَيْثُ يَكْفِي المُدُّ فِيهَا مَا لَا يَكْفِيهِ فِي غَيْرِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مَحْسُوسٌ عِنْدَ مَنْ سَكَنَهَا»، وثِمارُها أيضاً مُباركةٌ؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا**» (رواه مسلم)، وتَمرُ عَجْوة عالِيَتها شِفاءٌ، والعَجْوةُ فيها من غير العَالِيَة تمنعُ السُّمَّ والسِّحْر، وأيُّ تمرٍ فيها غيرُ العَجْوة يمنَعُ السُّمَّ - بإذن اللَّه -.

وفيها مسجِدُ رسول اللَّه ﷺ؛ أوَّلُ مسجِدٍ أُسِّسَ على التَّقوى، وهو أحدُ المساجِد الثَّلاثة التي بنَاها أنبياءُ اللَّه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والرِّحالُ تُشدُّ إليه، والصَّلاةُ فيه خيرٌ من ألْفِ صلاةٍ فيما سِواه إلَّا المسجدَ الحرام، قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعُمُّ الفَرْضَ وَالنَّفْلَ جَمِيعاً، وَالنَّافِلَةُ فِي البَيْتِ أَفْضَلُ».

ومِنبَرُ النَّبيِّ ﷺ على حوضِه، و«**مَنْ حَلَفَ بِيَمِينٍ آثِمَةٍ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» (رواه ابن ماجه)، وما بيْن بيتِ النَّبيِّ ﷺ ومِنبَرِه روضةٌ من رياضِ الجنَّة؛ قال ﷺ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**» (متفق عليه)، قال ابن حجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: كَرَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ فِي نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَحُصُولِ السَّعَادَةِ بِمَا يَحْصُلُ مِنْ مُلَازَمَةِ حِلَقِ الذِّكْرِ، لَا سِيَّمَا فِي عَهْدِهِ ﷺ»، وصلاةُ الجماعة في الصُّفوفِ الأُولى أفضلُ من الصلاة فيها؛ قال ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا**» (رواه مسلم).

وفي المدينةِ مسجِدُ قُباء؛ أُسِّسَ على التَّقوى من أوَّل يومٍ، و«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُهُ كُلَّ يَوْمِ سَبْتٍ مَاشِياً وَرَاكِباً» (متفق عليه)، و«**مَنْ تَطَهَّرَ**

فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءٍ، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً؛ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ» (رواه ابن ماجه).

وفيها جبلُ أُحُدٍ يُحبُّ المسلمين ويحبُّونَه، قال ﷺ عنه: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» (متفق عليه)، قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَاهُ: يُحِبُّنَا هُوَ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ تَمْيِيزاً»، ومَحبَّتُه بالقلبِ من غير اعتِقادِ بركةٍ فيه.

وفيها وادِي العقيقِ وادٍ مُبارَك؛ قال ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ مِنْ رَبِّي آتٍ - وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -، فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الوَادِي المُبَارَكِ، وَقُلْ: عُمْرَةٌ فِي حَجَّةٍ» (رواه البخاري)، ومع برَكتِه لا يُطلَبُ النَّفعُ أو دفعُ الضّرِّ منه.

ولعظيمِ فضْلِ المدينةِ؛ أحبَّها النَّبيُّ ﷺ حبّاً جمّاً، ودعَا أن يكون حبُّه لها كحُبِّه مكَّةَ أو أشدَّ؛ فكان يقول: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ؛ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ» (متفق عليه)، وكان إذا فارقَهَا لسفَرٍ ثم قَدِمَ إليها، ورأى بيوتَها؛ أَسرعَ في المشي إليها؛ محبَّةً لها، قال ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلُّ مُؤْمِنٍ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ سَائِقٌ إِلَى المَدِينَةِ، لِمَحَبَّتِهِ فِي النَّبِيِّ ﷺ».

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

زيارةُ المدينة مِنَّةٌ من اللَّهِ عظيمة، فكم مِنْ مُسلِمٍ تَعذَّر عليه زيارتُها أو ماتَ قبل تحقيقِ مُناهُ برُؤيتها؟! ومَنْ منَحَه اللَّهُ زيارةَ المدينةِ؛ فلْيتذكَّرْ منزلتَها وفضْلَها عند اللَّه، وَلْيَعْمُرْ وقتَه بالأعمال الصَّالِحة - من صلاةٍ، وتلاوةِ قُرآنٍ، وذِكرٍ، وغير ذلك -، ولْيجعَلْ مِن حُبِّه لها باعِثاً للاقتِداء بخيرِ البَريَّة في كلِّ أحوالِه، مع الحذرِ من الوقوعِ في البِدَع والمعاصي فيها أو بعْد فِراقِها، وأن يُعامِلَ أهلَها بأحسَن خُلُقٍ.

ومَنْ رزَقَه اللَّهُ سُكنَى المدينة؛ فلْيكُن قُدوةً صالحةً لزُوَّارها، وأن يُرِيَهم من نفْسِه صالِحاً بحبِّ الخير، وكرَمِ النَّفْس، والقولِ والفعلِ الحسنِ معهم، مُتأسِّياً بالنَّبيِّ ﷺ في ذلك.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

فَضَائِلُ المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ(١)

الحمد للَّهِ الموصوفِ بصفاتِ الجلالِ والكمال، امتنَّ على خلقِه بمزيد الإنعام والإفضال، أَحْمَدُه تعالى وهو المَحمُودُ على كلِّ حالٍ.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، لا فوزَ إلَّا في طاعته، ولا عزَّ إلَّا في التَّذلُّل لعظمته.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وخليلُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه خيرِ صحبٍ وآلٍ، والتَّابعين ومَنْ تَبِعهم بإحسان إلى يوم المآل.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فإنَّ مَنْ أطاعَه أنجاه، ومَنْ أَقبل إليه أرضاه، ومَنْ شَكَره جازاه.

أيُّها المسلمون:

لقد بَعث اللَّهُ رَسُولَه مُحَمَّداً ﷺ بالهدى ودينِ الحقِّ؛ فصَدَع بأمرِ الدَّعوة، وقام بها خيرَ قيامٍ، مَكث في مكَّة المكرَّمة ثلاثةَ عَشَرَ عاماً، يدعو إلى عبادة ربِّه، فاشتدَّت عداوة المشركين له ولأصحابه، وأذاقوهم

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث من شهر ربيع الآخر، سنة عشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

صنوفاً من العذاب وألواناً من الأذى، ومِن سُنَن اللَّه الفرجُ بعد الشِّدَّة، واليُسرُ بعد العُسر.

وفي وسَطِ ظلامِ الشِّرْكِ الحالكِ في الأرض؛ أخَذَتْ تَباشيرُ الصَّباحِ تلوحُ في الآفاق المُدْلَهِمَّة؛ إيذاناً بالهجرة، فأُرِيَ النَّبيُّ ﷺ في منامه دارَ هجرته؛ تعجيلاً لِبُشْراه، فإذا هي أرضٌ بها نخلٌ وسَبِخة بين ظهرانَي حرَّةٍ، وأمَر اللَّه رسوله ﷺ بالتَّضرُّع إليه لدخولها؛ فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾، فتعلَّقت قلوب المؤمنين بها، وتطَلَّعت أبصارُهم وأفئدتُهم إليها؛ فهاجروا إلى طَابَة، ذلك الاسمُ الذي سمَّاها اللَّه به من فوق سبع سمواتٍ.

إنَّها طيبةُ دارُ الإيمان وأرضُ الهجرة، ومُبَوَّأُ الحلال والحرام، فُتِحتْ بالقرآن والإيمان، وحمى اللَّهُ فيها دينَه بمهاجره ﷺ إليها، أنزل اللَّهُ فيها البركات، وأفاض عليها ربُّنا من الطَّيِّبات، قَدِمَ إليها النَّبيُّ ﷺ وهي أَوْبَأُ أرضِ اللَّه، كان وادي بُطحان يجري نجلاً ماء آجناً، وَوَعَكَ بعض الصَّحابة رضي الله عنهم من الحُمَّى فقال: «**اللَّهُمَّ صَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ**» (متفق عليه)، قال ابن حَجَرٍ رحمه الله: «فَعَادَتِ المَدِينَةُ أَصَحَّ بِلَادِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ».

«**عَلَى أَنْقَابِ المَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ**» يَمنعون دخول الطَّاعون إليها، و«**مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً؛ لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»، وفي عَجْوة العَالِيَة منها شفاءٌ أوَّل البُكرة.

وفي مُدِّها وصاعِها ومكيالِها وثمرِها وقليلِها وكثيرِها برَكةٌ؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا**» (رواه مسلم)، والبرَكةُ فيها مضاعَفةٌ؛ يقول عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي قَلِيلِنَا وَكَثِيرِنَا، وَاجْعَلْ لَنَا مَعَ البَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ**» (رواه ابن حِبَّان).

وقد دعا خليل الرَّحمن عليه السلام لمَكَّةَ بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ودعا رسولُنا ﷺ للمدينة بمثلِ ما دعا به إبراهيمُ عليه السلام وزاد؛ فقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا بِمَكَّةَ مِنَ البَرَكَةِ**» (متفق عليه).

فيا مَنْ دعا له النَّبيُّ ﷺ بالبركة والخير! الْزَمِ الكسبَ الحلالَ في البيع والشِّراء، والتَّعاملَ بالصِّدق والنُّصح والبعدِ عن الكذب والغشِّ والتَّدليس، فالبركةُ حالَّةٌ في القليل منه، ولا تُدَنِّسْ مالَك بما حرَّم اللَّه عليك.

أيُّها المسلِمون:

المدينةُ محفوفةٌ بالرِّعاية، محفوظةٌ بحفظ اللَّه بالملائكة؛ يَدفعون عنها شرورَ الأعداء، ما من شِعْبٍ فيها ولا نَقْبٍ إلَّا عليه ملكان يَحْرُسَانها، لا يَدخُلُها الدَّجَّال، ولا رُعْبُ الدَّجَّال، لها يومئذٍ سبعة أبوابٍ، على كلِّ بابٍ منها مَلَكَان، على أنقابها ملائكةٌ يَمنعون دخولَ الطَّاعون إليها.

وتولَّى اللَّهُ حمايةَ أهلِها مِن كيدِ الأشرار وسوءِ الفُجَّار، فلا يريدُ أحدٌ أهلَها بكيدٍ أو سوءٍ إلَّا أذابَه اللَّهُ ذَوْبَ الرَّصاص في النَّار، ومَنْ أخاف أهلَها فقد دعا عليه المصطفى ﷺ بأَنْ يُخِيفَه اللَّه ويلعَنَه.

بلدة مَحْبُورَة محروسةٌ مختارَةٌ، ما بين مَأْزِمَيْهَا حرمٌ آمنٌ؛ لا يُهْرَاقُ فيها دمٌ، ولا يُحْمَلُ فيها سلاحٌ لِقتالٍ، طيورُها وأشجارُها في احترام وصيانةٍ وأمانٍ، ومفقودُها حاضرٌ، نهى ﷺ أن يُعضد شجرُها، أو يؤخذَ طيرُها، أو يُختلى خلاها، «**وَلَا تُؤْخَذُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ**».

أيُّها المسلِمون:

طابةُ مستقَرُّ الإيمان ومأواه، انتَشر منها الدِّين وإليها يعود: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**» (متفق عليه)، إنَّ شُعَاعَ النُّورِ والهدايةِ من طيبة انبثقَ، ويأبى اللَّه أن يكون نورُ الإيمان مدنَّساً ببدعةٍ أو مُلَوَّثاً بخرافةٍ، ومَنِ ابتَدع فيها بدعةً، أو آوى مبتدِعاً، أو نصَر جانياً، أو ضَمَّه إليه وحَمَاه؛ فقد أَخبر النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام أنَّ: «**عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَدْلٌ وَلَا صَرْفٌ**» (رواه مسلم).

إنَّ طلبةَ العِلم هم أشدُّ النَّاس حِرصاً وأعزُّهم مَطلباً، ويأتي على النَّاس زمانٌ يَسيرون سيراً شديداً في البلدان يطلبون العِلم؛ فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ؛ فَلَا يَجِدُونَ أَحداً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ**» (رواه الترمذي).

أيُّها المسلِمون:

المرءُ في حياته معرَّضٌ للفِتَنِ والرَّزايا، والمِحَنِ والبلايا، ولا يَنْصَعُ نورُ الإيمان ويَرْسَخُ اليقين إلَّا بالتَّمحيصِ والمُمَاحَلة، وبلدُ رسول اللَّه ﷺ من مواطنِ الابتلاءِ الشَّديدة؛ مَن ثبت على لَأْوَائها ظَفِر بشفاعةٍ أو شهادةٍ من الرَّسُولِ ﷺ، ومَنْ خَرج سَخْطةً منها رغبةً عنها، أبدلَ اللَّهُ فيها مَن هو خيرٌ منه.

والدُّنيا تَفنى، والدِّين يَبقى، ومهما ظَهر الرَّغدُ وطيبُ العيش في الأمصار؛ فالزَمِ المدينة؛ فالخيريَّةُ والتَّفضيلُ والتَّشريفُ فيها؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ فِيهَا خَيْراً مِنْهُ**» (رواه مسلم).

ساكنُها مع الإيمان والتَّقوى مُفضَّلٌ في الحياة والممات، جاء الحثُّ على لزوم الإقامة فيها والموتِ بها، ومَنْ فَعل ذلك كان له النَّبيُّ ﷺ شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة.

أيُّها المسلمون:

في موطِن الهجرة والسُّنَّة أوَّلُ مسجدٍ أُسِّسَ على التَّقوى، وأوَّلُ مَسْجدٍ أُذِّنَ فيه في الإسلام، وآخرُ مسجد أَسَّسَه الأنبياء، والصَّلاة فيه خيرٌ من ألْف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام، وما بيْن بيتِ

النَّبيِّ ﷺ ومِنْبَرِه روضةٌ من رياض الجَنَّة، ومنبرُه على حوضه، وعلى تُرْعةٍ من تُرَع الجَنَّة.

وفيها مسجد قباء؛ كان النَّبيُّ ﷺ يأتيه راكباً وماشياً ويصلِّي فيه ركعتين.

وأُحُدُها مَعْلَمٌ على التَّوحِيد، يُحبُّ المسلمين، ويحِبُّونه؛ صَعِد عليه رسول اللَّه ﷺ ذات يوم ومعه أبو بكر وعمرُ وعثمانُ ﵃؛ فرَجَفَ بهم، فضَربه برجله وقال: «اثْبُتْ أُحُدُ! فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ» (رواه البخاري)، ولَئِنْ كان الجبلُ الصَّلْدُ يحبُّ المصطفى ﷺ؛ فمَحبَّةُ البشرِ له باتِّباع هديه أَلْزَمُ حُبّاً من هذا الجبل.

الأرزاقُ في طابةَ مباركَةٌ دارَّةٌ، والأعْينُ بها قارَّةٌ، أَحبَّها النَّبيُّ ﷺ حُبّاً جمّاً، كان إذا قَدم من سفرٍ فنَظر إلى جدران المدينة؛ أَوْضعَ راحلته على سرعة السير، وإن كان على دابةٍ حرَّكها من حبِّهِ لها.

أفغيرَ هذه المحامدِ ساكنو المدينة يَبتغون؟! أم بعدَ هذه الفضائلِ قاطنوها يَرغبون؟!

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فحقٌّ على اللَّه ما ارتَفع شيءٌ إلَّا انخَفض، ومع هذه الفضائلِ والمحامد؛ فسيأتي على المدينة زمانٌ يَتركُها أهلُها لِلْعَوَافِي والسِّبَاع، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**يَتْرُكُونَ المَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ، لَا يَغْشَاهَا إِلَّا العَوَافِ** - يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ -، **وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ، يُرِيدَانِ المَدِينَةَ، يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحْشاً** - أَيْ: خَالِيَةً لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ -، **حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ؛ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا**» (متفق عليه).

فعلى المسلِم أنْ يَعرفَ لهذه البلدةِ الطَّيبةِ حُرْمَتَها، فلا يدَنِّسْها بِسفَهٍ من القول، أو باطلٍ من الفعل، أو منكَرٍ من العمل والاعتقاد، وليَكُنْ مُغْتَنِماً وقتَه بالطَّاعة، مُشمِّراً عن ساعد الجدِّ، مُعْرِضاً عمَّا يُبعِدُه عن ربِّه، مقبِلاً عليه بالكلِّيَّة، شاكراً لِنَعْمَائه.

وعلى ساكنيها أن يتَّصفوا بأعالي الصِّفات ديناً وصلاحاً واتِّباعاً وتُقًى وخُلُقاً، وأن يكونوا غايةً في الصِّدق والإخلاص ومحبَّةِ المسلِمين الوافدين وإكرامِهم، ولْيَكُنْ منهجُهم هو قولُ اللَّه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾، وخُلُقُهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾، ودُعاؤُهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وواجبٌ على زائرها الاحتراز من المحظورات وأسبابها.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الفصل الثَّاني

الغَــــــزَوَاتُ

غَزْوَةُ بَدْرٍ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه تَزيدُ النِّعَم، وتَدفعُ النِّقَم.

أيُّها المسلمون:

أصول الدِّين: معرفةُ اللَّه، ومعرفةُ دينِه، ومعرفةُ نَبيِّه ﷺ، وبواسِطة النَّبيِّ ﷺ يَعرِفُ العبدُ ربَّه ودينَه، وسعادةُ الدَّارَين مُعلَّقةٌ باتِّباع هدي النَّبيِّ ﷺ، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَأَحَبَّ نَجَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا؛ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ وَشَأْنِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الجَاهِلِينَ بِهِ، وَيَدْخُلُ بِهِ فِي عِدَادِ أَتْبَاعِهِ، وَشِيعَتِهِ، وَحِزْبِهِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا بَيْنَ مُسْتَقِلٍّ وَمُسْتَكْثِرٍ وَمَحْرُومٍ».

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، العاشر من شهر رجب، سنة خمس وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

ويومُ الجُمعة، السَّابعَ عشرَ من شهرِ رمضان، في السَّنَة الثَّانِيَة من الهجرة؛ يومٌ عظيمٌ في الإسلام، سمَّاه اللَّه تعالى يومَ الفرقان، وقال عنه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ** - أَيِ: الجَمَاعَةَ - **مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ؛ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» (رواه مسلم)، قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَلَى ذَلِكَ اليَوْمِ ابْتُنِيَ الإِسْلَامُ».

حضرَه النَّبيُّ ﷺ بنفْسِه، ونَزلَ ألْفُ ملَكٍ من السَّماء يقدُمُهم جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجلِه، مَنْ شَهِد ذلك اليومَ من المؤمنين؛ فذنْبُه مغفورٌ، ومُحرَّمةٌ عليه النَّار، وكان في أعالِي الجِنان، ومَنْ حضرَه من الملائِكة؛ فُضِّلَ على غيرِه من أهل السَّماء، فيه عِبرٌ وآياتٌ، ودروسٌ ومُعجِزاتٌ.

حاربَت قُريشٌ دينَ اللَّه، وأَخرَجُوا نبيَّه ﷺ من مكَّة، وآذَوْا صحابتَه؛ فهاجَروا إلى المدينة، ولمَّا بلغَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ عِيراً مُقبِلةً من الشَّام صُحبةَ أبي سُفيان تَحمِلُ أموالاً جزيلةً لقُريش؛ ندبَ أصحابَه؛ للخروج إليها؛ ليتنفَّلُوها، ولِيَعلمَ المُشركون أنَّ المُسلِمين ليسُوا في ضَعفٍ وهوانٍ، وخَرج معه ثلاثُ مئةٍ وبضعةَ عشرَ رجُلاً، لا يُريدون غزواً؛ وإنَّما العِير.

ولمَّا عَلِمَ أبو سُفيانَ بخروجِهم؛ اسْتَصْرَخَ قُريشاً بالنَّفيرِ إليه، ثمَّ سَلكَ طريقَ السَّاحلِ ونجا، وأَخبرَهم بنجاتِه، ولكنَّ قُريشاً خرجَت بساداتِها ولم يَتخَلَّفْ من أشرافِهم أحدٌ سِوى أبي لهبٍ، وحشَدوا مَنْ حولَهم من قبائلِ العربِ؛ لإبادَة المُسلمين، وخَرَجوا كما قال سبحانه: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

وصحابةُ رسولِ اللَّه ﷺ خيرُ صحبٍ لخير نبيٍّ، لَمَّا علِموا بمَقْدَم قُريشٍ؛ لقتال النَّبيِّ ﷺ؛ قام المِقدادُ بنُ الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا؛ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ - يَعْنِي: قَوْلَهُ -» (رواه البخاري)، وقالتِ الأنصار للنَّبيِّ ﷺ: «لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا - أَيِ: الخَيْلَ - البَحْرَ؛ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا - أَيْ: نَرْكُضَ بِهَا - إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لَفَعَلْنَا» (رواه مسلم).

ولمَّا دنَتْ قُريشٌ - وعددُهم بِقَدْر المسلمين ثلاثَ مرَّاتٍ -؛ باتَ النَّبيُّ ﷺ يدعُو ربَّه ويَسألُه النَّصر، وابتهلَ ابتِهالاً شديداً وكان رِداؤُه يسقُطُ عن مَنكِبَيْه، وأبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصْلِحُه ويقول: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ» (رواه مسلم)، ولم يَبتِ النَّبيُّ ﷺ ليلتَئذٍ؛ بل كان يَجأَرُ إلى اللَّه، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ؛ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ» (رواه أحمد)؛ فاستجابَ اللَّهُ دعاءَ نبيِّه ﷺ، وبشَّر صحابته بالنَّصر، وأَخبرَهم بمواضعِ مصارعِ رُؤوس المُشركين.

وأَقبلَت قُريشٌ بكتائِبِها إلى بدرٍ، واجتَمع الجيشان على غير مِيعادٍ؛ لحكمةٍ يُريدُها اللَّه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وألقى اللَّهُ على المُؤمنين النُّعاسَ أماناً وطُمأنينةً لهم: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

وقلَّل اللَّهُ أعدادَ المسلمين في أعين المُشرِكين؛ لئلَّا يفِرُّوا، وقلَّل أعدادَ المُشرِكين في أعيُن المُسلمين؛ ليَقدُمُوا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، قال ابن مسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: أَتُرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أُرَاهُمْ مِئَةً»، وهم قُرابة الألْف.

وألقَى اللَّهُ الرُّعبَ والخوفَ في قلوب المُشركين: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، وثبَّت المُؤمنين بملائكةٍ، قال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وحرَّضَ النَّبيُّ ﷺ المؤمنين على القتال، والْتَقَى الجمعان، وحمِيَ الوَطيسُ، وبدأَ النَّصرُ بماءٍ طهَّر المُسلمين ظاهراً وباطناً، وثبَّت أقدامَهم، وربَطَ على قلوبِهم، وأذهبَ عنهم تخذيلَ الشَّيطان، قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، وحضرَ الشيطانُ وقال للمُشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، ولـمَّا رأى الملائكةَ فرَّ وخذلَ المشرِكين وقال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

وقاتلَ النَّبيُّ ﷺ بنفسِه قتالاً شديداً؛ قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً»، ونزلَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقاتِلُ في المعركة، وأَخبرَ النَّبيُّ ﷺ صحابتَه بذلك، وقال لهم: «**هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الحَرْبِ**» (رواه البخاري).

وقاتلَ معه ألفٌ من الملائكة، وأخبرَ اللَّهُ المُؤمنين بقِتال الملائِكة معهم؛ بشارةً لهم وطمأنينةً لقلوبهم؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفَارِسِ، يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ - وَهُوَ اسْمُ فَرَسِ المَلَكِ -، فَنَظَرَ إِلَى المُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: **صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ» (رواه مسلم)، قال سهلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنَّ أَحَدَنَا يُشِيرُ بِسَيْفِهِ إِلَى رَأْسِ المُشْرِكِ فَيَقَعُ رَأْسُهُ عَنْ جَسَدِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ» (رواه الحاكم)، قال سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

وقُتِل في هذه الغزوة سبعون مُشرِكاً، منهم ساداتُ قُريشٍ الَّذين صَدُّوا عن دين اللَّه، وقُتِل غيرُهم ممَّن لا خيرَ فيه بالكلِّيَّة، وبعد مقتَلِ ساداتِهم لم يبقَ منهم إلَّا الضِّعافُ؛ فانتشَرَ الإسلامُ في الآفاقِ بفضل اللَّه، وقدَرُ اللَّه سابِقٌ فيمن بقِيَ من المُشرِكين في بدرٍ، فقد أَسلمَ منهم بشرٌ كثيرٌ، في مُقَدَّمهم: أبو سُفيان، وعمرُو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واستُشهِد أربعةَ عشر صحابيّاً أصابُوا أعلى الجِنان، جاءَت أمُّ حارِثةَ بنِ سُراقةَ إلى النَّبيِّ ﷺ وقالت: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ قَالَ: **يَا أُمَّ حَارِثَةَ! إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ**

الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» (رواه البخاري)، قال ابنُ كثيرٍ ﵀: «وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَظِيمٌ عَلَى فَضْلِ أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَإِنَّ حَارِثَةَ لَمْ يَكُنْ فِي بَحْبَحَةِ القِتَالِ وَلَا فِي حَوْمَةِ الوَغَى؛ بَلْ كَانَ مِنَ النَّظَّارَةِ مِنْ بَعِيدٍ، وَإِنَّمَا أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ وَهُوَ يَشْرَبُ مِنَ الحَوْضِ، وَمَعَ هَذَا أَصَابَ بِهَذَا المَوْقِفِ الفِرْدَوْسَ، فَمَا ظَنُّكُ بِمَنْ كَانَ وَاقِفاً فِي نَحْرِ العَدُوِّ؟».

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فدينُ اللَّه حقٌّ وهو ناصِرُه، والباطلُ وإن تَزخرفَ؛ فالحقُّ يَدْمَغُه، والنَّصرُ من عند اللَّه وإن تخلَّفَت أسبابُه؛ فعلى العبد أن يَتمسَّكَ بهذا الدِّين، وأن ينصُرَ ربَّه لينصُرَه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

الإسلامُ وصلَ إلينا بتضحِياتٍ، فاضَت لأجلِه أرواح، وأُصيبَت أجساد، وقاتلَ لإعلائِه وبقائِه ووصولِه إلينا رسلٌ وصِدِّيقون وشُهداءُ وملائِكة، وعلى مرِّ العصور بقِيَ محفوظاً كاملاً في أحكامِه وتشريعاتِه، صالحاً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فواجبٌ على كلِّ عبدٍ أن يتَّبِعَه، وأن يَفرَحَ به، وأن يَنشُرَه ويَنصُرَه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

غَزْوَةُ أُحُدٍ [(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه تزيدُ النِّعم، وتُزيلُ النِّقم.

أيُّها المسلمون:

لقد بعثَ اللَّه نبيَّنا مُحَمَّداً ﷺ على حين فترةٍ من الرُّسل، والحياة مليئةٌ بِظَلْماءِ جهالاتِها، ودَهْمَاءِ ضلالاتِها، فأخذ النَّبيُّ ﷺ ومعه صَحبٌ كرامٌ بِنَشْر هذا الدِّينِ في الآفاق، وتَصدَّى أهلُ الكُفرِ والعِنَاد لدعوته، وأَشْهَرُوا الأسيافَ؛ لِمُقابَلتِه، فالتَقوا في بدرٍ وتحقَّقَ النَّصرُ بأمر اللَّه، فارتفعَتْ رايةُ الإسلام، وعاد المشركون إلى مكَّة بالثُّبور، كلٌّ يبكي قتلاه، ويشكو بلواه، وعَظُم عليهم المصاب؛ فعَزَمَتْ قريشٌ على إعداد

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الأول من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

العُدَّة؛ لملاقاة المُسلِمين، وأَمضوا عاماً كاملاً في الاستعداد، فاجتَمع جَمْعهم، واتَّجه جيشُهم إلى المدينة النَّبويَّة في شوَّالٍ من السَّنَة الثَّالثة؛ ليأخذوا بِثَأْرِهِم في يوم بدرٍ، ونَزلوا عند جبلِ أُحُدٍ على شَفِير الوادي، وكان رجالٌ من المسلمين أَسِفوا على ما فاتَهم من مشهد بدرٍ، فأشاروا على النَّبيِّ ﷺ بالخروج؛ لِمُلَاقَاتِهِم، وعَزَم المسلمون على الخروج إليهم.

وبعد أن صلَّى النَّبيُّ ﷺ بالنَّاس يوم الجُمُعة دَخل بيته وخَرج متهيِّئاً للقتال لابساً لَأْمَةَ الحَرْب، وقال: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**» (رواه أحمد)، ثم خَرج في أَلْفٍ من الرِّجال، فلمَّا كانوا بين المدينةِ وأُحُدٍ انخَزَل عنه عبدُ اللَّه بن أُبَيٍّ - رأسُ النِّفاق - بثلث الجيش، فتَركهم رسولُ اللَّه ﷺ، ومضى حتى نَزل الشِّعبَ من أُحُدٍ في عُدوة الوادي إلى الجبل، وجَعل ظَهره وعسكره إلى أُحُدٍ، فصار جيشُ المشرِكين فاصلاً بين المسلِمين وبين المدينة.

فلمَّا كان صبيحةَ يومِ السَّبت تعبَّأَ عليه الصلاة والسلام للقتالِ، وظاهرَ بيْن دِرْعَيْن، واستعرَض الشَّباب، وردَّ مَنِ استَصْغَرَه عن القتال، وأجاز آخرين، وكان ممَّن أجازَ سمرةُ بنُ جندبٍ ورافعُ بنُ خَدِيج رضي الله عنهما، ولهما خمس عشرة سَنَة، واستعدَّت قريشٌ أيضاً للقتال، المشركون قِوامُهم ثلاثةُ آلافِ رجُلٍ، فيهم مئتَا فارس، يَقودُهم أبو سفيان، يريدون إطفاءَ نورِ اللَّه وإضلالَ العباد، والمسلمون سبعُ مئةِ رجُلٍ يبتغون النَّصرَ أو الشَّهادة، وحرَّض النَّبيُّ ﷺ أصحابَه على القتال، وحَضَّهُم على الصَّبر

والمُجَالَدَة، وجَعل على جبلِ الرُّمَاةِ خمسين رجلاً، أَمَّر عليهم عبدَ اللَّه بنَ جُبَير رضي الله عنه، وأَمَرهم أن يَلزموا مكانَهم وأنْ لا يفارقوه ولو رَأَوُا الطَّيرَ تَخْطَفُ المسلمين وقال: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**» (رواه البخاري).

وتقابلَ الجيشان وتقاربَ الجَمعان، السُّيوفُ مُصْلَتةٌ، والرِّماحُ مُبْرَزَةٌ، والسِّهامُ مُنْتَثِرةٌ، حِزبُ الرَّحمن وحِزبُ الشَّيطان، ثمَّ أَذِن النَّبيُّ ﷺ بالقتال، ودَنَا بعضُهم من بعضٍ، وتلاحمَ الفُرسان وحَمِيَ الوَطِيس، وكانت الدُّولةُ للمسلمين، وأَنزل اللَّهُ نَصره على المؤمنين، وانكَشف المشركون، وسَقط لواؤهم، ووَلَّوا مدبرين.

فلمَّا رأى الرُّماةُ هزيمتَهم ظنُّوا أنَّه ليس للمشركين رجْعةٌ، فنَزل مَنْ نزل منهم في طلب الغنيمة، وتَركوا مكانَهم الَّذي أمَرَهم رسول اللَّه ﷺ بحفظه، وذكَّرهم أميرُهم بلزومه، فنزلوا وخَلَا الثَّغرُ، فالْتَفَّ خالدُ بنُ الوليدِ - وهو على الشِّرْك يومئذٍ - مِنْ وراءِ جبلِ الرُّمَاة، فقَتَلَ العشرة الباقية من الرُّماة الذين على الجبل، وأَصبحَ جيشُ المسلمين بيْن خَيَّالَة المشركين من الخلْف وبين مُشَاتِهم من الأمام، وأحاطوا بالمسلمين، وانهَزمتْ طائفةٌ من المسلمين، وتَفَرَّقَ سائرُهم، ووَقعَ القتل فيهم، رضي اللَّه عنهم وأرضاهم.

وثابَ المشركون إلى رايتِهم، واضطرَبتْ صفوفُ المسلمين، فكانَ ما أرادَ اللَّهُ كونَه، فأَكرم مَن أَكرمَ بالشَّهادة، وثبَت النَّبيُّ ﷺ حين انكشفوا عنه، وهو يدعوهم في أُخْرَاهم حتى رَجع إليه بعضهم، وخَلَص

المشركون إلى النَّبيِّ ﷺ، يريدون قتْله، فشجُّوا وجهه، وكسروا رَبَاعِيَتُه، ووقعتْ حَلَقتان من حلَق المِغْفَر في وجهه، وهشموا البَيْضَة على رأسه - وهي الخُوذةُ التي يضعها الفارسُ على رأسه - ورَمَوْهُ بالحجارة حتى وَقع لشقه، وسقط في حفرةٍ من الحُفَر التي كان أبو عامرٍ الفاسق حَفَرها؛ لِيَكيد بها المسلمين، فأخذ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيده، واحتضَنه طلحةُ بنُ عُبيد اللَّه رضي الله عنه، وقُتِل مصعبُ بنُ عُمير رضي الله عنه بيْن يديه، وأَدركَ المشركون الرَّسولَ ﷺ، فحالَ دونَه نفرٌ من المسلمين - نحوٌ من العشرة - حتى قُتِلوا جميعاً، ثمَّ جَالَدَهم طلحةُ بنُ عُبيد اللَّه رضي الله عنه حتى أَبعدهم عنه، فَشُلَّتْ يده، وتَرَّس أبو دُجَانَة رضي الله عنه عليه بظهره، والنِّبالُ تقعُ عليه وهو لا يتحرَّكُ؛ وِقَايةً لرسول اللَّه ﷺ، وصَرَخ الشَّيطانُ بأعلى صوته: إنَّ مُحَمَّداً قد قُتل، ووَقع ذلك في قلوبِ كثيرٍ من المسلمين وتَوَّلى أكثرهم: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وأَقبلَ الرَّسولُ ﷺ نحوَ المسلمين، فَرَأَوْه واجتَمعوا إليه ونهَضوا معه إلى الشِّعْبِ الذي نزل فيه، واستَنَدُوا إلى الجبل، وغَسلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه الدَّمَ عن وجهِ النَّبيِّ ﷺ وصَبَّ ماءً على رأسه، ولمَّا رأتِ ابنَتُه فاطمةُ رضي الله عنها أنَّ الماء لا يزيد الدَّم إلَّا كَثْرةً؛ أخذتْ قطعةً من حَصِيرٍ فأَحْرَقَتْهَا؛ فأَلْصَقَتْهَا فاسْتَمْسَك الدَّم.

وأُجْهِدَ النَّبيُّ ﷺ غايةَ الإجهاد، ولمَّا أراد أن يعلوَ صخرةً هناك لم يستطع؛ لِمَا بَهِ من الجِرَاح، فجَلسَ طلحةُ رضي الله عنه تحتَه حتى صعدها، وفَزِعَ النَّاسُ لقتلاهم، ثمَّ نَزل رسول اللَّه ﷺ فرأى الشُّهداءَ وقد مُثِّل بهم أقبحَ تمثيلٍ، وتَلَمَّس عمَّه حمزة رضي الله عنه؛ فوجده في الوادي مَبْقُورَ

البطنِ مَجْدُوعَ الأَنْفِ والأُذُنَيْن، ومال المشركون إلى رحالهم، وفي الأعضاء أَشْلَاءٌ وأرواح تُحْتَضَر.

وكان هذا كلُّه يوم سبتٍ، ووَضَعتِ الحَرْب أَوْزَارَها، حصادُها سبعون شهيداً من المسلمين، واثنان وعشرون هالكاً من الكافرين؛ «قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ».

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فأُحُدُ نصرٌ لا هزيمة، معركةٌ فَيَّاضة بالعِبَر والعظات، أحداثها صفحاتٌ ناصعةٌ يتوارثها الأجيال، أَنزل اللَّه فيها ستِّين آيةً في كِتابِه المبين، كان لها أثرٌ عميقٌ في نفسِ النَّبيِّ ﷺ، ظلَّ يذكره إلى قُبيل وفاته.

إنَّ هذا الدِّينَ وَصَل إلينا بعد كِفَاحٍ مَريرٍ من الصَّحَابة والأسلاف، ذاقوا فيه مَرَارَة المصائب والمِحَن، أنسُ بنُ النَّضرِ ﵁ يُصابُ في هذه الغزوة ببضعٍ وثمانين جراحةٍ، ثمَّ مثَّل به الأعداء، فلم يَعرفْه أحدٌ سوى أختِه عرفتْه ببنانه، وفي سعدِ بنِ الرَّبيع ﵁ سبعون طعنةً، فماذا قَدَّمنا لديننا؟!

وللصَّحَابة الكرام الصُّحْبَةُ والسَّبْقُ والإِقْدَام، تَقطَّعتْ منهم الأشلاء، وتَمزَّقتِ الأجساد، وترمَّلتِ النِّسَاء، قدَّموا أرواحَهم؛ فداءً لهذا الدِّين حتى وَصل إلينا كاملاً متمَّماً، فأَقْدِرْ لهم قدْرَهم، واشكُر لهم سعيَهم، وترضَّ عنهم، فقد أحبَّهم ربُّهم، رضي اللَّه عنهم وأرضاهم.

وبالمعاصي تَدورُ الدَّوائِر، ففاضت أرواحٌ في تلك الغزوة بسبب خطيئةٍ، وخَرج آدمُ من الجَنَّة بمعصيةٍ، و«دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ»؛

فالْزَمِ الطَّاعةَ والعبوديَّة؛ يؤخذْ بيدك في المضايق، وتُفْرَجْ لك الشَّدائد، ولا تَجعلْ أعمالَك جُنْداً عليك، يَزْدَادُ بها عدوُّك قوَّةً عليك.

في هذه المعركة قاتلَ سَمُرَةُ ورَافعٌ رضي الله عنهما، وهما ابنا خمس عشرة سَنَة، على دماء فتيانٍ من الصَّحَابة علا هذا الدِّين، لا لَهْوَ في الأوقات، ولا مَرَحَ في الشَّهوات، سعى الآباء لإصلاحهم، فجَنوا ثمرةَ صلاحِهم، فماذا قدَّم شبابُنا لدينهم؟! وما هي هِمَّتهم وما هَمُّهم؟ وما تطلعاتهم وبِمَ تعلقهم؟

وتجنَّبْ صُحْبةَ السُّوء؛ فهم يَخذُلونك في أحوج ما تكون إليهم، همْ في النَّعْمَاء لك أصدقاءُ، ولكنَّهم في الشَّدائد أعداءٌ، وقد انخَزل أهلُ النِّفاق عن الصَّحَابة في أحلَك المواقف، والزَمِ الصُّحْبَة الصَّالحة؛ فهم حافظون لك في الغيب والشَّهَادة، لنفْعك يسعون، وعنك يذودون.

وللحقِّ جولةٌ، وللباطلِ صولةٌ، والعاقبةُ للتَّقوى، فلا تيأسْ من إصلاح المجتمع، ولا تقنطْ من هدايتِه، فَقد صَبَر النَّبيُّ ﷺ على الأَذَى والجِرَاح حتى دَخل النَّاس أفواجاً في دين اللَّه.

إنَّ عواقبَ الأمورِ كلِّها بيد اللَّه، فامضِ في الدَّعْوَة، وداوِمْ على الدُّعاء، وهدايةُ البشر بِيَدِ خالقِ البشر، أبو سفيان في أُحُدَ يقود المشركين وشعاره: «اعْلُ هُبَلُ»، وفي فتح مكَّة يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ووَحْشِيٌّ يَقتل حمزةَ رضي الله عنه، ثم يُسلم، ويَقتل مُدَّعي النُّبوة - مُسَيلَمة الكذَّاب -؛ فاحذرْ على نفْسِك التَّقلّبَ، فـ«**القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ اللَّهِ؛ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»، واسأله دَوْماً دوام الثَّبات.

والعبدُ وإنِ استَغرقَ في العصيان؛ فالتَّوبةُ تَحطُّ الأوزارَ وإن بَلغت العَنَان؛ خالدُ بنُ الوليد يقودُ خَيَّالة الكُفر، وقُتِلَ على يديه فضلاءُ من الصَّحَابة، وبالتَّوبة تُغفرُ الزَّلَّات، يقول النَّبيُّ ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟!**» (رواه مسلم)، فأنقذْ نفْسَك مِن وَحَل الأوزار، وأقبلْ على ربِّك تائباً من الآثام، فالحسناتُ يُذهِبن السَّيِّئات، ولا تَسْتَنْكِف عن التَّمسُّك بهذا الدِّين، فحولَه سالتِ الدِّماء.

والمرءُ قد يُبتلى بذوي القُرْبَى والأرحام؛ فاصبرْ على ما تلاقيه منهم؛ فبعضُ أقاربِ النَّبيِّ ﷺ تَركوا أوطانَهم وأموالَهم وقدِموا إلى المدينة؛ لقتلِ النَّبيِّ ﷺ، وفَعلوا ما لم يَفعلْه غالبُ الكُفَّار - مِنْ تمثيلِهم بالقتلى - مع أنَّهم بَنُو عمِّه، وفي الفتح عَفَا عنهم وصَفح، وقال: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»؛ فاتَّخِذِ النَّبيَّ ﷺ قدوةً لك في الحِلْم والعفو، وصِلْ رَحِمَك، وغُضَّ الطَّرفَ عمَّا يَسُوؤُكَ منهم.

وفي الفُرْقَةِ والنِّزاعِ تُبعْثرُ الجهود، وفي الأُلفةِ والاتِّفاقِ صفاءُ القلوب، فاحذرْ من تفرُّقِ الكلمة، والاختلافِ في الرَّأي فهما الهزيمة: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ولا تأمنِ المعصيةَ من جانبِ المَسَرَّة، وحلاوةُ الفرحِ قد تَختلطُ بمرارة الحزن، والصَّحَابةُ فَرحوا بالغَنِيمَة، ونَزل الرُّماة؛ لجمعها؛ فَلَحِقَتْهم الهزيمة، والدُّنيا لا تدوم على حالٍ؛ فكُنْ صَابراً على لأوائها شاكراً للَّه في نعمائها.

والأنبياء عبيدٌ مخلوقون؛ يعتريهم ما يعتري البشر، لا يُرْفَعون فوقَ منزلةِ العُبوديَّة، ولا يُحَطُّ من شأنهم، والنَّبيُّ ﷺ ظاهرَ بيْن دِرْعَيْن، ولَبِسَ لَأْمَةَ الحرب، وكافح معه الصَّحَابة، وقاتلَ معه جبريلُ وميكائيلُ أشدَّ القِتَال، ومع هذا شُجَّ في وجهه، وكُسِرتْ رَبَاعِيَتُه، والأمرُ للَّهِ مِنْ قبْلُ ومِنْ بَعْد، وهو سبحانه وحدَه النَّافعُ الضَّارّ، ولو كان يَملكُ عليه الصلاة والسلام لنفْسه شيئاً؛ ما سال الدَّمُ منه، فاصرفْ عبادتَك للجبَّار، وتذلَّلْ بيْن يدي القهَّار؛ تتحقَّقْ لك بإذن اللَّه المسارُّ.

وأُحُدٌ لا يُتَبَرَّكُ بتُرَابِه، ولا تُلْتَقطُ حَصَيَاتُه، فعنده قُتل سبعون، وبجانبه جُرِحَ الرَّسُول ﷺ، ولو كانت تُغْنِي شيئاً؛ لَمَا حلَّ حولَها المصاب؛ ففوِّضْ أمرَك إلى اللَّه، والْجَأْ إليه في كشف المُلِمَّات.

ومِنْ مروءاتِ الأفعالِ: العِرفانُ لِمَنْ خَدم الدِّين، ومِنْ جميلِ الخِلالِ: الوفاءُ للأصحاب، ودماءُ شهداءِ أُحدٍ بقيت في نفْس الرَّسُولِ ﷺ إلى السَّنَة التي مات فيها؛ فصلَّى على قتلى أُحُدٍ بعد ثماني سنين كالمُوَدِّع لهم، فأَجِلَّ نُبلاءَ هذا الدِّين، واحفظْ وُدَّ خِلَّانِك، وارعَ حقَّ صحبتِهم، واحفظْ سرَّهم، يقول أبو سفيان رحمه الله: «مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً؛ كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً».

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّه على إحسانِه، والشُّكرُ له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّه وسلم عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فالجَنَّةُ لا تُنَالُ إلَّا على جِسرٍ من المَشقَّة والتَّعب، والطَّريق طويلٌ شاقٌّ حافلٌ بالمتاعب والعقبات، وفي الامتحان بالغلبة والهزيمة ذُلٌّ وخُضوعٌ يوجبُ العِزَّ والنَّصْر، وهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه؛ كَسَرَه أولاً، ومن ثَمَّ تكونُ رفعتُه على قَدْرِ خضوعِه وانكسارِه للَّه.

واللَّهُ هَيَّأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته، لم تبلغْها أعمالُهم، ولم يكونوا بَالِغِيهَا إلَّا بالبلاء والمِحَن، فقيَّضَ لهم الأسباب الَّتي توصلُهم إليها - من ابتلائه وامتحانه -؛ لتمحيص السَّرائر وكشْف الخَبَايا، فارْضَ بالمَحْتُوم، وسلِّمْ لأمرِ اللَّه المقدور، يقول بعض السَّلف: «لَوْلَا المَصَائِبُ لَوَرَدْنَا الآخِرَةَ مَفَالِيسَ».

والأيَّامُ في الحياة دُوَلٌ؛ لا تبقى على حالٍ، نصرٌ وهزيمةٌ، عزٌّ وذِلَّةٌ، سقمٌ وصحَّةٌ، فقرٌ وغِنًى، فاغتنمْ فيها نَعْمَاءَك ما تدَّخِرُه لِأُخْرَاك، ومَنْ آثر دنياه أضرَّ بدينه ودنياه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

غَزْوَةُ الأَحْزَابِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه نورُ البصائر، وبها تَحْيَا القلوبُ والضَّمائر.

أيُّها المسلمون:

اصطفى اللَّهُ لعباده ديناً قويماً، ووعدَ بإظهاره، ونَصْرِ عباده، وزُهوقِ الباطل وأعوانِه، وسيرةُ النَّبيِّ ﷺ زاخرةٌ بالحِكَم والعِظَات، مليئةٌ بالمِحَن والابتلاءات، ولا مناصَ من عِلم سيرة النَّبيِّ ﷺ في شدائدِه، قال زَيْنُ العَابِدِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ».

واللَّهُ قصَّ في كِتابه غزوةً سُمِّيت سورةٌ باسمِها، وأمرَ المؤمنين أن

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع عشَر من شهر رجب، سنة أربع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

يتذكَّروا نعمةَ اللَّه عليهم فيها في كلِّ حينٍ؛ قال سبحانه في مطلعِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكان النَّبيُّ ﷺ في كلِّ سفرٍ يتذكَّرُ نعمةَ اللَّه في تلك الغزوة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَفَلَ - أَيْ: رَجَعَ - مِنَ الغَزْوِ أَوِ الحَجِّ أَوِ العُمْرَةِ يَبْدَأُ فَيُكَبِّرُ ثَلَاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ يَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» (متفق عليه)، وجَعل النَّبيُّ ﷺ تَذَكُّرَ هذه النِّعمة سُنَّةً لكلِّ حاجٍّ أو مُعتمرٍ؛ كان عليه الصلاة والسلام إذا رقِيَ الصَّفا قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» (رواه مسلم).

وكانت غزوةً عصيبةً مُخيفةً في ليالٍ شاتيةٍ من السَّنَة الخامسة من الهجرة، فقد حرَّضَ يهودُ بني النَّضيرِ في خيبرَ كفارَ قريشٍ في مكَّة على قتال النَّبيِّ ﷺ، ووعدُوهم النَّصرَ والإعانة، فتَحزَّبُوا وانضمَّ إليهم غَطَفَان من المشرق، فلمَّا سَمِع النَّبيُّ ﷺ بمسيرِهم أمرَ المُسلمين بحفْرِ خَندقٍ حولَ المدينة، فامتثَلُوا أَمرَه وحفَروا، ونقَلُوا التُّرابَ على ظهورهم، وهم في حال نَصَبٍ وبَرْدٍ وجُوعٍ.

ولَمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ حالَهم دعا للمُهاجِرين والأنصارِ بالبركة والمغفرة والصَّلاح، وكان عليه الصلاة والسلام يَنقلُ معهم التُّرابَ؛ قال البراءُ رضي الله عنه: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلْدَةَ

بَطْنِهِ» (رواه البخاري)، وإذا عرَضَت للصَّحابة صخرةٌ شديدةٌ كان النَّبيُّ ﷺ يَنزل الخَنْدَقَ ويأخذ المِعْولَ فيضربُها، وأتمُّوا حفرَه في نصفِ شهرٍ.

وأصاب النَّاسَ جوعٌ شديدٌ؛ وصفَ جابرٌ رضي الله عنه تلك الحالَ بقولِه: «عَرَضَتْ كُدْيَةٌ - أَيْ: صَخْرَةٌ - شَدِيدَةٌ، فَجَاؤُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: **أَنَا نَازِلٌ**، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ - مِنَ الجُوعِ، قَالَ -: وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقاً» (رواه البخاري)، وذهبَ جابرٌ رضي الله عنه إلى امرأتِه فقال: «رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئاً مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ - أَيْ: لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَصْبرَ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ مِنْ جُوعِ النَّبيِّ ﷺ -؛ فَذَبَحَ جَابِرٌ شَاةً، وَطَحَنَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ، وَدَعَا النَّبيَّ ﷺ لِيَأْكُلَ، فَأَتَى النَّبيُّ ﷺ وَبَصَقَ فِي البُرْمَةِ - أَيْ: القِدْرِ الَّذِي فِيهِ اللَّحْمُ -، وَبَصَقَ فِي العَجِينِ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فِي الطَّعَامِ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَلْفُ رَجُلٍ، قَالَ الرَّاوِي: فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ! لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ» (رواه البخاري)، وكان النَّبيُّ ﷺ رَؤُوفاً رحيماً بأصحابِه؛ «كَانَ يَكْسِرُ لَهُمُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا» (رواه البخاري).

وأقبلَتِ الأحزابُ من يهودٍ والمُشركين مِنْ كلِّ صَوْبٍ وحَدَبٍ إلى المدينة، في عشرة آلاف مُقاتلٍ؛ قال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرجَ رسولُ اللَّه ﷺ في ثلاثةِ آلافٍ من المسلِمين، والخندقُ بيْنَهم وبيْنَ المشركين، وحاصَروا المسلمين شهراً،

ولم يكن بينهم قتالٌ وإنَّما تراشُقٌ بالنِّبال، وقُتِل في هذا الرَّمْيِ ثلاثةٌ من المشركين، واستُشهِد ستَّةٌ من المسلمين، منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ومع حِصارِ الأحزابِ للمدينة استعانَ كُفَّارُ قريشٍ بيَهُودِ بَنِي قُرَيْظَة - وكانوا في جنوبِ المدينة الشَّرقيِّ -؛ لإعانتِهم على قَتْلِ ابنِ عمِّهم نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، وهذا من إدبار العَقْل: أن يَجمعَ الرَّجلُ الأباعِدَ لقتالِ عَشيرتِه وقومِه.

فنقَضَ يهودُ بني قُريظةَ العهدَ مع رسول اللَّهِ ﷺ، وتحالفوا مع الأحزابِ على حربِه عليه الصلاة والسلام؛ فضاقَ الخَطْبُ، واشتدَّ الحالُ، وظَهر الخوفُ مع الجُوع والبَرْد؛ قال سبحانه عن وصْفِهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، وعَظُم البلاء، وظهرَ النِّفاق، وساءَت الظُّنون؛ قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، قال حُذيفةُ رضي الله عنه: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؛ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ؟** قَالَ: فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؛ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ؟** قَالَ: فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؛ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ؟** قَالَ: فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ - مِنْ أَجْلِ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَالبَرْدِ -، فَقَالَ: **قُمْ يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ**، فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ» (رواه مسلم).

وانقطعَتِ الأسبابُ الظَّاهرةُ للنَّصر، فلا عدَدَ ولا عُدَّة، والعدوُّ بقدر المُسلِمين مرَّاتٍ مُتعدِّدةٍ، ومُحيطٌ بهم من كلِّ جانبٍ، قال شيخُ

الإسلام رحمه الله: «تَحَزَّبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَجَاؤُوا بِمَجْمُوعِهِمْ إِلَى المَدِينَةِ؛ لِيَسْتَأْصِلُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ عَدُوّاً شَدِيدَ العَدَاوَةِ، لَوْ تَمَكَّنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَانَتْ نِكَايَتُهُ فِيهِمْ أَعْظَمَ النِّكَايَاتِ»، ورسولُ اللَّهِ ﷺ يُصبِّرُ الصَّحابةَ، ويُبشِّرُهم، ويعِدُهم بنصر اللَّه؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾، فثبَتَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم - والثَّباتُ نصرٌ -، وتوكَّلُوا على اللَّه، وأَحسَنوا الظَّنَّ به، قال شيخُ الإسلام رحمه الله: «غَزْوَةُ الأَحْزَابِ نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ فِيهَا جُنْدَهُ بِغَيْرِ قِتَالٍ؛ بَلْ بِثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ».

ولجأَ النَّبيُّ ﷺ إلى ربِّه، وتَضرَّعَ إليه مُتوسِّلاً بعلُوِّه تعالى وقُدرتِه المُتضمِّنة للنَّصر، قال عبدُ اللَّه بنُ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما: «دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الأَحْزَابِ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**» (متفق عليه).

وما انفرَجَتِ الكُروبُ إلَّا بالتَّوحِيد، وكان النَّبيُّ ﷺ يُكثِرُ حالَ حِصارِهم من كلمة التَّوحيد؛ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**» (رواه البخاري).

فألقَى اللَّهُ الرُّعبَ في قلوبِ المُشرِكين، وأَنزلَ نصْرَه، وخالفَ بين كلمة قُريشٍ واليهُودِ بتخذيلِ نُعيم بنِ مسعودٍ رضي الله عنه بينهم، وعادُوا حانِقين على بعضِهم، مُضمِرين الكيدَ بينهم، بعد أن كانوا مُتحزِّبين ضدَّ

المُسلمين، ثمَّ عذَّبَهمُ اللَّه بريحٍ شديدةٍ بارِدةٍ، فلم يَقِرَّ لهم قرارٌ، ولم تُوقَد لهم نارٌ، وأنزلَ اللَّهُ ملائكةً - فيهم جبريلُ عليه السلام - أفزَعَتْهم؛ قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فتفرَّقُوا عن المدينة وهُمْ بِشرٍّ خَيْبةٍ وخُسرانٍ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**» (رواه البخاري)، فكانت آخرَ غزوةٍ يُقبِلُ فيها المُشرِكون على ديار المُسلِمين.

وأَنزلَ اللَّه في شأنِ هذه الغزوة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ، وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ، وَانْتِظَارِهِ الفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ».

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

أبَى اللَّهُ إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، إنْ حُورِبَ دينُه اشتدَّ، وإنْ تُرِك امتدَّ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والشَّدائدُ تُظهِرُ معادِنَ الرجالِ وصفاتِ الأفذاذ، وما وَصلَ مَن وصلَ إلى الغايات المحمودة والنِّهايات الفاضِلة إلَّا على جِسرِ المِحنَة والابتِلاء، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فَاللَّهُ يَجْعَلُ هَذِهِ المِنَّةَ الجَسِيمَةَ مَبْدأً لِكُلِّ مِنْحَةٍ كَرِيمَةٍ، وَأَسَاساً لِإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ القَوِيمَةِ».

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

إنْ تأخَّر انتصارُ المسلمين فاللَّهُ يقول عن الكُفَّار: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾، وإذا لاحَ النَّصرُ للمؤمنين فعليهم أن يتذكَّروا سابغَ فضلِ اللَّه وإحسانه في صرفِ الأعداء عنهم وهزيمةِ عدوِّهم، وأن يُكثِروا مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وتسبيحِه واستِغفاره، قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۞ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

غَزْوَةُ تَبُوك[(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهده اللَّه فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

سِيرةُ النَّبيِّ ﷺ زاخرةٌ بالحِكَم والأحكام، زكيَّةٌ عَطِرَةٌ على مدار الأيام، عاش فيها مِحَناً وشدائد رَسَمَتْ للأُمَّة طريقَها وما يهديها إلى مواطن عِزِّها، وفي زمنٍ جدبٍ ومَحْلٍ في الدِّيار، وحينَ أَوَانِ أَطَايِب الثِّمَار وإقبال القِطَاف؛ أُمر عليه الصلاة والسلام بالمَسِير إلى الرُّوم، في غزوةٍ عظيمةٍ شاقَّةٍ هي آخر غزوةٍ غزاها النَّبيُّ ﷺ بنفْسه، سمَّاها القرآن: ساعةَ العسرة.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، السادس عشر من شهر ربيع الأوَّل، سنة سبع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

ظهرتْ فيها مخبَّآتُ النُّفوس، وطوايا النِّفاق، وثمراتُ الإيمان، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا هَمَّ بغزاة وَرَّى بغيرها إلَّا مَسيرَهُ إلى تبوك، جَلَّى للمسلمين أَمْرَها؛ لِعُسْرِ الشُّقَّة، وطولِ المَشَقَّة، وبأْسِ العَدُوِّ، وشدَّةِ الزَّمان، فجاءت المعاذير؛ فقال المنافقون: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾، قال اللَّه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾، واستأذن الجَدُّ بنُ قَيْسٍ في البقاء - وهو غنيٌّ جَلْدٌ قويٌّ - وقال للنَّبيِّ ﷺ: «لَا تَفْتِنِّي»؛ فقال اللَّه سبحانه: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وجاء معذِّرون فاعتَذروا إلى النَّبيِّ ﷺ فلم يَعْذُرْهُم اللَّه: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وتَخلَّف نفرٌ من المسلمين من غيرِ شكٍّ ولا ارتيابٍ، وكانوا نَفَرَ صِدقٍ لا يُتَّهَمُونَ في إسلامهم، منهم كَعْبُ بنُ مَالِك: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

فاجتمعتْ جموعٌ؛ تلبيةً لأمرِ رسول اللَّه ﷺ بالنَّفير في زمنِ مَحْلٍ، وقلَّة يدٍ، فقال ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**» (رواه البخاري)، فتسابقَ الصَّادقون إليها؛ فأنفق أبو بكر رضي الله عنه جميعَ مالِه، وجهَّزَ ذو النُّورَيْن عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه ثلاثَ مئةِ بعيرٍ بأَحْلَاسِهَا وأَقْتَابِهَا وعدَّتِها، حتى لم يَفْقدوا منها عقالاً، ولا خطاماً، وأتى بدنانير في ثوبه فَصَبَّها في حِجر النَّبيِّ ﷺ، فجَعل النَّبيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بيده ويقول: «**مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**» (رواه أحمد).

وقدَّم الفقراءُ جهْدَهم من النَّفقة على استحياءٍ؛ فَسَخِرَ منهم

المنافقون: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وأتى رجالٌ من المسلمين فلم تَحْمِلْهُم النَّفقة، فبكوا بدموعٍ صادقةٍ على عدم صُحْبَةِ النَّبيِّ ﷺ في الغَزو؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

فسار الجيشُ وهم ثلاثون ألْف رجُلٍ مُوَدِّعِين الماءَ العذبَ، والظِّل الوافر، إلى مسيرٍ في صحراءَ أرضٍ لَاهِبَةٍ، ووَهَجِ شمسٍ لَافِحَةٍ، بِزَاد يسيرٍ، وظَهْرٍ قليلٍ، وخَرج معهم رأسُ النِّفاق عبد اللَّه بن أُبي بن سلول، وفي أوَّل المَسِيرِ أَثْقَلَه النِّفاق كَمَا أَثْقَله في غزوة أُحُدٍ، فرَجَعَ وَمَنْ كان معه من أهل الرَّيْبِ في أثناء الطَّريق، وتَخلَّفوا عن الغزو؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

فمضى الصَّحَابةُ مع النَّبيِّ ﷺ بِصِدْقٍ ويقينٍ شهراً كاملاً، في طريقٍ طويلٍ، وحرٍّ شديدٍ، نالَهم الجَهْدُ في مَسِيرِهِم، والمَشقَّةُ في سفَرهم، فكان الرَّجلان والثَّلاثة يَتَعَاقَبُونَ على البَعِيرِ الواحد، وأَصَاب القومَ عطشٌ شديدٌ، قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ مِنَ العَطَشِ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَذْهَبُ فَيَلْتَمِسُ الرَّحْلَ، فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْتَصِرُ فَرْثَهُ - أَيْ: كَرْشَهُ - فَيَشْرَبُهُ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ».

وأبو ذرٍّ ﵁ انتَظر بعيره، فلمَّا أَبْطَأَ عليه أَخذ متاعه فجَعله على ظهره، وسار وحده على قدميه، يَتبعُ الرَّسُولَ ﷺ في أَشْبَاحِ اللَّيل ووَهَجِ النَّهار ووَحْشَة الفَلَاة، فلما رآه النَّبيُّ ﷺ قال: «**رَحِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ! يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ**» (رواه الحاكم).

ومرَّ النَّبيُّ ﷺ في ذهابه على مساكنِ ثمودَ - قوم صالح -، وقال: «**لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**» (رواه البخاري).

وفي لَأْوَاء المَسِيرِ سَخِر المنافقون بِصَحَابَة رسول اللَّه؛ فأنزل اللَّه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾، ولمَّا قَدِمَ تبوكَ؛ قال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه: «**سَتَهُبُّ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ**، فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّءٍ» (متفق عليه).

وبعد مَسيرِ شهرٍ عسيرٍ من المدينة أقام بتبوكَ عشرين ليلةً، ولم يُقْدِمْ عليه الرُّوم، ولم يَلْقَ غزواً، فَصَالَح مَنْ صَالَح منهم هناك، فقَفَلَ راجعاً في رمضان، ولمَّا قَارَب المدينةَ كان المنافقون قد بَنَوْا مسجداً؛ ضِرَاراً وكُفراً وتَفْرِيقاً بين المؤمنين، فطَلبوا من النَّبيِّ ﷺ أن يصلِّيَ فيه؛ لِيُعَمَّى مَكْرُهم، فنزَل الوحيُ من السَّماء بِفضحِ أمرِهم قبْلَ وصولِه إليه، فأَقبلوا إليه بالأَيْمَان الكاذبة يُخْفُون إفسادَهُم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فأمرَ النَّبيُّ ﷺ بهَدْمِه وإِحْرَاقِه.

ولَمَّا دَنَا مِنْ طَيْبَة قال: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟ قَالَ: **وَهُمْ بِالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**» (متفق عليه).

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فالدِّينُ لم يصل إلينا إلَّا بعد كِفَاحٍ مَرِيرٍ، ومشاقَّ متواليةٍ، سار النَّبيُّ ﷺ في تلك الغزوةِ بنفْسِه وقد جاوز السِّتِّين عاماً من عُمُره، لاقى فيها الشَّدائدَ؛ إشفاقاً على العباد، ورأفةً بهم؛ لِيَدْخُلَ النَّاسُ في دين اللَّه، وحقيقٌ بأتباعه تبليغُ رسالةِ اللَّه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والصَّحَابةُ رضي الله عنهم لهم قَدَمُ صِدقٍ وسَبْقٍ وفضْلٍ في نشْر الدِّين؛ طَوَوُا الأرض، ودَمِيَتْ أقدامُهُم من حرِّ حجارتِهَا، وتَفَتَّتَ أكبادُهم من عَطَش فَلَاتِها، مع كَرْب المَشقَّة وعُسْر الشُّقَّة، لَاقَوا جوعاً وخوفاً وجُهداً، فصَبروا على كلِّ لَأْوَاءٍ من أجل هذا الدِّين، وواجبٌ على مَنْ بعدَهم: معرفةُ حقِّهم بالتَّوقيرِ والتَّبجيلِ والمحبَّةِ والتَّرضِّي عنهم، فهم خيرُ جيلٍ في القرون.

والمنافقون أداة كيدٍ في الأمَّة يُرْجِفُون فيها ويُفسدون، إنْ أُمِروا بالطَّاعة أَحْجَمُوا: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ﴾، وإنْ رَأَوْا مشقَّةً في الخير اعتذروا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ﴾، وإنْ أَصْلَح النَّاسُ أفسدوا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وإنْ تسابق الصَّادقون إلى الخيرات منهم سَخِرُوا:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وإنْ سار المخلِصُون أَرْجَفوا، فقد قالوا للصَّحابة: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾، لا يدعون سبيلاً للتَّخذيل إلَّا سلكوه، يتربصون بالأُمَّة في الخفاء، ساروا مع النَّبيِّ ﷺ في غزوة أُحُدٍ وتَبُوك، وفي المَسِير خذلوا المسلمين ورجعوا، وهم في غَمْزٍ ولَمْزٍ دائمٍ بالمؤمنين، ويجبُ على المُسلِم الحَذَرُ من النِّفاق وأسبابه وخصاله، وليكن صالحاً في باطنه وظاهره.

واللَّهُ يَعلمُ ما يَخفى على البشر من فساد القلوب، فالجَدُّ بن قَيْسٍ قال للنَّبيِّ ﷺ: «لَا تَفْتِنِّي»؛ فأنزل اللَّه آياتٍ في فَضْحه؛ ففَتِّشْ في نفْسِك قبْل الممات، فلعلَّك قد أَصبتَ لَمَماً أو نِفاقاً؛ فالقلوبُ خوافي، ولا تَفرحْ بثناء النَّاسِ عليكَ مع فسادِ الباطنِ أو كثرة العصيان.

وللمعصيةِ شُؤْمٌ على الأبدان والبِقاع، فقومُ ثمودَ عَتَوا وعَصَوا ربَّهم؛ فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَخَمَدُوا في ديارهم، ونُهِيَ عن دخولِ مساكنهم بعد رحيلهم، فلا تأمنْ مَكْرَ اللَّه بالعقوبة من عصيانٍ أو حلول مكروهٍ بسبب خطيئةٍ.

وعلى العبد حِفْظُ لسانِه من السُّخْرِيَةِ بالدِّينِ أو أهلِه، فقد يَخرجُ المرءُ من الدِّين وهو لا يَشْعُر: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۞ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ ومَنْ عظَّم الدِّين عَظُم، ومَن سَخِر به ذَلَّ.

والعَاصِي تَتَنَكَّرُ له الأرضُ والأبدان، تخلَّف كعبُ بنُ مَالكٍ رضي الله عنه عن المَسِير مع النَّبيِّ ﷺ، فقال: «تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الأَرْضُ؛ فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ»، قال

ابن القيِّم ﵀: «هَذَا التَّنَكُّرُ يَجِدُهُ المُذْنِبُ العَاصِي بِحَسَبِ جُرْمِهِ، حَتَّى فِي خُلُقِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ وَدَابَّتِهِ، وَيَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ أَيْضاً فَتَتَنَكَّرُ لَهُ نَفْسُهُ حَتَّى مَا كَأَنَّهُ هُوَ، وَلَا كَأَنَّ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَمَنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِ بِالَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ، وَهَذَا سِرٌّ مِنَ اللَّهِ لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مَنْ هُوَ مَيِّتُ القَلْبِ».

وبالصِّدقِ ينجو العبدُ من المهالك؛ فأنجى اللَّهُ الثَّلاثةَ الذين خُلِّفُوا بصدقهم، وأهلَك غيرَهم من المُخَلَّفين بِكَذِبِهم، قال كعبُ بنُ مالك ﵁: «إِنَّمَا نَجَّانِي اللَّهُ بِالصِّدْقِ»، والصِّدقُ مِنْ أشقِّ العبادات على النُّفوس، وهو دليلُ الإيمان وحِلْيَتُه، ومَنْ أَجلِّ نعم اللَّهِ على عبدِه، قال ابن القيِّم ﵀: «وَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَعْدَ الإِسْلَام بِنَعْمَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الصِّدْقِ - الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الإِسْلَامِ وَحَيَاتُهُ -، وَلَا ابْتَلَاهُ بِبَلِيَّةٍ أَعْظَمَ مِنَ الكَذِبِ - الَّذِي هُوَ مَرَضُ الإِسْلَامِ وَفَسَادُهُ -».

وخيرُ أيَّامِ العبدِ على الإطلاق وأفضلُها: يومُ توبتِه إلى اللَّه وقَبولِ اللَّه توبتَه؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**» (متفق عليه)؛ فبَادِرْ بالتَّوبة إلى اللَّه؛ تَكُنْ أيَّامك أيَّام خيرٍ وسعادة.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

العملُ وإن كان فاضلاً يَنْقَلِبُ مَنْهيّاً عنه إِنْ غَيَّرتْهُ النِّيَّة، كما قَلَبَتْ نِيَّةُ أصحابِ مسجدِ الضِّرَارِ عملَهم الحَسَنَ في ظاهرِه إلى الفساد، وأدَّتْ إلى تدميرِ بنائِهم وإحراقِ مسجدِهم.

والعملُ المَبنيُّ على الإخلاصِ والمُتَابعةِ هو العملُ المُؤَسَّسُ على التَّقوى، الموصلُ عامِلَه إلى جنَّات النَّعيم.

والعملُ المَبْنيُّ على سوء القَصد والمَكْر عملٌ مؤسَّسٌ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ يَنْهَارُ بصاحبه في نار جهنَّم.

وعلى المسلِم أن تكونَ نيَّتُه في الخير قائمةً، فمَنْ نَوى طاعةً ثم عُذِر حَصَل له ثواب نيَّته؛ «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ رِجَالاً مَا قَطَعْتُمْ وَادِياً وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقاً إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ**» (رواه مسلم).

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الباب السَّابع عشر

السِّـــيَرُ

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأوَّل : الصَّحَابة.

الفصل الثَّاني : نِساءٌ مُؤْمِنَاتٌ.

الفصل الثَّالث : الأُمَم.

الفصل الرَّابع : الأَعْلَام.

الفصل الأوَّل

الصَّحَابَـةُ

رِجَالٌ لَا يَكُونُ أَحَدٌ مِثْلُهُمْ: الصَّحَابَةُ[(١)]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

اصطفى اللَّهُ أَصْحابَ مُحمَّدٍ ﷺ، واختارَهُم لصُحْبةِ أفضلِ رُسُلِه، حَازُوا من السَّوابق والفضائل والمَنَاقِب ما سَبقوا به مَنْ قبْلهم ومَنْ بَعدَهم، أثنى اللَّهُ عليهم في الكُتب المُنزَّلة السَّابقة؛ فقال في التَّوراة: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾، ومدَحهم في الإنجيل بقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾، ووصَفَهُم في القرآن العظيم فقال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث والعشرين من شهر ذي القَعدة، سنة تسع وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وكان السَّلفُ يُعلِّمُونَ أولادَهُم حُبَّ الصَّحَابةِ وسيرتَهُم؛ قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانُوا يُعَلِّمُونَنَا حُبَّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، كَمَا يُعَلِّمُونَنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ»، هم صَفوةُ النَّاس في الأُمَم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**» (متفق عليه)، وهم صَفوةُ قُرُونِ هذه الأُمَّة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي**» (متفق عليه)، فهُمْ خِيارٌ من خِيارٍ، مَنَّ اللَّه عليهم بالصُّحْبَة؛ فعَلَا قَدْرُهم، قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَضِيلَةُ الصُّحْبَةِ - وَلَوْ لَحْظَةً - لَا يُوَازِيهَا عَمَلٌ ولَا تُنَالُ دَرَجَاتُهَا بِشَيْءٍ، ولَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ فِي السَّبْقِ إِلَى الفَضَائِلِ»، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَهُمُ الفَضْلُ وَالسَّبْقُ والكَمَالُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ».

امتَدحَهُمُ اللَّهُ بالإخلاصِ في العَمَلِ، وأنَّهم لا يَبْتَغُون سوى رضوانِ اللَّه عليهم؛ قال سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، لو أَنفق أَحَدٌ غيرُهم «**مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»؛ وذلكَ لِصُحْبَتِهم رسولَ اللَّهِ ﷺ.

ولِصِدْقِهِم في تَوحِيدِهم لله، أَلْزَمَهُمُ اللَّهُ كلمةَ التَّقوى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وكان تَوحِيدُهم لربِّهم ظاهراً في أعمالهم، لمَّا مَاتَ النبيُّ ﷺ قال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، ولَمَّا قَبَّل عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحَجَرَ الأَسْوَدَ قال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ؛ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» (متفق عليه)، قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ أَعْظَمُ مِنَ الجِبَالِ».

في لَيْلِهِم تلاوةٌ وتَهَجُّدٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالقُرْآنِ بِاللَّيْلِ**» (رواه مسلم)، يقومون للَّه ليلاً طويلاً؛ قال سبحانه عنهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، وَصْفُهم: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، نِيَّاتُهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ولِكَثْرَةِ عبادتِهم ظَهرتْ أماراتُ ذلك على وجوههم؛ قال ﷻ: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، قلوبُهم للَّه لَيِّنةٌ، وَعَظَهم النبيُّ ﷺ؛ فغضُّوا رُؤُوسَهُم ولهم خَنِينٌ من البكاء، وأبو بكرٍ رضي الله عنه لا يَملِكُ عَيْنَيْهِ إذا قَرَأَ القرآن، وعمرُ رضي الله عنه صلَّى بالنَّاس فسُمِعَ أَنِينُهُ من وراء الصُّفوفِ، وعائشةُ رضي الله عنها تَقْرَأُ قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾؛ فَيَبْتَلَّ خِمَارُهَا من الدَّمْع.

سبَّاقُون لعمل الصَّالحات؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه في يومٍ واحدٍ تَبعَ جنازةً وأَطْعَمَ مِسْكيناً وعَادَ مَريضاً وأَصْبَحَ صَائِماً، وأبو هريرة رضي الله عنه يَقْتَسِمُ اللَّيلَ صلاةً هو وامرأتُه وخَادِمُه أثلاثاً.

مُمْتَثِلُونَ لأوامرِ اللَّه؛ نَزَلَتْ آيةُ الحِجاب فشقَّ النِّساءُ أُزُرَهنَّ فَاخْتَمَرْنَ بها (رواه البخاري)، ولَمَّا حُرِّم الخَمْرُ أَرَاقُوهَا حتَّى جَرَتْ في طُرُقَاتِ المدينة، وقال عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه: «هَاجَرْتُ هِجْرَتَيْنِ، وَنِلْتُ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَايَعْتُهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ» (رواه البخاري).

لَاقُوا من الشَّدائد أَشدَّها مِن أجلِ الدِّين؛ ففي غزوة الأحزاب زَاغتِ الأبصارُ، وبَلَغتِ القلوبُ الحَنَاجرَ، وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً، وفي

حُنَينٍ ضاقتْ عليهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، والزُّبيرُ بن العَوَّام ﵁ ما مِنْ موضعٍ في جسده إلَّا وقد جُرِح في سبيل اللَّه، قال شيخ الإسلام ﵀: «وَكُلُّ مُؤْمِنٍ آمَنَ بِاللَّهِ؛ فَلِلصَّحَابَةِ عَلَيْهِ الفَضْلُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِيهِ المُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ؛ فإِنَّمَا هُوَ بِبَرَكَةِ مَا فَعَلَهُ الصَّحَابَةُ».

كانوا يُحِبُّون النبيَّ ﷺ حبّاً جمّاً، فدوه بأنفُسِهم وأرْوَاحِهِم، فقد شُلَّتْ يَدُ طلحةَ بنِ عُبيدِ اللَّه وهو يَقِي النَّبيَّ ﷺ من الرَّمْي، وخُبَيبٌ ﵁ يقول وهو في الأَسْرِ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ فِي أَهْلِي وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاكُ بِشَوْكَةٍ».

جَعلوا أموالَهم بين يَدَي النَّبيِّ ﷺ؛ قال سعدُ بنُ معاذٍ للنَّبيِّ ﷺ: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ»، وأبو بكرٍ ﵁ أَنْفَقَ جميعَ مالِه للَّه، قال القاضي عياض ﵀: «إِنْفَاقُهُمْ كَانَ فِي نُصْرَتِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَذَلِكَ مَعْدُومٌ بَعْدَهُ، وَكَذَا جِهَادُهُمْ وَسَائِرُ طَاعَتِهِمْ».

إذا أمرَهم النَّبيُّ ﷺ بأمرٍ؛ ابْتَدَرُوا أمرَه، وإذا تَكلَّموا خَفَضُوا أصواتَهم عنده، قال عمرو بن العاص ﵁: «وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ» (رواه مسلم).

مَنْ رَآهم هَالَهُ تَوْقِيرُهُم لنَبيِّهم ﷺ، قال عروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ: «وَاللَّهِ! لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكاً قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّداً» (رواه البخاري).

وبينهم تَوَاضعٌ وإيثارٌ ومحبَّةٌ وشفقةٌ؛ وصَفَهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾، قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رَأَيْتُ عُثْمَانَ نَائِماً في المَسْجِدِ فِي مِلْحَفَةٍ لَيْسَ حَوْلَهُ أَحَدٌ وَهُوَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ»، وقال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ فِي السَّفَرِ؛ فَكَانَ يَخْدِمُنِي» قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي صَمْتِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ».

وكان النَّبيُّ ﷺ يُحِبُّهم، وأَمَرَ بِحُبِّهم، وجعلَ علامةَ الإيمانِ حُبَّهم، وقال: «**آيَةُ الإِيمَانِ: حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ: بُغْضُ الأَنْصَارِ**» (متفق عليه)، وكان النَّبيُّ ﷺ يدعو لهم ولِذَرَارِيهم ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ**» (رواه مسلم)، ونهى ﷺ عن سبِّهم وقال: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**» (متفق عليه).

واللَّهُ سبحانه رَضِيَ عنهم وبشَّرهم بالجَنَّة وهم أحياءٌ؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾، قال ابنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ قَطْعاً».

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

أولئكَ رَكْبٌ عَظيمٌ، وجيلٌ فريدٌ، قال عنهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا كَانَ ولَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ»، ذِكْرُ فَضائِلِهِم عِبادة، وَحُبُّهم واجب، وتَوْقِيرُهم إيمانٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ**» (متفق عليه).

فيهم الصِّدِّيق الَّذي ثبَّت المُسلِمين وقوَّاهم بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ، وفيهم ثَانِي الخلفاء الرَّاشدين؛ ما لَقِيَهُ الشَّيطانُ سَالِكاً فَجّاً إلَّا سَلَكَ فجّاً غيرَ فَجِّه (متفق عليه)، وثالثُهم تَسْتَحي منه الملائكة (رواه مسلم)، وعليٌّ رضي الله عنه قال عنه النَّبيُّ ﷺ: «**يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**» (متفق عليه)، وصَعِدَ بعضُ الصَّحَابةِ مع النَّبيِّ ﷺ على جبل أُحُدٍ فتحرَّك الجبل؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**اثْبُتْ أُحُدُ! فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ**» (رواه البخاري)، واهتزَّ عَرْشُ الرَّحْمَن لموتِ سعدِ بن معاذٍ (رواه مسلم)، واسْتُشْهِد عبدُ اللَّه بنُ حَرَامٍ رضي الله عنه في أُحُدٍ؛ فأَظَلَّتْه الملائكة بأجنحتها حتى رفعه الصَّحَابةُ (متفق عليه).

مَنْ دَنَا منهم رَفَعَهُ اللَّهُ حتَّى مَنْ كان يَخْدِمُهم؛ استغفر النَّبيُّ ﷺ للأنصار وقال: «**وَلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ، وَلِمَوَالِي الأَنْصَارِ**» (رواه مسلم).

أعلامٌ اختارَهُم اللَّهُ لنُصْرَةِ دينِه ورَسُولِه؛ فكانوا نِعْمَ النَّصير، وحُمِّلوا نشْرَ الإسلام؛ فأَحسنوا التَّبْلِيغ، فجزاهم اللَّه عن الإسلام وأهلِه أعظمَ ما يُجازِي به كريمٌ مَن يُحِبُّ، ورَفَع درجاتِهم في علِّيِّين، وزادهم مع رضاه عنهم رضًى.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

لمَّا رَحَل الصَّحابةُ ظَهرتِ الفِتَن في الدِّين؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**» (رواه مسلم)، قال النَّوَوِيُّ ﷫: «مَعْنَاهُ: مِنْ ظُهُورِ البِدَعِ، وَالحَوَادِثِ فِي الدِّينِ، وَالفِتَنِ فِيهِ».

ولقد رضي اللَّه عن السَّابقينَ من غيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ورضي عن التَّابعينَ بشرطِ أن يكون اتِّباعُهُم بإحسانٍ، وحَسْبُ مَنْ بعدَهم من الفَضْل: أنْ يَبْحَثُوا عن سيرتِهم ويَهْتَدُوا بِهَدْيِهِم، ومَنْ فَاتَتْه فَضَائِلُهم؛ فَحُبُّهُم وإجلالُهم وتوقيرُهم معَ سلوكِ طريقِهم شَافعٌ لِلْحَشْرِ معهم، «سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: **وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟** قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: **أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**، قَالَ أَنَسٌ ﵁: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ» (متفق عليه)، قال الفضيلُ بنُ عياضٍ ﵀: «أَوْثَقُ عَمَلِي فِي نَفْسِي: حُبُّ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ».

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فالتَّقوى سعادةٌ في الأُولى، وزادٌ في الأُخْرَى.

أيُّها المسلمون:

لا تَزَالُ الأُمَمُ والشُّعوبُ تُفَاخِرُ بِنُبَلَائِهَا وفُضَلَائِهَا، تَأْنَسُ بسِيَرِهِم وتَقْتَدِي بفضائلهم؛ رغبةً في مُرَافَقَتِهِم، يقول ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» (متفق عليه)، وكلُّ مؤمنٍ فلِلصَّحَابةِ عليه فضلٌ، وكلُّ خيرٍ فيه المُسْلِمونَ من الإيمان والعِلْم والعبادة والسَّعادة إنَّما هو ببركة ما فَعلُوه، بلَّغوا الدِّين وجَاهَدُوا في سبيل اللَّه، وهُمْ أَكْملُ الأُمَّةِ عقلاً وعِلماً وفِقهاً وديناً، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثامن من شهر ذي القَعدة، سنة إحدى وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الحَيَّ لا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، كَانُوا - واللَّهِ - أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وأَبَرَّهَا قُلُوباً، وأَعْمَقَهَا عِلْماً، وأَقَلَّهَا تَكَلُّفاً، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَإِقَامَةِ دِينِهِ»، يقول الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ فِقْهٍ وَعِلْمٍ وَدِينٍ وَهُدًى، وَفِي كُلِّ سَبَبٍ يُنَالُ بِهِ عِلْمٌ وَهُدًى، وَرَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرٌ مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا».

وقد أَثنى اللَّهُ على الصَّحابةِ، وأَخبرَنا أنَّه رضي عنهم وأعدَّ لهم الحُسنى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وكلٌّ منهم له سَعْيٌ مشكورٌ وعملٌ مبرورٌ وآثارٌ صالحةٌ في الإسلام، وبالوقوف على أخبارهم؛ تَحْيَا القلوبُ، وتقوى العزائم، وباقتفاءِ آثارِهم تَحصلُ السَّعادة، وبمعرفةِ مناقبِهم تكونُ القدوةُ بجميلِ الخصال، ونبيل المآثر والفعال، قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ السَّلَفُ يُعَلِّمُونَ أَوْلَادَهُمْ حُبَّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، كَمَا يُعَلِّمُونَهُمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ».

وأكملُ الصَّحابةِ وأفضلُهم وأسبقُهم إلى الخيرات: عبدُ اللَّهِ بنُ عثمانَ بنِ عَامرٍ القُرَشيُّ أبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي اللَّه عنه وأرضاه، كان مُعَظَّماً في قريش، مُحَبَّباً مَأْلُوفاً، خبيراً بأنساب العرب وأيَّامِهم، يألفونه؛ لعقله وعِلمه وإحسانه، ولَمَّا جاء الإسلامُ بادَرَ إلى تصديق رسولِ اللَّه ﷺ ولازَمَ الصِّدْق، فلم تقعْ منه هَنَّةٌ، ولا وَقْفَةٌ في حالٍ من الأحوال، أَجمعتِ الأُمَّةُ على تَسْمِيَتِه بالصِّدِّيق، يقول

النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ**» (رواه البخاري).

دُعيَ إلى الإسلام فما كَبَا ولا نَبَا، فكان أوَّلَ مَن آمن من الرِّجال، أبو بكرٍ ﵁ له المواقفُ الرَّفيعة والأيادي الكريمة، رجُلٌ عظيمُ القَدْر، رفيعُ المنزلة.

كان حازماً رحيماً، حليماً كريماً، نافَحَ عن دين اللَّه ونَصَرَ رَسُولَه ﷺ، أوَّلُ الخُلَفاءِ الرَّاشدين، وأوَّلُ العَشَرةِ المُبشَّرين، شديدُ الحياء، كثيرُ الورَع، غنيٌّ بماله وجاهِهِ وأخلاقِه، لم يَشربِ الخمرَ قَطُّ؛ لسلامة فِطرته وعَقله، ولم يَعبُدْ صَنَماً في حياته؛ بل كان يُكْثِرُ التَّبَرُّمَ منها، ولم تُؤْثَرْ عنه كَذْبَةٌ قط؛ بل كان صِدِّيقاً صَدُوقاً رضي اللَّه عنه وأرضاه.

أوَّلُ من دعا إلى اللَّه؛ فأَسْلَمَ على يديه خمسةٌ من العَشَرَة: عُثمانُ، وطَلْحَة، وسَعْدٌ، والزُّبَيْرُ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ﵃ جميعاً، وهو أوَّلُ مَنْ أُوذِيَ بعد رسول اللَّه ﷺ حتَّى خَرَجَ من مكَّةَ مُهَاجِراً إلى الحَبَشَة، وحَثَوا التُّرَابَ على رَأْسِه، عاش في ذِروة سَنَامِ الصُّحْبَة وأعلى مَرَاتِبِهَا، صَحِب النَّبيَّ ﷺ مِنْ حينِ بَعثَهُ اللَّه إلى أَنْ مات.

كَمُلَ فِي الصُّحْبةِ كمالاً لم يَشْرَكْهُ فيه غيرُه، كان مُؤْنِساً للنَّبِيِّ ﷺ؛ هَاجر وحده مُنْفَرِداً معه، وأقام معه وحده يوم بدرٍ في العَرِيش، مالُه مبارَكٌ؛ يَتَّجِرُ ويَأكلُ مِن كَسْبِه، وإنفاقُه أفضلُ من إنفاق غيره؛ يقول ﵇: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**» (رواه أحمد)، كان أبعدَ النَّاسِ عن النِّعمةِ الَّتي تُجْزَى، وأولاهم بالنِّعمةِ الَّتي لا

تُجْزَى، أَنْفَقَ في سبيل اللَّه مالَه كلَّه؛ يقول عمر ﵁: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟** قُلْتُ: مِثْلَهُ - أَيْ: تَصَدَّقَ بِشَطْرِ مَالِهِ -، قَالَ: وَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟** قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَداً» (رواه أبو داود).

الصِّدِّيقُ ﵁ شريفُ النَّفْسِ، سامي الرُّوح، لم يَطْلُبْ من مخلوقٍ مالاً ولا حاجةً دنيويَّةً، إذا سَقط سَوْطُهُ من يده لا يقول لِأَحدٍ: نَاوِلْنِي إيَّاه، ويقول: «إِنَّ حِبِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً» (رواه أحمد).

أَرْجَحُ الأُمَّةِ إيماناً؛ اليقينُ والإيمانُ الذي في قلبه لا يساويه فيه أَحَدٌ، لَوْ وُزِنَ إيمانُه بإيمان هذه الأُمَّة ليس فيها رسولُ اللَّه ﷺ لَرَجَحَ بهم، أعلمُ الصَّحابةِ والأُمَّةِ وأذكاهم، كان يقضي ويُفْتِي بحضرةِ النَّبيِّ ﷺ ويُقِرُّه، ولم تكن هذه المرتبة لغيره، وقد عَرَفَ الصَّحابةُ له هذا الفَضْل، قال أبو سعيدٍ الخدري ﵁: «كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا».

لم تَخْتَلِفِ الأُمَّةُ في عَصْرِه في مسألةٍ إلَّا فَصَلَها، بيَّنَ لهم موتَ النَّبيِّ ﷺ، وثَبَّتَهم على الإيمانِ بعد موته، وبيَّن لهم موضِعَ دفْنه وميراثَه، واستَخْلَفَهُ رسول اللَّه ﷺ على الصَّلاة الَّتي هي عمودُ الإسلام، واستَعْمَلَهُ النَّبيُّ ﷺ على أوَّلِ حَجَّةٍ حُجَّتْ من المدينة، قال

شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعِلْمُ المَنَاسِكِ أَدَقُّ مَا فِي العِبَادَاتِ، وَلَيْسَ فِي مَسَائِلِ العِبَادَاتِ أَشْكَلُ مِنْهَا، وَلَوْلَا سَعَةُ عِلْمِهِ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ»، وقال أيضاً: «لَمْ يُحْفَظْ لَهُ قَوْلٌ يُخَالِفُ فِيهِ نَصّاً، ولَا يُعْرَفُ لَهُ مَسْأَلَةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ غَلِطَ فِيهَا، ثُمَّ الأَقْوَالُ الَّتِي خُولِفَ فِيهَا الصِّدِّيقُ بَعْدَ مَوْتِهِ قَوْلُهُ فِيهَا أَرْجَحُ مِنْ قَوْلِ مَنْ خَالَفَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ».

حياته كلُّها للَّه؛ لم يُفَارِقِ المدينةَ بعد الهجرة إلَّا حاجّاً أو مُعْتَمِراً أو غَازِياً، أَزهدُ الصَّحابةِ في الحياة، ما جَمعه من مالٍ أَنفقه في سبيل اللَّه، تقولُ ابنتُه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا مَاتَ مَا تَرَكَ دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً».

أمينٌ في الأُمَّة، من كُتَّابِ الوَحْيِ المُنَزَّلِ على خيرِ خلْق اللَّه، أَشْجَعُ النَّاس، لَمْ يَكُنْ بعدَ رسول اللَّه ﷺ أَشْجَعُ منه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْوَى قَلْباً مِنْ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ، لَا يُقَارِبُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ، لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ قَطُّ أَنَّهُ جَبُنَ عَنْ قِتَالِ عَدُوِّهِ».

أَبُو بَكْرٍ يَقْدُمُ في المَخَاوِف، يَقِي النَّبيَّ ﷺ بنفْسه في بدرٍ في العَرِيش وحده مع النَّبيِّ ﷺ، وثَبَتَ في أُحُدٍ وحُنَيْنٍ، ولم يَنْهَزِمْ معَ مَنِ انْهَزَم، يقول عن نفْسه: «مَا دَخَلَ قَلْبِي رُعْبٌ بَعْدَ لَيْلَةِ الغَارِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى حُزْنِي قَالَ: **لَا عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ! فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِهَذَا الأَمْرِ بِالتَّمَامِ**»، في دَهْشَةِ العُقُولِ بموت النَّبيِّ ﷺ بثباتِ قَلْبٍ ورَبَاطَةِ جَأْشٍ صَدَعَ بكَلِمَاتٍ مُؤَثِّرَة: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ ﵁ وَكُنَّا كَالثَّعَالِبِ، فَمَا زَالَ يُشَجِّعُنَا حَتَّى صِرْنَا كَالأُسُودِ».

قاد الأُمَّةَ بعدَ رسولِها بعدلٍ وحكمةٍ وسُؤْدَدٍ، وأقامَ الإسلام، وأَدخلَ النَّاسَ من الباب الذي خَرَجُوا منه مع كثرة المخالفين من المُرْتَدِّين وغيرهم.

أَسَدُّ الصَّحابةِ رأياً، وأكملُهم عقلاً، كان النَّبيُّ ﷺ إذا اسْتَشَارَ أصحابَه أوَّل مَنْ يَتَكلَّمُ أبو بكرٍ ﵁ في الشُّورى، ويَعْمَلُ النَّبيُّ ﷺ برأيه وحده في الأُمُورِ العظيمة، فإذا خَالَفَهُ غيرُه اتَّبعَ رأيَه دونَ رأي مَنْ يُخَالِفُه، كما في أُسَارَى بَدْرٍ وصُلْحِ الحُدَيْبية، وكان عمر ﵁ يُرَاجِعُه في عَهْدِ النُّبوَّة؛ لكمالِ عقلِه ورَجَاحةِ رأيه.

ليسَ في الصَّحابةِ مَنْ أَسْلَمَ أَبُوه وأُمُّه وأَولَادُه وأولادُ أولادِه وأَدْرَكُوا النَّبيَّ ﷺ سواه، قال شيخ الإسلام ؒ: «فَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ إِيمَانٍ لَيْسَ فِيهِمْ مُنَافِقٌ، ولَا يُعْرَفُ هَذَا لِغَيْرِ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ يُقَالُ: لِلْإِيمَانِ بُيُوتٌ، وَلِلنِّفَاقِ بُيُوتٌ، فَبَيْتُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بُيُوتِ الإِيمَانِ».

ومِنْ هذا البيتِ العامرِ بالإيمان خَرَجَتْ عائشةُ بنتُ الصِّدِّيق ﵄، وفيه تَرَعْرَعَت على يَدِ وَالِدِها، فقد كَانَ صَوَّاماً قوَّاماً مُنْفِقاً مُجَاهِداً، إذا قَرَأَ القُرْآنَ لا يَملكُ دَمْعَه، ولم يَسْمَع النَّاسُ قِرَاءَتَه من البكاء، سَبَّاقٌ إلى البرِّ والخيرات، في يومٍ واحدٍ أَصْبَحَ صَائماً وتَبِعَ جِنَازَةً وعَادَ مَرِيضاً وأَطْعَمَ مِسْكِيناً، و«مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ» (رواه مسلم).

أبُو بَكْرٍ أَفْصحُ النَّاسِ وأخطَبُهم؛ كان يَخطبُ عن النَّبيِّ ﷺ في حضورِه وغيبتِه، ويُخَاطِبُ الوُفُودَ؛ تَقْدِمةً للنَّبيِّ ﷺ لا تَقَدُّماً بيْن يديه، لم يَسُؤِ النَّبيَّ ﷺ قطُّ، أحبَّه عليه الصلاة والسلام حُبّاً جَمّاً، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: **عَائِشَةُ**، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: **أَبُوهَا**، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **عُمَرُ**» (متفق عليه).

كان يَزُورُه النَّبيُّ ﷺ في بيْته أوَّلَ النَّهارِ وآخرَه، ويأْنَسُ به ويقول: «**أَخِي وَصَاحِبِي**»، قالت عائشةُ رضي الله عنها: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَي النَّهَارِ - بُكْرَةً وَعَشِيَّةً -»؛ يُحَدِّثُه في العِلمِ والدِّين ومَصَالِحِ المُسْلِمين (رواه البخاري)، أَفَلَا نُحِبُّ مَنْ أَحَبَّه نَبِيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ؛ يقول عليه الصلاة والسلام: «**نِعْمَ الرَّجُلُ أَبُو بَكْرٍ**» (رواه الترمذي).

النَّبيُّ ﷺ يَرْأَفُ به ويُشْفِقُ عليه؛ لَمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ هَمَّهُ في الغَار قال له: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**»، تزوَّجَ رسولُنا ﷺ ابنتَه، وكانت أحبَّ النساء إليه، تُوفي في حِجْرِها وحُجْرتها، وكانت مبارَكةً على هذه الأمَّة.

شبَّهه النَّبيُّ ﷺ بالنَّبِيَّيْنِ إبراهيمَ وعيسَى عليهما السلام في لِينِه في جَانِبِ اللَّه (رواه مسلم).

وَاسَى النَّبيَّ ﷺ بنفْسِه وماله، وأَغْدَقَ مَالَه لرسولِ اللَّه ﷺ لنصرة الإسلام حتى قال ﷺ: «**مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَداً يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» (رواه الترمذي)، لذا قال: «**أَبُو بَكرٍ فِي الجَنَّةِ**»؛ بل هو أوَّلُ مَنْ يَدخلُ الجَنَّة مِنْ هَذِه الأُمَّة

بعد نَبيِّها؛ قال ﷺ: «**أَمَا إِنَّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي**» (رواه أبو داود)؛ بل ويُدْعَى في الجَنَّة مِنْ بَابِ الصَّلاة والجِهَاد والصَّدقةِ والرَّيَّان.

والصَّحابةُ رضي الله عنهم أَحبُّوه وأَجلُّوه؛ يقول عمر رضي الله عنه: «وَاللَّهِ! لَلَيْلَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَيَوْمٌ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ وَآلِ عُمَرَ» (رواه الحاكم)، ويقولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا» (رواه الترمذي)، ويقولُ ابن عمر رضي الله عنهما: «كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحداً» (رواه البخاري)، ولِمَحبَّتِهِم له سَمَّى الصَّحابةُ رضي الله عنهم أولادَهم باسْمِه، فلِعَلِيِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أولادٌ سَمَّى أحدَهُم أبَا بَكْرٍ وآخرَ عُمَر.

تِلْكُم - عبادَ اللَّه - بعضُ مَنَاقِبِ الصِّدِّيق رضي اللّه عنه وأرضاه، وجَزَاهُ عن الإسلام خير الجزاء؛ فَاعْرِفُوا لِصَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ حَقَّه وأَنْزِلُوه مَنْزِلَتَه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فأَمْرُ آخرِ هذه الأُمَّةِ لا يَصْلُحُ إلَّا بما صَلَحَ به أوَّلُها، وأصحابُ النَّبيِّ ﷺ هم خيرُ الخَلْقِ بعدَ رسولِ اللَّه ﷺ، ومعرفةُ أحوالِهم وأخلاقِهم وسِيَرِهم؛ تُضِيءُ الطَّريقَ أمام المؤمنِ الَّذي يُرِيدُ أَنْ يَعِيشَ مُتَأَسِّياً بمُحَمَّد ﷺ، وأخبارُهم دواءٌ للقلوب، وجِلاءٌ للألباب من الدَّنَس والعيوب، مثالٌ يُحتذى، ونِبْراسٌ يُقتدى؛ لِيَعْرِفَ المُتَأَخِّرُ لِلْمُتقَدِّم فضْلَه، ويَسْعَى على دَرْبِه ونَهْجِه.

فلازِمِ الصِّدقَ في حديثك تكنْ من الصِّدِّيقين، وأَنفِقْ من مالِك ابتغاءَ وجه اللَّه؛ تُكَفَّرْ عنك الذُّنُوب، وأحسِنْ إلى الخلْق؛ فبالإحسان إليهم تَنْجَلِي الهمومُ والكروب، واصبِرْ على الأَذَى في ذات اللَّه فذا دأبُ المُصْلِحِين، واقتَصِرْ على الكسْب الحلال يُبَارَكْ لكَ في المال، وتَعَفَّفْ عمَّا في أيدي النَّاس تَكُنْ أعزَّهم، وازهدْ في الحياة تأتِكَ الدُّنيا رَاغِمَةً.

وباليقين والإيمان تَرْتَقي في درجات الجِنان، وتَزَوَّدْ من العِلم فهو شِعارُ المُوفَّقين، واجعلْ حياتَك كلَّها للَّه تَكُنْ أسعدَ خلْقِ اللَّه، واتَّصِفْ بالأمانة تَكُنْ لك العاقبة، واجْعلِ الحكمةَ مصاحِبةً لِقولِك وفِعْلِك تَكُنْ راجحَ الرَّأي، وأكثِرْ من الصِّيام والصَّلاة وإطعام المساكين وعيادة المَرْضَى واتِّباع الجنائز تُدْعَ من أبوابها في الجِنان، واتَّصفْ بالحِلم والعفو يُغْفَرْ لك، وأَجِلَّ صَحَابةَ رسولِ اللَّه ﷺ فإجلالُك لهم مِن مَحبَّتِك لِنَبيِّك، وأَحِبَّهم تُحْشَرْ معهم، فتلك صفات الصِّدِّيقين فاتَّصِفْ بها؛ لِتَلْحَقَ بهم.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

خلَقَ اللَّهُ الخلقَ لِعِبَادتِه، وأَرسلَ رُسلَه وأَنزلَ كُتبَه، واصطفى مَن شاء من عبادِه؛ ففضَّلَ النبيِّينَ بعضَهم على بعضٍ، وفضَّل الرُّسلَ على الخلْق؛ وأولُو العَزْمِ أفضلُ مِن سائرِ الرُّسُل، وفضَّلَ السَّابقِينَ الأوَّلِين من المُهَاجرين والأنصار على غيرِهم، وكلُّ خيرٍ فيه المُسْلِمون فإنَّما هو ببركةِ ما فَعله الصَّحابةُ رضي الله عنهم الذين بلَّغوا الدِّين.

وأفضلُ الصَّحابةِ: الخلفاءُ الرَّاشدونَ الأَرْبَعَة الَّذين خلَفُوا النَّبيَّ ﷺ في أمَّتِه عِلْماً وعملاً، وكلٌّ منهم له سَعْيٌ مشكورٌ وعملٌ مبرورٌ، وآثارٌ خالدةٌ في الإسلام.

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الخامس من شهر صَفَر، سنة ثمان وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وأبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما هما ساداتُ أهل الجَنَّةِ بعد الأنبياء، ومعرفةُ فضائلِهما من أسبابِ مَحبَّتِهما، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ومَعْرِفَةُ فَضَائِلِهِمَا مِنَ السُّنَّةِ»، قال ابن الجوزيِّ رحمه الله: «وَكَانَ السَّلَفُ يُعَلِّمُونَ أَوْلَادَهُمْ حُبَّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، كَمَا يُعَلِّمُونَهُمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ».

وأبُو بَكْرٍ أكملُ الصَّحابةِ وأَسبقُهُم إلى الخيرات، وأتقى الأُمَّةِ بعد نبيِّها وأَكملُهم إيماناً، وَاسَى النَّبيَّ ﷺ بنفْسِه وماله، وكان صاحبَه في هجرتِه، وأَحبَّ الصَّحابةِ إليه.

وخليفةُ أَبِي بَكْرٍ ورفيقُه: أميرُ المؤمنين، الفاروقُ، أَبُو حَفْصٍ، عُمَرُ بنُ الخطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ القُرَشِيُّ، ثانِي الخلفاءِ الرَّاشدين، وأحدُ العَشَرةِ المُبشَّرين بالجَنَّة، قويُّ الإيمان والدِّين، ذو الفِرَاسَة والفِطْنَة والذَّكَاء، والهَيْبَة والشَّجَاعَة والدَّهَاء، مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ في الجَاهليَّة، وله المكانة الرَّفيعةُ عندهم - إذْ كانت تَبْعَثُه رسولاً إلى القبائل إذا ما وَقعت الحُرُوبُ بينهم، أو بيْنهم وبيْن غيرهم -.

أَسْلَمَ وعُمُرُه سبعةٌ وعِشْرُون عاماً؛ فأَصبحَ في الإسلام الصَّحابيَّ الشُّجاعَ العظيم، الحَازِمَ الرَّحِيم، العَادِلَ الحَكِيم، ومِنْ عُلَمَائِهِم وعُظَمَائِهِم ونُبَلَائِهِم، أَسْلَم بعد بِعثةِ النَّبيِّ ﷺ بِستِّ سنوات بعد تِسْعةٍ وثلاثينَ رَجُلاً؛ فسَبَقَهُم في الفضلِ والمنزلةِ سِوى أَبِي بَكْرٍ.

أحبَّهُ النَّبيُّ ﷺ وقرَّبَه إليه وأَدْنَاه منه، قال عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: **عَائِشَةُ**، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: **أَبُوهَا**، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **عُمَرُ**» (متفق عليه).

ذو الرَّأيِ الثَّاقبِ والعقلِ الرَّاجح؛ كان رسولُ اللَّه ﷺ يُشاوِرُه في الأمور العِظام؛ فشاوَرَه في أُسَارَى بَدْرٍ وقال له: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟**» (رواه مسلم)، وأمرَ النبيُّ ﷺ بالاقتداءِ به فقال: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ**» (رواه الترمذي)، قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي تَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ»، وكان الصَّحابةُ يُجِلُّونَه في حياةِ النَّبيِّ ﷺ، قال ابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللَّه ﷺ حَيٌّ: أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» (رواه أبو داود).

كان مُعظِّماً للنَّبيِّ ﷺ ومُحبّاً له؛ لَمَّا سمع بوفاةِ النبي ﷺ ولم يَتيَقَّنِ الخبر قال: «لَا أَسْمَعُ أَحداً قَالَ: إِنَّ مُحَمَّداً مَاتَ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ»؛ فلمَّا أَيْقَنَ بوفَاتِه قال: «عُقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ»، ومِنْ أشدِّ المُقْتَفِين لأثرِ النَّبيِّ ﷺ، لَمَّا قبَّلَ الحجرَ الأسودَ قال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ؛ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» (متفق عليه).

مِن أشدِّ النَّاسِ حِرْصاً على العِلْم؛ كان يَتَنَاوَبُ مع رَجُلٍ من الأنصار مَجَالِسَ النَّبيِّ ﷺ؛ لئلَّا يَفُوتَه شيءٌ من العِلْم، وشَهِدَ له النَّبيُّ ﷺ بالعِلمِ الرَّاسِخ، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ،**

فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، فَقَالَ مَنْ حَوْلَهُ: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: العِلْمَ» (متفق عليه).

وهو أعلمُ الصَّحابةِ وأفهمُهُم في دين اللَّه بعد الصِّدِّيق؛ كان يَقضي ويُفتي ويُعلِّمُ الصَّحابةَ القرآنَ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، فَقُمْتُ لَهُ وَهُوَ يُسَبِّحُ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَانْتَظَرْتُهُ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ دَنَوْتُ مِنْهُ، قُلْتُ: أَقْرِئْنِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ؟ فَأَقْرَأَنِي آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ»، قال ابن مسعُودٍ رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ عِلْمَ عُمَرَ وُضِعَ فِي كِفَّةِ مِيزَانٍ، وَوُضِعَ عِلْمُ أَحْيَاءِ الأَرْضِ فِي كِفَّةٍ؛ لَرَجَحَ عِلْمُ عُمَرَ بِعِلْمِهِمْ».

له فضلٌ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فهو أوَّلُ مَنْ أَشَارَ بِجَمْعِ القرآنِ في المُصْحَف، وأوَّلُ مَنْ جمعَ النَّاسَ على إمامٍ في صلاةِ التَّراويح، وأوَّلُ مَنْ أرَّخَ التَّاريخَ الهجري، وأوَّلُ مَنْ فَتَح الفُتُوحَ ومصَّرَ الأمصارَ واستَقْضى القُضاةَ في البلدان.

رجلٌ مُلْهَم؛ كلامُه من أجمعِ الكلام وأكملِه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ - أَيْ: مُلْهَمُونَ -، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ» (متفق عليه)، قال ابن مسعُودٍ رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَحْسِبُ أَنَّ بَيْنَ عَيْنَيْ عُمَرَ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ وَيُقَوِّمُهُ».

كان خَطِيباً فَصِيحاً مَهِيباً، ذَا قُوَّةٍ وشَكِيمَة؛ أَسْلَمَ وجَهَر بإِسْلَامِه وهِجْرَتِه، قال ابن مسعُودٍ رضي الله عنه: «مَا كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الكَعْبَةِ

حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ قَاتَلَ قُرَيْشاً حَتَّى صَلَّى عِنْدَ الكَعْبَةِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ».

عَلَمٌ مِنْ الأعلام؛ فَرِحَ الصَّحابة بإِسْلَامِه؛ قال ابن مسعُودٍ رضي الله عنه: «إِسْلَامُ عُمَرَ كَانَ فَتْحاً، وَهِجْرَتُهُ كَانَتْ نَصْراً»، وقال: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»، مُسْتَمْسِكٌ بدينه مُفْتَخِرٌ به؛ قال للنَّبيِّ ﷺ في الحديبية: «أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟» (متفق عليه).

قويٌّ في دينِ اللَّه عظيمٌ؛ كان الشَّيطانُ يَفِرُّ منه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً إِلَّا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ**» (متفق عليه)، فنَصَرَ اللَّهُ به الدِّينَ، وانتشرَ في الآفاق، وقَوِيَتْ شَوكةُ المسلمين، وتَحقَّقت فيه دعوةُ النَّبيِّ ﷺ «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ**» (رواه ابن ماجه)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وَفِي زَمَنِهِ انْتَشَرَ الإِسْلَامُ، وَظَهَرَ ظُهُوراً لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مِثْلُهُ».

كان شُجاعاً مِقْداماً؛ لم يَتَخلَّفْ عن غزوةٍ غزاها النَّبيُّ ﷺ، لم يَكُنْ أَحَدٌ من الصَّحابة أَشْجَعَ منه سوى أَبِي بَكْرٍ، قال ابنُ إسحاقَ رحمه الله: «كَانَ رَجُلاً ذَا شَكِيمَةٍ، لَا يُرَامُ مَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ»، ثَبَتَ مَعَ مَنْ ثَبتَ في أُحُدٍ وحُنَينٍ مع النَّبيِّ ﷺ حين تفرَّق الجَمْع، ولَمْ يَنْهَزِمْ مَعَ مَنْ هُزِم، وخَافَهُ مُلُوكُ الفُرْسِ والرُّومِ، ووُضِعَ تاجُ كِسْرَى بَيْنَ يَدَيْه.

عابدٌ للَّه قانتٌ، كثيرُ الصَّلاة في اللَّيل، كثيرُ الصِّيام، قال زيادُ بن حُدَيْر رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَأَيْتُ عُمَرَ أَكْثَرَ النَّاسِ صِيَاماً، وأَكْثَرَهُمْ سِوَاكاً»، يُحِبُّ الصَّلاةَ ويَأْمُرُ بها، ويقول: «لَا حَظَّ فِي الإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاة»، وكان يَحُجُّ كلَّ عامٍ في خِلَافَتِه.

مُخْبِتٌ إلى ربِّه أَوَّاهٌ إليه؛ يَعملُ صالحاً، ويدعو ربَّه أن تكونَ أعمالُه كُلُّها صالحةً خالصةً، كان أكثرُ دُعائِه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحاً، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصاً، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئاً».

مُكْثِرٌ من تلاوةِ كتابِ اللَّهِ العظيم، خَاشعٌ فيه متدَبِّرٌ له، قال عبدُ اللَّه بن شَدَّاد رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمِعْتُ عُمَرَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَسَمِعْتُ نَشِيجَهُ وَإِنِّي فِي آخِرِ الصُّفُوفِ، وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾».

وقَّافٌ عند آياتِ اللَّهِ؛ لَمَّا نزل قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، قال: «انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا».

ذو بذلٍ وصدقةٍ وإنفاقٍ؛ أمرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصَّحابةَ أَنْ يتصدَّقوا؛ فتَصدَّق بنصفِ ماله.

واثقٌ بربِّه مُتوكِّلٌ عليه؛ خَرج يَسْتَسْقِي بالنَّاس فما زاد على الاستغفار حتى رَجع، قالوا: «يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! مَا نَرَاكَ اسْتَسْقَيْتَ، قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ المَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّذِي يُسْتَنْزَلُ بِهِ المَطَرُ - يَعْنِي: الِاسْتِغْفَارَ -».

شديدُ الخوف من اللَّه؛ قال أنسٌ ﵁: «كُنْتُ مَعَ عُمَرَ؛ فَدَخَلَ حَائِطاً، فَسَمِعْتُهُ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ - وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ - يَقُولُ: عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، أَمِيرُ المُؤْمِنينَ! بَخٍ بَخٍ، وَاللَّهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ يَا ابْنَ الخَطَّاب! أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ اللَّهُ».

سليمُ القلبِ ناصعُ السَّرِيرة؛ قال أبو جعفرٍ الباقرُ ﵀ في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أَيْ: حِقْدٍ، قال: «نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ».

ينزِّهُ نفْسَه عن الوقوع في أعراضِ النَّاس، ويُحذِّرُ منه، يقول: «عَلَيْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ، وَإِيَّاكُمْ وَذِكْرَ النَّاسِ فَإِنَّهُ دَاءٌ».

مُعْرِضٌ عنِ الدُّنيا مُقْبِلٌ على الآخرة؛ نَقْشُ خَاتَمِه: «كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظاً يَا عُمَرُ»، قال معاويةُ ﵁: «أَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا، وأَمَّا عُمَرُ فَأَرَادَتْهُ فَلَمْ يُرِدْهَا»، شديدُ الوَرَعِ في دينِ اللَّه؛ قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمة ﵀: «كُنَّا نَلزَمُ عُمَرَ نَتعَلَّمُ مِنْهُ الوَرَعَ».

ناصحٌ مشفِقٌ على الأُمَّةِ مخلِصٌ لها؛ ولِيَ خلافةَ المُسْلِمينَ عشرَ سنين، ملأَها بالعَدْل والنُّصْح والرَّحمة، كان يَجلسُ للنَّاسِ بعدَ كلِّ صلاةٍ؛ فمَنْ كانت له حاجةٌ نَظَرَ فيها.

حَرِيصٌ على رعيَّتِه؛ يقول: «لَوْ ضَاعَ جَمَلٌ ضَيَاعاً عَلَى شَطِّ الفُرَاتِ؛ لَخِشَيْتُ أَنْ يَسْأَلَنِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وصفَ ابنُ مسعودٍ ﵁ زمنَه بقولِه: «كَانَتْ إِمَارَةُ عُمَرَ رَحْمَةً».

قَرُبَ من ربِّه وتَوَاضَعَ؛ فَرَفَعَهُ اللَّه؛ فَتح بيتَ المَقْدِسِ، وأزالَ عنه القَذَى بِردائِه، وطهَّرَه من الأَخْبَاثِ والأَنْجَاس، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ مُتَوَاضِعاً فِي اللَّهِ، خَشِنَ العَيْشِ، خَشِنَ المَطْعَم، شَدِيداً فِي ذَاتِ اللَّهِ، يَرْقَعُ الثَّوْبَ بِالأَدِيمِ، وَيَحْمِلُ القِرْبَةَ عَلَى كَتِفِهِ مَعَ عَظِيمِ هَيْبَتِهِ».

يُقبِلُ إليه الشَّريفُ والوَضِيع، ويُجَالِسُه الغَنيُّ والفَقِير، سَمَتْ نفسُه فتفقَّدَها، كان يقول: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي».

تَمْضِي عليه الأيَّامُ واللَّيَالِي لا يَجِدُ طعاماً يأكلُه؛ قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: **مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟** قَالَا: الجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ!» (رواه مسلم).

عادلٌ في أحكامِه وقضائِه؛ إذا أتاه الخَصْمَانِ بَرَكَ على رُكْبَتَيْه وقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمَا؛ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُرِيدُنِي عَنْ دِينِهِ»، عَدْلُه بَهَرَ رعيَّته، قال له ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَقَدْ مَلَأْتَ الأَرْضَ عَدْلاً».

رحيمٌ بالضُّعَفاءِ والفُقَراء، قال طلحةُ بنُ عبيدِ اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَدَخَلَ بَيْتاً؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَى ذَلِكَ البَيْتِ، فَإِذَا عَجُوزٌ عَمْيَاءُ مُقْعَدَةٌ؛ فَقُلْتُ لَهَا: مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلُ يَأْتِيكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ يَتَعَاهَدُنِي، وَيَأْتِي لِي بِمَا يُصْلِحُنِي».

يَعْرِفُ لأهلِ الفَضْلِ فَضْلَهم؛ كان مُجِلّاً لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومحبّاً له، وهو أَوَّلُ مَنْ بَايَعَه على الخِلَافَة، وكان يُثْنِي عليه بمَحْضَرِ

المُهَاجرين والأَنْصَار، ويقول له: «أَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (رواه البخاري)، ويقول: «أَبُو بَكْرٍ أَحْلَمُ مِنِّي وَأَوْقَرُ».

وكانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يُحِبُّه ويَوَدُّه، قال أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «مَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ رَجُلٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عُمَرَ»، وابنُ مسعودٍ إذا ذَكَرَ عُمَرَ بَكَى وَقَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حِصْناً حَصِيناً لِلْإِسْلَامِ، يَدْخُلُونَ فِيهِ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ»، والصَّحابةُ رضي الله عنهم يَرَوْنَ أَنَّ مَحبَّتَه من العبادة؛ قال جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما: «حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنَ الإِيمَانِ».

وكمالُ محبَّتِه للنَّبيِّ ﷺ أَوْجَبَ حُبَّه لأهلِ بيته، إذْ أَنَّ رعايةَ أهلِ بيتِه ممَّا أمرَ اللَّهُ ورسولُه به، وكان مِنْ أعظمِ المُسْلِمين رعايةً لرسولِ اللَّه ﷺ وأهلِ بيتِه؛ فزوَّجَ عُمَرُ رضي الله عنه بنتَه حفصةَ للنَّبيِّ ﷺ، وكان بيْن عُمَرَ وبيْنَ آلِ رسولِ اللَّه صِهْرٌ، ولا يُزوِّجُ إلَّا من ارتُضِي؛ فزوَّج عَلِيٌّ رضي الله عنه بنتَه أمَّ كُلثومٍ لِعُمَرَ - وأُمُّهَا فاطمةُ بنتُ رسول اللَّه - قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «وَأَكْرَمَهَا إِكْرَاماً زَائِداً، أَصْدَقَهَا أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ».

وكان بيْنَه وبيْنَ آلِ رسولِ اللَّه ﷺ مَودَّةٌ وإِخَاءٌ؛ فَسَمَّى عُمَرُ بنتَه فاطمة، وكان يُثْنِي على عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه ويقول: «عَلِيٌّ أَقْضَانَا»، وجَعلَ عُمَرُ عَلِيّاً أَحَدَ السِّتَّة الَّذين يُسْتَشارُون لِتَوْليةِ الخِلَافةِ مِنْ بعدِه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لَا زَالَ عُمَرُ مُكْرِماً لِعَلِيٍّ وَسَائِرِ بَنِي هَاشِمٍ، يُقَدِّمُهُمَا عَلَى سَائِرِ النَّاسِ»، وعَلِيٌّ رضي الله عنه سَمَّى ابنَيْه أَبَا بَكْرٍ وعُمَر، وحَجَّ عُمَرُ رضي الله عنه بأزواجِ النَّبيِّ ﷺ في آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّها بالنَّاس.

جعلَ الفَارُوقُ عُمَرُ لآلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقَرَابتِه مَنْزلةً عَاليةً في نفْسِه؛ فأَحَبَّهم وأَحبُّوه وأَثْنَوْا عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ - وَاللَّهِ - أَجْوَدَنَا، كَانَ نَسِيجَ وَحْدِهِ»؛ بل كَانُوا يَأْنَسُونَ بسيرتِه وذكرِ فضائلِه، تقول عائشة رضي الله عنها: «إِذَا ذَكَرْتُمْ عُمَرَ طَابَ المَجْلِسُ».

وابنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عبدُ اللَّه بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما يقدِّمُه على الصَّحابةِ، ويقول: «شَهِدَ عِنْدِي رِجَالٌ مَرْضِيُّونَ، وَأَرْضَاهُمْ عِنْدِي عُمَرُ» (رواه البخاري).

وعَلِيٌّ رضي الله عنه يُحِبُّه ويُجِلُّه، ويقول: «خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ»، وكان عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْ أَشدِّ النَّاسِ حُزْناً على وَفَاةِ عُمَرَ، لَمَّا وُضِعَتْ جِنَازَةُ عُمَرَ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ؛ فَإِنِّي كَثِيراً مَا كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**» (متفق عليه).

قال ابن الجَوزيِّ رحمه الله: «جَمَعَ عُمَرُ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ مَا أَدْهَشَ العُلَمَاءَ وَالعَامِلِينَ»؛ فرضيَ اللَّهُ عن عُمَرَ وأرضاه، وأَجزلَ لهُ أحسنَ الجزاء على حُسن صُحْبَتِه لنبيِّه، وصِدْقِه في إيمانِه، وقوَّتِه في عقيدتِه، ونشْرِه لدينِ اللَّه في الآفاق.

وما أَحوجَ المسلمين إلى التَّأسِّي بأعمالِه، والتَّحلِّي بفضائلِه، واكتسابِ مناقبِه ومسابقتِهم إلى الطَّاعات مثلَه؛ ليَظْفَروا بالسَّعادةِ والرِّضوان، والخيرِ والجِنان.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أيُّها المسلمون:

محبَّةُ الصَّحابةِ عبادةٌ عظيمةٌ من أَجَلِّ العبادات، ومِنْ أسبابِ دخولِ الجَنَّةِ والحَشْرِ معهم، جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْماً وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» (متفق عليه).

وقد وَعدَ اللَّهُ جميعَ الصَّحابةِ بالجَنَّة؛ قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي: الجنَّة، قال ابن حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ قَطْعاً».

وكلُّ مؤمنٍ آمنَ باللَّهِ فللصَّحابةِ عليه الفضلُ إلى يومِ القيامة؛ فهم أكملُ هذه الأُمَّةِ عقلاً وعِلْماً وفِقْهاً ودِيناً، ولهم من السَّوابقِ والفَضَائلِ والصُّحبةِ ما ليسَ لغيرِهم، ولا يُدَانيهِم مَنْ بعدَهُم؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» (متفق

عليه)، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُمْ خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»؛ فوَاجبٌ علينا مَحبَّتُهم، والتَّرضِّي عنْهُم، واقْتِفاءُ أَثَرِهِم، ونَشْرُ فضائِلِهم، ومعرفةُ منزلتِهم وقدرِهِم.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واستمسِكُوا من الإسلام بالعُرْوة الوُثْقَى.

أيُّها المسلمون:

اصطفَى اللَّه لهذه الأُمَّة خيرَ الرُّسُل، واختارَ سبحانه لصُحبةِ نَبيِّه خيرَ رجالٍ في أُمَّته، لا كانَ ولا يكونُ مِثْلُهُم، غَفر اللَّهُ ذنْبَهم ورَفَع مَكَانَتَهم ورضِيَ عنهم؛ بإيمانهم وإخلاصهم وصُحبتهم وصِدْق نُصرتِهم للنَّبيِّ ﷺ؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

ومِمَّا يزيدُ في الإيمان: معرفةُ سِيَرِ من اتَّصَف بالصُّحبة، وبَادَر إلى التَّصديقِ، وآزَر النَّبيَّ ﷺ ونَصَرَه، قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «مِنَ السُّنَّةِ: ذِكْرُ مَحَاسِنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ»، والدُّعاءُ لهم قُرْبةٌ، والاقتداءُ بهم وَسِيلةٌ.

ومَحبَّتُهم من أُصولِ الدِّين، قال الطَّحاويُّ رحمه الله: «وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ».

وأفضلُ أولئكَ الجِيلِ الفَذِّ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وهو أرسخُهم إيماناً وأغزَرُهم علماً، وأكثرُهم ملازمةً للنَّبيِّ ﷺ.

ثمَّ عُمَرُ الفَارُوقُ رضي الله عنه، يَلِيهِ في الفَضْلِ والخِلَافةِ، كان حِصناً حصيناً للإسلام في قوَّة سيرتِه وكمالِ عدْله، وما لَقِيَه الشَّيطانُ قطُّ سَالِكاً فَجّاً إلَّا وسَلَكَ فَجّاً غيْرَ فَجِّه.

وثالثُهُم: كريمُ اليَد، عَظيمُ النَّفْس، أَبُو عَبدِ اللَّه، عثمانُ بنُ عَفَّانَ بن أَبِي العَاصِي، ذُو النُّورَيْن، أميرُ المُؤْمِنِين، وثالثُ الخُلَفاء الرَّاشدين، وصاحبُ الهِجْرَتَيْن، وأحدُ العَشَرةِ المُبشَّرين بالجَنةَّ، ورَفِيقُ النَّبيِّ ﷺ فيها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَمَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ رَفِيقٌ مِنْ أُمَّتِهِ مَعَهُ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ هَذَا رَفِيقِي مَعِي فِي الجَنَّةِ**» (رواه أحمد).

يَجْتَمِعُ مع النَّبيِّ ﷺ في جَدِّه الثَّالِث، وهو حَفِيدُ عَمَّةِ النَّبيِّ ﷺ

البَيْضَاء بنتِ عبد المطلِّب، لَمْ يَتَزَوَّجْ رجُلٌ من الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ ابنتَيْ نبيٍّ غيرَه.

أَسْلَمَ قَدِيماً على يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، فكانَ رَابعَ أربعةٍ في الإسلام، وبَايَعَ عنه ﷺ بيَدِه في بَيْعَةِ الرِّضْوَان، وقال: «**هَذِهِ يَدِي، وَهَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ**» (رواه أحمد).

أَطْوَلُ الخُلَفاء الرَّاشِدِين خِلَافةً، مَكَثَ أَمِيراً لِلْمُؤْمِنِين اثنَيْ عَشَرَ عَاماً.

كثيرُ العبادةِ خَاشعٌ للَّه؛ لمَّا نَزل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾؛ قال عُمَرُ رضي الله عنه: «هُوَ عُثْمَانُ».

مُطِيعٌ للنَّبِيِّ ﷺ، مُقْتَفٍ أَثَرَه، وَفِيٌّ له ولِصَاحِبَيْه أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، قال: «صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبَايَعْتُهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عز وجل، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ» (رواه البخاري)، قال عبد الرَّحْمن بن سَمُرَة رضي الله عنه: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ».

وَجِلٌ مِنْ رَبِّه يَتَذَكَّرُ آخِرَتَه، كثيرُ الزِّيارَةِ لِلْمَقَابِر، إِذَا وَقَفَ على القَبْرِ يَبْكِي حتَّى تَبْتَلَّ لِحْيَتُه.

ثَابِتٌ بِيَقِينِه، قُدوةٌ لغيره؛ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالاقتداء به، ووَصفه بالأمين؛ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ بَعْدِي فِتْنَةً وَاخْتِلَافاً** - أَوْ قَالَ: **اخْتِلَافاً وَفِتْنَةً** -، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ: فَمَنْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

عَلَيْكُمْ بِالأَمِينِ وَأَصْحَابِهِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عُثْمَانَ بِذَلِكَ» (رواه أحمد).

ومَنْ تَعرَّفَ على اللَّهِ في الرَّخَاء؛ عَرَفَهُ في الشِّدَّة، وعَصَمَهُ من الفِتَن، ذَكَر النَّبيُّ ﷺ الفِتَن ذات يومٍ فقال: «**هَذَا يَوْمَئِذٍ عَلَى الهُدَى** - وَأَشَارَ إِلَى عُثْمَانَ -» (رواه الترمذي).

سليمُ الصَّدْر؛ لا يَحمِلُ حَسَداً أو حِقْداً على أَحَدٍ؛ قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعُثْمَانُ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾».

عَفِيفٌ، حافظٌ لدينِه، يقول: «فَوَاللَّهِ! مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ» (رواه أحمد).

دَمْثُ الأَخْلَاق، وَهَبَهُ اللَّه عِلماً؛ فكان الصَّحَابةُ يَرْجِعُونَ إليه، قال ابن سِيرِين رحمه الله: «كَانُوا يَرَوْنَ أَعْلَمَهُمْ بِالمَنَاسِكِ عُثْمَانَ».

مَنَحَهُ اللَّهُ إيماناً رَاسِخاً وعَقْلاً رَاجِحاً، بَعثَه النَّبيُّ ﷺ يُفاوِضُ قُرَيْشاً في الحُدَيْبية، قال ابنُ عمر رضي الله عنهما: «فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ» (رواه البخاري)، قال الشَّعْبِيُّ رحمه الله: «كَانَ عُثْمَانُ فِي قُرَيْشٍ مُحَبَّباً يُوصُونَ إِلَيْهِ وَيُعَظِّمُونَهُ».

وجَعَلَه عُمَرُ رضي الله عنه أَحَدَ أَصحابِ الشُّورَى السِّتَّة مِنْ بَعْدِه، فكانَ خيرَهم؛ فاختارُوه خليفةً للمُؤْمِنِين ولَمْ يَعْدِلُوا به أَحَداً، قال ابن مسعُودٍ رضي الله عنه حِينَ بايَعُوه بالخِلَافة: «بَايَعْنَا خَيْرَنَا، ولَمْ نَأْلُ»، قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى بَيْعَةِ أَحَدٍ مَا اجْتَمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ عُثْمَانَ».

والإنفاقُ في مَرْضَاةِ اللَّهِ مِنْ عَلَاماتِ صِدْق الإيمَانِ ومَحبَّة المُؤْمِنِينَ والتَّوكُّلِ على اللَّه، ولِعُثْمَانَ ﵁ اليَدُ الطُّولَى في البَذْل والعَطاء، نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ في وُجُوهِ القَوْمِ يومَ جَيْشِ العُسْرة - والمُسْلِمُون يومئذٍ في شدَّةٍ وفاقَة - فقال: «**مَنْ يُجَهِّزْ هَؤُلَاءِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ،** قَالَ عُثْمَانُ: فَجَهَّزْتُهُمْ حَتَّى لَمْ يَفْقِدُوا عِقَالاً وَلَا خِطَاماً» (رواه النسائي).

واشْتَرَى بيتاً؛ لِتَوْسِعَةِ مسجد النَّبِيِّ ﷺ في عَصْرِ النُّبوَّة لمَّا سَمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ يُوَسِّعُ لَنَا بِهَذَا البَيْتِ فِي المَسْجِدِ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ؟**» (رواه أحمد).

وأَعْتقَ من المَمَالِيكِ ما لا يُحصَى، كان يقول: «مَا مَرَّتْ عَلَيَّ جُمُعَةٌ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْتِقُ فِيهَا رَقَبَةً»، وقال لِمَوَالِيهِ يومَ حِصَارِه: «مَنْ أَغْمَدَ سَيْفَهُ؛ فَهُوَ حُرٌّ».

والحياءُ خُلُقٌ رَفيعٌ يَجْمَعُ المُرُوءَات، وعُثْمانُ ﵁ كان حيِيّاً حتى مع نفْسه، يكون في بيته وحده والبابُ مُغلَقٌ عليه فما يَخلعُ عنه ثوبَه ليفيض الماءَ عليه، ويَمنَعه الحياءُ أن يُقيمَ صُلْبَه وهو يَغتسل، وليس في هذه الأمَّة من يُدانيه في حَيَائِه؛ قال ﵊: «**أَشَدُّ أُمَّتِي حَيَاءً: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ**» (رواه أبو نُعَيْم).

وكان النَّبيُّ ﷺ يَسْتَحِي منه، قَعد النَّبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ في مكانٍ فيه ماءٌ قد انكشَف ثوبُه عن ركبتَيْه، فلمَّا دَخلَ عُثْمَانُ غطَّاها (متفق عليه)، والملائكةُ تَسْتَحِي منه، كان النَّبيُّ ﷺ مُضْطَجِعاً على فِرَاشِه، فلمَّا دَخلَ

عُثْمَانُ جَلَس وقال: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ؟» (رواه مسلم).

والقرآنُ كلامُ ربِّ العَالَمِين، وصَفَهُ اللَّهُ بالبرَكةِ والكَرَمِ والهُدَى، مَنْ قَرُبَ منهُ نَالَتْهُ البرَكة، وعَلَتْ عند اللَّهِ دَرَجتُه، وكان ﵁ مُحِبّاً لِكتابِ اللَّه، قال الحسن: «مَا مَاتَ عُثْمَانُ حَتَّى خَرِقَ - أَيْ: خَلِقَ - مُصْحَفُهُ مِنْ كَثْرَةِ مَا يُدِيمُ النَّظَرَ فِيهِ»، وقَرَأَ القُرآنَ كاملاً مراراً في ركعةٍ واحدةٍ من العِشَاء إلى الفجر، وكان يقول: «لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ مَا شَبِعْنَا مِنْ كَلَامِ رَبِّنَا».

ومِنْ حَسَنَاتِهِ العَظِيمة: جَمْعُ النَّاسِ على قِرَاءةٍ واحدةٍ، وأَمْرِهِ بِكِتَابةِ المُصْحَفِ على العَرْضَةِ الأَخِيرَةِ الَّتي دَارَسَ فيها جِبْرِيلُ النَّبيَّ ﷺ في آخر حياته؛ فأمرَ زيدَ بنَ ثابتٍ ﵁ أن يَكْتُبَ المُصْحَف كاملاً بخطِّ يَدِه، ويُفرِّقَهُ في الأَمْصَار، وسُمِّيَ نَوْعُ خَطِّ المُصْحَف بِاسْمِه، فقيلَ: «الرَّسْمُ العُثْمَانِيُّ»؛ نِسْبةً إلى أَمْرِه وزمانِه وإِمَارَتِه، نفعَه القرآن ونفعَ النَّاسَ به، ولا فلاحَ لهذه الأُمَّةِ إلَّا بالقرآنِ والعَمَلِ به، قال ابنُ كثيرٍ ﵀: «وَفِي عَصْرِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ امْتَدَّتِ المَمَالِكُ الإِسْلَامِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ القُرْآنِ».

ولِتَعَلُّقِه بكِتاب اللَّه؛ كانت خاتِمَتُه عليه، فقُتِلَ والمُصْحَف في حِجْرِه، وسَالَ الدَّمُ على مُصْحَفه.

ومَعَ عبادتِه وخَشْيَتِه للَّه كان خليفةً راشداً مُحَنَّكاً، فتَحَ اللَّهُ على يَدَيْهِ كثيراً من الأَقَالِيم والأَمْصَار، واتَّسَعتْ رِقْعَةُ المُسْلِمين؛ قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» (رواه مسلم)، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا كُلُّهُ تَحَقَّقَ وُقُوعُهُ وَتَأَكَّدَ وَتَوَطَّنَ فِي زَمَانِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

وكان النَّاس في خِلَافَتِه في عَيْشٍ رَغِيدٍ وأَمنٍ وَطِيدٍ، وفي أُلْفَةٍ واتِّفاقٍ، وصَفَ الحَسَنُ حالَهُم بقوله: «الأُعْطِيَاتُ فِي خِلَافَتِهِ جَارِيَةٌ، وَالأَرْزَاقُ دَارَّةٌ، وَالعَدُوُّ مُتَّقًى، وَذَاتُ البَيْنِ حَسَنٌ، وَالخَيْرُ كَثِيرٌ، وَمَا مُؤْمِنٌ يَخَافُ مُؤْمِناً، مَنْ لَقِيَهُ فَهُوَ أَخُوهُ مَنْ كَانَ».

ونَهْجُ الصَّحَابةِ: سَلَامةُ قلوبِهم لبعضهم، ومحبَّتُهم لبعضهم، وتوقيرُ أَحَدِهِم الآخر، وكان الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم يُجِلُّون عُثْمَانَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ وبعدَ مَمَاتِه، وكان مُفضَّلاً عندَهُم، قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا نَعُدُّ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيٌّ وَأَصْحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ» (رواه أحمد)، وقال عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وَفَاةِ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ: «كَانَ عُثْمَانُ خَيْرَنَا وَأَحْسَنَنَا طَهُوراً»، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّهُ لَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِم وَأَتْقَاهُمْ لِلرَّبِّ».

وكان يحِبُّ صحابةَ رسولِ اللَّه ﷺ؛ فكَنَّى نفسَه باسمِ أَبي بكرٍ: عبدِ اللَّه، ومِنْ أَبنائِه مَنِ اسمُه عُمَرُ، ومِنْ بَناتِه مَنْ سمَّاهَا عَائِشة.

ولـمَّا عمَّ الرَّخاءُ ورَسَخَ الأَمْنُ وانْتَشَر الإسلامُ في الأرض في خِلَافَتِه؛ استَعْجَل مَرْضَى القلوبِ موتَه، واسْتَطَالُوا حَيَاتَه؛ فقَتَلُوه وعُمُرُه

اثْنَانِ وثَمَانُونَ عاماً، وهو صَائمٌ والمُصْحَفُ في حِجْرِه وهو يَتْلُو كِتابَ اللَّه، وكان مَقْتَلُه أوَّلَ الفِتَنِ في هذه الأُمَّة؛ قال حذيفةُ رضي الله عنه: «أَوَّلُ الفِتَنِ: قَتْلُ عُثْمَانَ، وآخِرُ الفِتَنِ: الدَّجَّالُ».

وحَزِنَ الصَّحابةُ لِمَقْتَلِهِ؛ قال عليٌّ رضي الله عنه يومَ مَقْتَلِ عُثْمَان: «أَنْكَرْتُ نَفْسِي»، ولَمَّا بلغَ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه خبرُ مَقْتَلِهِ؛ اسْتَغْفَرَ له وتَرَحَّمَ له ودَعَا على مَنْ قَتَلَهُ بقوله: «اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ، ثُمَّ خُذْهُمْ»، وكان سَعْدٌ مُجَابَ الدَّعْوَة، وأَقْسَمَ بعضُ السَّلف أنَّه ما مَاتَ أَحَدٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إلَّا مَقْتُولاً.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فوَاجِبٌ مَحبَّةُ صحابةِ رسولِ اللَّه ﷺ والذَّبُّ عنهم ولُزُومُ طَرِيقَتِهِم؛ فقد حَفِظوا دينَ اللَّه وشريعتَه، وكانوا أَكْمَلَ النَّاسِ حُبّاً للنَّبيِّ ﷺ وتعظيماً له وتأسِّياً به.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

المؤمنُ نفعُه مُتعدٍّ لغيره، وما قدَّمَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه لنفْسِه وللإسلام والمسلِمين - مِنَ الأَعْمَالِ والفُتُوحاتِ، ودُخولِ النَّاسِ في الدِّين، وجَمْعِه القرآنَ - كلُّ ذلك حَسنةٌ من حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، فهو الَّذي دعاه للإسلام فأَسْلَمَ، فكان أحدَ السَّابقِين ومِنَ الخُلَفاءِ الرَّاشدين المأمور بالاقتداء بهم.

فعلى كلِّ مُسْلِم أَنْ يَدْعُوَ غيرَه إلى هذا الدِّينِ والتَّمسُّكِ به؛ «**فَوَاللَّهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً؛ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»، واللَّهُ ذُو الفضلِ العظيم.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، فتقوى الله طريقُ الهُدى، ومُخالفَتُها سبيلُ الشَّقاء.

أيُّها المسلمون:

خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ وفَاضلَ بينهم، وخيرُ العبادِ نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ، فاصْطَفَاهُ لنفسِه وابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِه، وخيرُ صَحْبٍ للرُّسُلِ أصحابُ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وخيرُهُم خلفاؤه الأربعة من بعده، وأكمَلُهم وأعلاهم منزلة: الصِّدِّيقُ الأكبرُ، ثمَّ عمرُ الفاروقُ، ثمَّ ذُو النُّورَيْنِ عثمانُ، ورابعُ الأربعةِ العُظماء: أَبُو الحَسَن، عَلِيُّ بنُ أبي طالبِ بنِ عبد المُطَّلِب، ابن عمِ النَّبيِّ ﷺ.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثاني والعشرين من شهر ذي القَعدة، سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

كنَّاه النَّبيُّ ﷺ بأَبِي تُرابٍ، قال سهل بن سعد: «مَا كَانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَبِي تُرَابٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا دُعِيَ بِهَا، وَمَا سَمَّاهُ أَبُو تُرَابٍ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ» (متفق عليه).

كان في حِجْرِ رسولِ اللَّه ﷺ قبل الإسلام؛ فتَرَبَّى في بيتِه، وبَادَرَ إلى الإسلام وهو دُونَ عَشْرِ سِنِينَ.

وكان أهلُ مكَّةَ يَضَعُونَ عندَ رسولِ اللَّه وَدَائِعَهُم؛ لِمَا يَعْلَمُونَ من صدقِه وأَمَانتِه، فلمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ أَنْ يُهَاجِرَ أَمَرَ عَلِيّاً رضي الله عنه أَنْ يَتَخلَّفَ عنه بمَكَّةَ حتَّى يُؤَدِّيَ عنه الوَدَائِعَ الَّتي كانت عنده للنَّاس، فلمَّا أَدَّاهَا هَاجَرَ رضي الله عنه إلى المدينة، وزَوَّجَهُ النَّبيُّ ﷺ ابْنَتَه فاطمة رضي الله عنها وأَعَانَهُ في جَهَازِهَا.

شَهِدَ له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة أَكْثَرَ من مَرَّةٍ، وأَخْبَرَ أنَّه من الشُّهَدَاء، وأنَّه يُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه ويُحِبُّه اللَّهُ ورسولُه، وكلُّ مُؤْمنٍ تبعَ النَّبيَّ ﷺ فهو منه كما قال الخليل: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وتأكيداً لإيمانِ عليٍّ رضي الله عنه قال له النَّبيُّ ﷺ: «**أَنْتَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْكَ**» (رواه البخاري).

والمؤمنون يَتَوَلَّوْنَ اللَّهَ ورسولَه المُوَالَاةَ المُضَادَّةَ للمُعَادَاة، وأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ عَلِيّاً من المؤمنين الَّذين يتوَلَّوْن المُؤْمِنِينَ ويتوَلَّوْنَه، فقال: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ؛ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**» (رواه الترمذي)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ إِثْبَاتُ إِيمَانِ عَلِيٍّ فِي البَاطِنِ»، و«لَمَّا نَزَلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَحَسَناً وَحُسَيْناً، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي**» (رواه مسلم).

حُبُّه علامةُ إيمانٍ، وبغضُه علامةُ نِفَاقٍ، قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ! إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ» (رواه مسلم)، وهذا نظيرُ قولِ الرَّسُولِ ﷺ: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ**» (متفق عليه)، فمَنْ أَحَبَّ عَلِيّاً وأَحَبَّ مَنْ هُوَ أَوْلَى منه بالمَحبَّة وأَعْلَى في المَنْزِلَةِ كالخُلَفَاءِ الثَّلاثةِ الرَّاشِدِين؛ فقد أَتَى شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ الإِيمَان، ومَنْ أَبْغَضَهُ أَوْ أَبْغَضَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منه مِن الصَّحابةِ فقد وقع في شُعْبَةٍ مِنْ شُعَبِ النِّفاق.

نَابَ عن النَّبِيِّ ﷺ في تبليغ رَسَائِلِهِ العَامَّةِ غير مرَّة، وأَوْكَلَ إليه النَّبيُّ ﷺ بعضَ أُمُورِه الخاصَّةِ به، ففي الحجِّ: «أَمَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَقُومَ عَلَى بُدْنِهِ، وَأَنْ يَقْسِمَهَا كُلَّهَا، لُحُومَهَا وَجُلُودَهَا وَجِلَالَهَا، وَلَا يُعْطِيَ فِي جِزَارَتِهَا شَيْئاً» (متفق عليه)، ولمَّا وجَدَ النَّبيُّ ﷺ في مرضِ مَوْتِه يوماً خِفَّةً خرج يُهَادَى بين عمِّهِ العبَّاسِ بنِ عبد المُطَّلِب وعَلِيِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولمَّا تُوُفِّي النَّبيُّ ﷺ كان عَلِيٌّ ممَّنْ وَلِيَ تَغْسِيلَهُ ودَفْنَه مع قرابته.

اشتهر بالشَّجاعةِ والإِقْدَام، وأَعْطَاهُ النَّبيُّ ﷺ اللِّواءَ في مواطنَ كثيرة، وشَهِدَ جميعَ المَعَارِكِ مع النَّبِيِّ ﷺ، وقَاتَلَ فيها، وأَبْلَى فيها بلاءً حسناً؛ ففي غزوةِ بَدْرٍ أَرَادَ الوليدُ بنُ عُتْبَةَ - أَحَدُ رُؤُوسِ الكُفْرِ - أَنْ يُظْهِرَ شَجَاعَتَه، فَبَرَزَ له عَلِيُّ بنُ أبي طالب - وعُمُرُه عِشْرُون عاماً -؛ فَقَتَلَه.

وفي أُحُدٍ ثَبَتَ لمَّا انْكَشَف المُسْلِمُون.

وفي غزوةِ الخَنْدَقِ ظَهرَ عَمْرُو بنُ وُدٍّ للمُبَارَزَةِ - وهو مِنْ صَنَادِيدِ المُشْرِكِين، وكانت النَّاسُ تَهَابُ لِقَاءَه -، فَبَرَزَ له عَلِيٌّ؛ فقَتَلَه.

وشَهِدَ الحُدَيْبية، فَبَايَعَ مع الصَّحابةِ النَّبيَّ ﷺ تحتَ الشَّجَرَةِ على الموت، وكان هُوَ مَنْ كَتَبَ الصُّلحَ بين النَّبيِّ ﷺ وأَهْلِ مكَّةَ.

وفي خَيْبَرَ حَمَلَ رضي الله عنه رايةَ النَّبيِّ ﷺ، وقَتَلَ زَعِيمَ اليَهُودِ - مَرْحَباً -، وافْتَتَحَ حِصْنَهُ بعد أَنِ اسْتَعْصَى على النَّاس.

وشَهِدَ غزوةَ حُنينٍ، قال أنسٌ رضي الله عنه: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَشَدَّ النَّاسِ قِتَالاً بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ».

وفي غزوةِ تَبُوك اسْتَخْلَفَهُ النَّبيُّ ﷺ على المدينة؛ لِمَا يَرَى مِنْ أَمَانَتِه، وقال له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟** - أَيْ: فِي الصُّحْبَةِ وَالمَنْزِلَة، لَا النُّبُوَّةِ -» (متفق عليه).

كان رضي الله عنه كريمَ المَعْشَر، حَسَنَ الخُلُق، وَفِيّاً، مُعترِفاً بفضلِ مَنْ سَبَقَه، مُوَقِّراً للخُلَفَاء قبلَه، مُظْهِراً لمَحبَّتِهم؛ فبادر إلى بَيْعَةِ أَبي بكرٍ رضي الله عنه بعد وفاةِ الرَّسولِ ﷺ، ثمَّ بايعَ عُمَرَ وعُثْمَانَ في خِلَافَتِهما، وكان لثلاثتهم: نِعْمَ الوَزِيرُ والمُسْتَشَارُ في القَضَاء والحَرْب والفَتْوَى، قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ وَلَّى أَبَا بَكْرٍ أَمْرَ دِينِهِمْ؛ فَوَلَّاهُ المُسْلِمُونَ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ، فَبَايَعَهُ المُسْلِمُونَ وَبَايَعْتُهُ مَعَهُمْ، فَكُنْتُ أَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي، وَآخُذُ إِذَا أَعْطَانِي، وَكُنْتُ سَوْطاً بَيْنَ يَدَيْهِ فِي إِقَامَةِ الحُدُودِ»، وقال في عُمَرَ وعُثْمانَ مثل ذلك.

وزوَّج بِنْتَه - أُمَّ كلثُومٍ - لِعُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه، ولمَّا تُوُفِّي عمر رضي الله عنه قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا حَفْصٍ، فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِصَحِيفَتِهِ مِنْكَ» (رواه أحمد)، وتَوَاتَرَ عنه رضي الله عنه أنَّه كان يقول: «خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ».

وكان مُحِبّاً لعُثْمَانَ رضي الله عنه مُجِلّاً له، قال: «لَوْ سَيَّرَنِي - أَيْ: أَخْرَجَنِي - عُثْمَانُ إِلَى صِرَارٍ - مَوْضِعٍ شَرْقَ المَدِينَةِ - لَسَمِعْتُ لَهُ وَأَطَعْتُ».

ولمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه لم يكن أَحَدٌ أَحَقَّ بالخِلَافةِ منه، فَبَايَعَهُ النَّاسُ وارْتَضَوْه، وكان المسلمون كلُّهم مُعْترِفِين بفضلِه وسابقَتِه بعد قَتْلِ عثمان، وأنَّه لَمْ يبقَ في الصَّحابةِ مَنْ يُمَاثِلُه في زمن خلافته، قالت عائشةُ رضي الله عنها لعبدِ اللَّه بن بُدَيْلٍ يومَ وفاةِ عُثْمان: «الْزَمْ عَلِيّاً؛ فَوَاللَّهِ مَا غَيَّرَ وَلَا بَدَّلَ» (رواه ابن أبي شيبة).

وقام في النَّاس في خلافته بالعدل؛ لا يَحِيدُ عن الكتاب والسُّنَّة، وكان يَتَحرَّى سُنَّةَ الخُلَفَاء الرَّاشِدِين مَنْ قبلَه، ويَعْمَلُ بها، ولا يُخَالِفُها، قال ابن بَطَّة رحمه الله: «لَا نَعْلَمُ أَحَداً مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ رَوَى أَنَّ عَلِيّاً رضي الله عنه خَالَفَ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ وَلَا عُثْمَانَ فِي شَيْءٍ مِمَّا حَكَمُوا بِهِ».

كان عَالِماً مُفْتياً، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِذَا حَدَّثَنَا ثِقَةٌ عَنْ عَلِيٍّ بِفُتْيَا؛ لَا نَعْدُوهَا»، قال النَّوويُّ رحمه الله: «وَسُؤَالُ كِبَارِ الصَّحَابَةِ لَهُ

وَرُجُوعُهُمْ إِلَى فَتَاوِيهِ وَأَقْوَالِهِ فِي المَوَاطِنِ الكَثِيرَةِ وَالمَسَائِلِ المُعْضِلَاتِ مَشْهُورٌ».

كان قَاضِياً لا يُدَانَى في الفَصْلِ بين الخُصُوم، بل كان أَقْضَى الصَّحابةِ وأَدقَّهُم نَظَراً في الخُصُومات، بَعَثَهُ النَّبيُّ ﷺ إلى أهل اليمنِ قاضياً، وقال عُمَرُ رضي الله عنه: «أَقْضَانَا عَلِيٌّ».

ومع سَعَةِ عِلْمِه كان وَرِعاً وَقَّافاً عمَّا لا يَعْلَم، خرج على أصحابِه يوماً فقال: «مَا أَبْرَدَهَا عَلَى الكَبِدِ! مَا أَبْرَدَهَا عَلَى الكَبِدِ! فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ لِلشَّيْءِ لَا تَعْلَمُهُ: اللَّهُ أَعْلَمُ».

ولَمْ يَخُصَّه النَّبيُّ ﷺ بعِلْمٍ دُونَ الأُمَّة، قال أَبُو جُحَيْفَةَ رضي الله عنه لعَلِيٍّ رضي الله عنه: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ! مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْماً يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً فِي القُرْآنِ» (رواه البخاري).

مُلازمٌ للسُّنَّة حَرِيصٌ عليها، يقول: «مَا كُنْتُ لِأَدَعَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ» (رواه البخاري)، شديدُ التَّحرِّي فيما يَنْقُلُ عن النَّبيِّ ﷺ، قال رضي الله عنه: «إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ» (رواه البخاري).

نَاصِحٌ للأُمَّة، كثيرُ الموعظةِ والعبادةِ والذِّكْر، حريصٌ على الخير والإنفاق.

مَتِينُ الدِّيانَة، لا يُحَابِي في دين اللَّه أحداً؛ بُلِي في خِلافته بفئةٍ جَعَلَتْه إلهاً فحرَّقهم، وبُلِي بفئةٍ كفَّرَتْه فقَاتَلَهُم.

كان مُتقلِّلاً من الدُّنيا مُعْرِضاً عن زَهْرَتِها وفِتْنَتِها، قال مُسْلِمُ بن هُرْمُزَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَعْطَى عَلِيٌّ النَّاسَ فِي سَنَةٍ أَرْبَعَ عَطِيَّاتٍ، ثُمَّ كَنَسَ بَيْتَ المَالِ وَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَقَالَ: يَا دُنْيَا! غُرِّي غَيْرِي!».

ولشَجاعَتِه وقُوَّةِ شَكِيمتِه لَمْ يَقْتُلْه الخوارجُ إلَّا غَدْراً، فقُتِل شَهِيداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو خارجٌ إلى صلاة الفجر.

ولَمْ يُخَلِّفْ من مَتَاعِ الدُّنيا شيئاً، قال الحسنُ بن عَلِيٍّ - بعد قَتلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: «مَا تَرَكَ مِنْ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا سَبْعَ مِئَةِ دِرْهَمٍ مِنْ عَطَائِهِ، كَانَ يَرْصُدُهَا لِخَادِمٍ لِأَهْلِهِ» (رواه أحمد).

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فَحُبُّ الصَّحابةِ دِينٌ وقُرْبَة، وكلُّ خيرٍ فيه المُسلِمُون إنَّما هو ببركةِ ما فعله الصَّحابةُ الَّذين بلَّغوا الدِّين، واللَّهُ خَصَّ الخلفاءَ الرَّاشِدين بفضائلَ لَمْ يَخْتَصَّ غيرَهم بها، شَهِدَ لهم النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهُدَى والرَّشاد، وأَمَرَ باتِّبَاعِ سُنَّتِهم ولزومِ طَرِيقِهِم، وخيرُ الصَّحابةِ تَبَعٌ لخيرِ الخلفاء الرَّاشِدين، قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ؛ فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الهُدَى المُسْتَقِيمِ».

ومَنْ أحبَّ الصَّحابةَ حُشِرَ معهم، ومِنْ حُبِّهِم: نُصْرَتُهُم والذَّبُّ عنهم والثَّناءُ عليهم والاقتداءُ بهم، ومِنْ أَسْبَابِ مَحبَّتِهِم: مطالعةُ سِيَرِهِم وسَماعُها.

أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

فكَمَا خُصَّ بعضُ الصَّحابةِ بِمَنَاقِبَ خاصَّة، فكذلكَ اختُصَّ عامَّتُهُم بالفضلِ ممَّن كان منهم من أهل السَّابقةِ والمَشَاهِدِ العَظِيمَة؛ فمَنْ أَنْفَقَ مِنْ قبلِ صُلْحِ الحُدَيْبِيةِ وقَاتَلَ أَفْضلُ ممَّن أنفَقَ مِنْ بَعْدِه وقَاتَل، والمُهَاجِرُونَ مُقَدَّمُونَ على الأَنْصَار، واللَّهُ قال لِأَهْلِ بَدْرٍ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» (متفق عليه)، ولا يَدْخُلُ النَّارَ أحدٌ بَايَعَ تحتَ الشَّجَرَةِ؛ بل قد رَضِيَ اللَّه عنهم ورَضُوا عنه، وقال النَّبيُّ ﷺ لمَنْ شَهِدَ الحُدَيْبِيَة: «**أَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ**» (متفق عليه).

واللَّهُ وَعَدَ جميعَ الصَّحَابةِ بالجَنَّة، قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجَنَّةِ، قال ابن حَزْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ فِي الجَنَّةِ».

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الفصل الثَّاني

نِسَــاءٌ مُؤْمِنَاتٌ

أُمَّهَاتُ المُؤْمِنِينَ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فتَقْوى اللَّه ذِكرى لكلِّ أوَّابٍ، ونجاةٌ للعباد من العذاب.

أيُّها المسلمون:

تَسْعَدُ المرأةُ المُسْلِمةُ باقتفاء أَثَرِ خَيرِ نِساءٍ عِشْنَ في أفضلِ القُرُون، وتَرَبَّيْنَ في أَجلِّ البيوت - بيتِ النُّبوَّة -، أعلى اللَّهُ مَكانَتَهُنَّ وأَجلَّ قَدْرَهنَّ، ونَزَلَ القُرْآنُ بالثَّناءِ عَلَيْهنَّ؛ قال ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾، زوجاتٌ مبارَكاتٌ ونساءٌ عظيماتٌ.

أُوْلَاهنَّ: المرأةُ العَاقِلةُ الحَاذِقَة، ذاتُ الدِّين والنَّسَب: **خَدِيجةُ**

(١) أُلقيت يوم الجمعة، السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ست وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

بنتُ خُوَيْلَدٍ ﵂، نَشَأَتْ على التَّخلُّق بالفضائل، والتَّحَلِّي بالآداب والكرَم، واتَّصَفَتْ بالعِفَّةِ والشَّرَف، كانت تُدْعَى بيْن نِساءِ مكَّةَ بالطَّاهِرَة.

تزوَّجَها النَّبيُّ ﷺ فَكَانَتْ نِعْمَ الزَّوجةُ له، آوَتْهُ بنَفْسِها ومالِها ورَجَاحَةِ عَقْلِها، وفي أَحْزَانِه ﵊ كان يَأْوِي إليها، ويَبُثُّ إليها هُمُومَه، نَزلَ عليه الوَحْيُ أَوَّلَ نزولِه فَرَجَعَ إليها يَرْجُفُ فُؤَادُه من هَوْلِ ما رَأَى وقالَ لها: «**مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي،** - فَتَلَقَّتْهُ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ - وقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، وَاللَّهِ! مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً» (متفق عليه).

لَاحَ الإسلامُ في دَارِهَا فكانتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ من هذه الأُمَّة، قال ابن الأَثِيرِ ﵀: «خَدِيجَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ إِسْلَاماً بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، لَمْ يَتَقَدَّمْهَا رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ»، عَظُمَتِ الشَّدائدُ على النَّبيِّ ﷺ في مَطْلَعِ دعوتِه واشتدَّ الإِيذَاء؛ فكانت له قَلْباً حَانِياً ورَأْياً ثَاقِباً، لا يَسْمَعُ النَّبيُّ ﷺ من النَّاس شيئاً يَكْرَهُه ثمَّ يَرْجِعُ إليها إلَّا ثَبَّتَتْه وهوَّنَتْ عليه؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ ﷻ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ**» (رواه أحمد).

عظيمةٌ بارَّةٌ بِزَوْجِهَا وأمٌّ حَنُونٌ، جميعُ أولادِ النَّبيِّ ﷺ منها سِوى إبراهيم، أَدَبُهَا رَفِيعٌ، وخُلُقُهَا جَمٌّ، لم تُراجعِ المصطفى ﷺ يوماً في الكلام، ولم تؤذِه في خِصام، قال أبو هريرةَ ﵁: «**أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ خَدِيجَةُ ... بَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ**

مِنْ قَصَبٍ - أَيْ: لُؤْلؤٍ مُجَوَّفٍ -، **لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ**» (متفق عليه)، قال السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّمَا بَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَرْفَعْ صَوْتَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ تُتْعِبْهُ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ، فَلَمْ تَصْخَبْ عَلَيْهِ يَوْماً، وَلَا آذَتْهُ أَبَداً».

كانت راضيةً مَرْضِيَّةً عند ربِّها، قال جبريلُ للنَّبيِّ ﷺ: «**فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ** - أَيْ: خَدِيجَةُ -؛ **فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا** عَزَّ وَجَلَّ **وَمِنِّي**» (متفق عليه)، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهِيَ فَضِيلَةٌ لَا تُعْرَفُ لِامْرَأَةٍ سِوَاهَا»، أَحبَّها اللَّهُ، وأَحَبَّتْهَا الملائكةُ، وأَحبَّها الرَّسولُ ﷺ، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**» (رواه مسلم).

كان النَّبيُّ ﷺ إذا ذكرها أعلى شأنها، وشَكَرَ صُحْبَتَها، تقول عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ لَمْ يَكُنْ يَسْأَمُ مِنْ ثَنَاءٍ عَلَيْهَا وَالِاسْتِغْفَارِ لَهَا» (رواه الطبراني)، حَفِظَ لها وُدَّهَا ووَفَاءَها؛ فكان يُكْرِمُ صَاحِبَاتِهَا بعدَ وَفَاتِهَا، تقول عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: **إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**» (رواه البخاري)، سَمِعَ النَّبيُّ ﷺ صوتَ أُخْتِهَا هَالَةَ بعد وفاتِها؛ فتذكَّرَها وقال: «**اللَّهُمَّ هَالَةَ**» (متفق عليه).

كَمُلَتْ في دينِها وعقلِها وخُلُقِها، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ - امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ -، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ**» (رواه ابن مردويه)، سبقتْ

نساءَ هذه الأُمَّةِ في الخَيْرِيَّة والشَّرَف والسَّنَاء؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ نِسَائِهَا** - أَيْ: فِي زَمَانِهَا - **مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا** - أَيْ: مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ - **خَدِيجَةُ**» (متفق عليه)، صَلَحَتْ في نفْسها وأَصْلَحتْ بيتَها، فَجَنَتْ ثَمَرَةَ جُهدِها؛ فأَصْبَحَتْ - هي وابنتُها - خيرَ نِسَاءِ العَالَمِين في الجَنَّة، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ - امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ -، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ**» (رواه أحمد).

كانت عظيمةً في فؤادِ النَّبيِّ ﷺ فلَمْ يَتزوَّجِ امْرَأَةً قبلَها، ولَمْ يَتزوَّجِ امْرَأَةً معها، ولا تَسَرَّى إلى أَنْ قَضَتْ نَحْبَها، فحَزِن لِفَقْدِها، يقول الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَتْ عَاقِلَةً، جَلِيلَةً، دَيِّنَةً، مَصُونَةً، كَرِيمَةً، مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».

وفي بيت الصِّدقِ والتَّقْوى وُلِدت **عَائِشَةُ بنتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونَشَأَتْ في بيتِ الإيمان؛ فأُمُّها صَحَابيَّةٌ، وأُختُها أسماءُ ذَاتُ النِّطَاقَيْن صَحَابيَّةٌ، وأَخُوها صَحَابيٌّ، ووالدُها صِدِّيقُ هذِه الأُمَّة، تَرَعْرَعَتْ في بيتِ عِلْم؛ كان أَبُوهَا علَّامةَ قريشٍ ونسَّابَتَها، منَحها اللَّهُ ذَكَاءً مُتَدَفِّقاً وحِفْظاً ثَاقِباً، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ يَكُنْ فِي الأُمَمِ مِثْلُ عَائِشَةَ فِي حِفْظِهَا وعِلْمِهَا وَفَصَاحَتِهَا وَعَقْلِهَا».

فاقتْ نساءَ جنسها في العلم والحِكمة، رُزقت في الفقه فهماً، وفي الشِّعر حفظاً، وكانت لعلوم الشريعة وِعاءً، قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَفْقَهُ نِسَاءِ الأُمَّةِ عَلَى الإِطْلَاقِ، ... وَلَا أَعْلَمُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ - بَلْ وَلَا فِي النِّسَاءِ مُطْلَقاً - امْرَأَةً أَعْلَمَ مِنْهَا».

سَمَتْ على النِّساءِ بِفَضَائِلِها وجَمِيلِ عِشْرَتِها؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**» (متفق عليه).

أَحَبَّها النَّبيُّ ﷺ وما كان لِيُحِبَّ إلَّا طيِّباً، يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: **عَائِشَةُ**، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: **أَبُوهَا**» (متفق عليه)، لم يَتَزوَّج بِكراً غيرَها، ولا نَزلَ الوَحْيُ في لِحَافِ امْرَأَةٍ سواها، عفيفةٌ في نفْسِها، عابدةٌ لربِّها، لا تَخْرُجُ من دارِها إلَّا ليلاً؛ لئلَّا يَرَاهَا الرِّجَال، تقول عن نفْسِها: «كُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلاً»، مُحَقِّقَةً قولَ اللَّه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قال القُرطبيُّ رحمه الله: «وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِلُزُومِ النِّسَاءِ بُيُوتَهُنَّ، وَالانْكِفَافِ عَنِ الخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ، ... فَإِنْ مَسَّتِ الحَاجَةُ إِلَى الخُرُوجِ فَلْيَكُنَّ عَلَى تَبَذُّلٍ وَتَسَتُّرٍ تَامٍّ».

واللَّهُ يَبْتَلِي مَنْ يُحِبُّ، والابتلاءُ على قَدْرِ الإيمَان، بُهِتَتْ وَعُمُرها اثنا عشر عاماً، قالت: «فَبَكَيْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى ظَنَّ أَبَوَايَ أَنَّ البُكَاءَ سَيَفْلِقُ كَبِدِي»، واشتدَّ بها البلاء، قالت: «قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً»، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «فَغَارَ اللَّهُ لَهَا، وَأَنْزَلَ بَرَاءَتَهَا فِي عَشْرِ آيَاتٍ تُتْلَى عَلَى الزَّمَانِ»، فَسَمَا ذكرُها وعَلَا شأنُها لِتَسْمَعَ عَفَافَها وهي في صِبَاهَا، فشَهد اللَّهُ لها بأَنَّها من الطَّيِّبات، ووعَدَهَا بمغفرةٍ ورزقٍ كريم، لَمْ تَزَلْ سَاهِرةً على النَّبيِّ ﷺ تُمرِّضُهُ وتقومُ بِخِدْمَتِه حتى تُوُفِّيَ في بيتِها وليلتِها، وبين سَحْرِها ونَحْرِها.

وسَلِيمةُ القلب: **سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أوَّلُ مَنْ تَزَوَّجَ بها النَّبيُّ ﷺ بعد خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وانْفَرَدتْ به نحواً من ثلاثِ سنين، كانت جليلةً نبيلةً، رُزقتْ صفاءَ السريرة، وَهَبَتْ يومَها لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ رِعايةً لِقَلْبِ رسولِ اللَّهِ ﷺ تَبْتَغِي رِضَا ربِّها.

والقَوَّامَةُ الصَّوَّامةُ: **حَفْصَةُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **بِنْتُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَشَأَتْ في بيتِ نُصرة الدِّين وإظهارِ الحقِّ، سبعةٌ مِنْ أَهْلِهَا شَهِدُوا بَدْراً، تقول عنها عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ».

والمُنْفِقَةُ: **زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ الهِلَالِيَّة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ذاتُ البَذْلِ والمُسَارِعَةِ في الخيرات، مَكَثَتْ عند النَّبيِّ ﷺ شهرين، ثمَّ تُوُفِّيَت.

والمُهَاجِرَةُ المُحْتَسِبَة: **أُمُّ حَبِيبَةَ، رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ليس في أزواجِه مَنْ هِيَ أَقْرَبُ نسباً إليه منها، ولا في نسائِه مَنْ هِيَ أَكْثَرُ صَدَاقاً منها، ولا فِيمَنْ تَزَوَّجَ بها وهي نَائِيَةُ الدَّارِ أَبْعَدَ منها، عَقَدَ عليها وهي في الحَبَشَة فَارَّةٌ بدينِها، وأَصْدَقَها عنه صاحبُ الحَبَشَةِ وجَهَّزَها إليه.

والصَّابرةُ الحَيِيَّةُ: **أُمُّ سَلَمَة، هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، من المُهَاجِرَات الأُوَل، لَمَّا عَزَمَتِ الهِجْرَةَ إلى المَدِينَة مع زوجها أَبِي سَلَمَة فرَّقَ قَوْمُهَا بيْنَها وبيْنَ زوجِهَا وطِفلِها، قالت: «فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ، وَأَجْلِسُ بِالأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أُمْسِيَ سَنَةً كَامِلَةً أَوْ قَرِيباً مِنْهَا، حَتَّى أَشْفَقُوا عَلَيَّ، فَأَعَادُوا إِلَيَّ طِفْلِي»، يَقينُها باللَّهِ رَاسِخٌ.

تُوفِّي عنها زوجُها أَبُو سَلَمَةَ ﵁ فقالت دُعَاءً نَبويّاً؛ فعوَّضَهَا اللَّهُ برسولِ اللَّه ﷺ زوجاً لها، تقول: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْراً مِنْهَا،** قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ» (رواه مسلم)؛ فاجعلْ هذا الدُّعاءَ ذُخْراً لك عند حلولِ المُصَائبِ؛ يُعَوِّضْكَ اللَّهُ خيراً من مُصِيبَتِك.

وأمُّ المَسَاكِين: **زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ** ﵂، بِنْتُ عمَّةِ رسول اللَّه ﷺ، نَعِمَتْ بالحَسَبِ والنَّسَبِ والشَّرَفِ والبَهاء، قال عنها أبو نُعَيم ﵀: «الخَاشِعَةُ الرَّاضِيَةُ الأَوَّاهَةُ الرَّاغِبَةُ»، زوَّجهَا اللَّهُ نبيَّه ﷺ بِنَصِّ كِتَابِه، بلا وَلِيٍّ ولا شاهدٍ؛ قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

زواجُ النَّبيِّ ﷺ بها بَرَكةٌ على المُسْلِماتِ إلى قيام السَّاعة، حين فُرِضَ الحجاب على بَنَاتِ حَوَّاء بعدَ أن تَزَوَّجَها؛ لِيَكُونَ صِيانةً للشَّرفِ والعَفافِ والنَّقاء.

سخِيَّةُ العَطاءِ للفقراءِ والضُّعفاء، كثيرةُ البِرِّ والصَّدقة، ومع شريفِ مكانتِها وعُلُوِّ شأنِها كانت تَعْمَلُ بيدها: تَدْبَغُ وتَخْرُزُ وتَتَصَدَّقُ مِنْ كَسْبِها، قالت عنها عائشة ﵂: «مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً خَيْراً فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ؛ أَتْقَى لِلَّهِ، وَأَصْدَقَ حَدِيثاً، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً» (رواه مسلم).

والعَابِدَةُ: **جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ** ﵂، من بني المُصْطَلِق، أَبُوهَا سيِّدٌ مُطاعٌ في قومه، وهي مباركَةٌ في نفْسِها وعلى أَهْلِها، تقول عائشةُ ﵂ عنها: «فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا» (رواه أحمد).

كثيرةُ التَّعبُّدِ لربِّها، قانِتَةٌ لِمَوْلَاهَا، كانت تَجْلِسُ في مُصَلَّاها تَذْكُرُ اللَّهَ إلى نِصْفِ النَّهار، تقول: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ؛ فَقَالَ: **مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟** - يَعْنِي: تَذْكُرِينَ اللَّهَ -، قَالَتْ: نَعَمْ» (رواه مسلم).

والوَجِيهَةُ: **صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ** ﵂، مِنْ ذُرِّيَّةِ هارون ﵇، كانت شريفةً عاقلةً، ذاتَ مكانةٍ ودينٍ وحِلْمٍ ووَقَارٍ، قال لها النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ** - أَيْ: هَارُونَ ﵇ -، **وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ** - أَيْ: مُوسَى ﵇ -، **وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ** - يَعْنِي: نَفْسَهُ -» (رواه الترمذي)، كانت وليمةُ النَّبيِّ ﷺ عليها في زواجِها: السَّمنَ، والأَقِطَ، والتَّمْرَ، فكان زواجاً مُيَسَّراً مبارَكاً.

ووَاصِلَةُ الرَّحِمِ: أُمُّ المُؤْمِنين، **مَيْمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلَالِيَّة** ﵂، مِنْ عُظَمَاء النِّساء، مَنَحَها اللَّهُ صفاءَ القلب، ونَقَاءَ السَّريرَة، وملازمةَ العبادة، تقول عائشةُ ﵂: «أَمَا إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَتْقَانَا لِلَّهِ وَأَوْصَلَنَا لِلرَّحِمِ» (رواه أبو نُعَيم).

وبعدُ، أيُّها المسلِمون:

فتلكَ سيرةُ الخَالِدَات في الإسلام، أُمَّهَاتِ المؤمنين، مَنَاقبُهنَّ مشرِقةٌ، جَمَعْنَ بين المحاسنِ والفَضَائل.

حقيقٌ بنِسَاء المسلمين أَنْ يَجْعَلْنَهنَّ نِبراساً للحياة؛ يَرْتَشِفْنَ من مَعِينِ مآثِرهنَّ، ويَقْتَدِينَ بِهِنَّ في الدِّين والخُلُقِ ومراقبةِ اللَّه، والانقيادِ التَّامِّ للَّهِ ورسولِه، وملازمةِ العبادة، والإكثارِ من الطَّاعَات، والصِّدْقِ في الحديث، وحفْظِ اللِّسان، والبذلِ للفقراء، وتفريجِ كُرُبَاتِ الضُّعَفَاء، والسَّعيِ لإصلاحِ الأَبْنَاء، والصَّبرِ على تقويمِ عِوَجِهم، والتَّحصُّنِ بالعِلم، وسؤالِ العُلَمَاء الرَّاسِخِين، وملازمةِ السِّترِ والعَفاف والقَرَار في البيوت والحجاب، والبُعدِ عن الشُّبُهاتِ والشَّهَوات، والحَذَرِ من طولِ الأملِ والغفلةِ في الحياة، أو الاعتناء بالظَّاهر مع فساد الباطن، وإطلاقِ البصرِ في المُحرَّمات، والخضوعِ بالقول مع الرجال، وَلْيَحْذَرْنَ من الأَبْوَاقِ الدَّاعِيَةِ إلى التَّبرُّج والاختلاطِ بالرِّجال؛ فَشُمُوخُ المرأة وعِزُّها في دِينِها وحجابها.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

زوجاتُ النَّبيِّ ﷺ عِشْنَ معه في بيتٍ مُتَوَاضعٍ، في حُجُرَاتٍ بُنِيَتْ من اللَّبِنِ وسَعَفِ النَّخْل، ولكنَّه مَلِيءٌ بالإيمانِ والتَّقوى.

صَبَرْنَ مع الرَّسُولِ ﷺ على الفقر والجوع؛ كان يأتِي عَلَيْهِنَّ الشَّهْرُ والشَّهران وما يُوقَدَ في بُيُوتِهِنَّ نارٌ، وتأتي أيامٌ وليس في بُيُوتِهِنَّ سِوى تَمْرةٍ واحدةٍ، ويَمُرُّ زَمَنٌ من الدَّهْرِ ليس فيها سِوَى الماءِ بدون طعامٍ؛ قَنَاعَةً في العَيْشِ وصَبراً على موعود اللَّه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أُجُورُهُنَّ مُضَاعَفةٌ مرَّتَيْن: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

خَمسٌ منهنَّ تزوَّجهنَّ عليه الصلاة والسلام وأَعْمَارُهنَّ من الأربعين إلى السِّتِّين عاماً؛ حقَّقَ بذلك رِعايةَ الأراملِ وكفالةَ صبيانِهنَّ الأيتام:

تزوَّجَ **خَدِيجَةَ** رضي الله عنها وعُمُرُهَا أربعون عاماً، ولها ثلاثةُ أولادٍ من غيره، وهو لَمْ يَتزَوَّجْ مِنْ قبْل.

وتزوَّجَ **زَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ** ﵂ وهي أَرْمَلَةٌ نَاهَزَت السِّتِّينَ من عُمُرِهَا.

وتزوَّجَ **أُمَّ سَلَمَةَ** ﵂ وهي أَرْمَلَةٌ، ولها ستَّةُ أولادٍ.

وتزوَّجَ **سودةَ** ﵂ وهي أَرْمَلَةٌ، وعُمْرُهَا خَمْسَةٌ وخَمْسُونَ عاماً.

تزوَّجَ من الأقارب مِنْ بناتِ عمِّه وعمَّتِه، وتزوَّجَ من الأباعد، وكان لهنَّ زَوْجاً رَحِيماً بَرّاً كريماً، جميلَ العِشْرَة مَعهنَّ، دائم البِشْر، مُتَلَطِّفاً مَعهنَّ.

فَمَنْ طَلَبَ السَّعادةَ فَلْيَجْعَلْ خيرَ البَشرِ قُدْوَةً له، وَلْتَلْحَقِ المُسْلِمةُ بِرِكَابِ زوجاتِه الصَّالِحَات، فلا فَلَاحَ للمرأة إلَّا بالاقتفاءِ بمَآثِرِهِنَّ في السِّترِ والصَّلاحِ والتَّقوى والإحسانِ إلى الزَّوجِ والوَلَد.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

اصطفى اللَّهُ مِنْ عباده مَنْ خصَّهُم بالفضائل العَالِيَةِ والنُّعوتِ السَّامِيَة، واختارَ بيوتاً حَوَتْ كُمَّلَ الرِّجالِ الذين حازوا أوصاف الكمال، وتَسَلْسَلَ الفضلُ والتَّكريمُ إلى ذَرَارِيهِم فشَمل ذكورَهم وإناثَهم.

ومِنْ تلك البيوت: بيتُ نبوَّةٍ وإيمانٍ، وشرفٍ وصلاحٍ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اخْتَارَ هَذِهِ البُيُوتَ عَلَى سَائِرِ الأَرْضِ».

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثاني والعشرين من شهر جمادى الأولى، سنة ثمان وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وفي هذِه البيوت: امْرَأَةٌ عَظِيمَةٌ، رَفعَ اللَّهُ شَأْنَهَا، وأَعْلَى مكانَتَها، وجَعلهَا آيةً لجميعِ النَّاس؛ قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، قَصَّ اللَّهُ خَبَرَها وخَبَرَ والدَيْهَا وولدِهَا ونَسَبِهَا وحَمْلِ أُمِّهَا بها، ووِلَادَتِها وحَضَانَتِها، ثمَّ أخبارَ حَمْلِهَا هي وولادَتُهَا بابنِهَا، ومكانَ وضعِهَا، وذَكر تعالى أَقْوَالَهَا وأَفْعَالَهَا، ثمَّ سيرةَ ابنِهَا، امْرأةٌ كَمُلَتْ من النِّسَاء؛ قال ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَآسِيَةَ - امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ -**» (متفق عليه).

نادَتْهَا الملائكةُ مرَّةً بعد أخرى، لم يذكرْ ﷻ في كتابه اسْمَ امْرأةٍ سواها، تُلِيَ ما أُنزلَ في كِتابِ اللَّهِ عنها في مَطْلَعِ سُورتِهَا على النَّجاشيِّ ورِجَالِهِ قبلَ إسلامِهِم؛ فبكى وبكتْ أساقفتُه.

نَسْلُهَا من آلِ عمرانَ، من سلالةِ النَّبيِّ داودَ عليه السلام، وإحدى السُّورَتَيْن الزَّهْرَاوَيْن في القرآن سُمِّيت باسم آبائِها: «آلِ عِمْرَانَ».

أَثْنَى اللَّهُ عليها في كتابه مراراً، مُبَيِّناً قدْرَها، مُعْلِياً شَرَفَهَا؛ فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾؛ فكانت أخبارُها في كتابِ اللَّه مع العظماءِ من الأنبياء والمرسلين، واختارَهَا اللَّهُ؛ لتكونَ مِن أهل الجَنَّة؛ قال ﷺ: «**أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ**» (رواه أحمد).

أَبُوهَا عابدٌ صالحٌ، وأُمُّهَا مؤمنةٌ قانتةٌ، نَذرَتْ - وهي حَمْلٌ بها - أنَّ ما في بطنِهَا للَّهِ مُحَرَّرٌ خادمٌ لبيتِ المَقْدِس؛ إذ كان مليئاً بالعابدين: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فلمَّا وضعَتْهَا إذا هي أُنثى فسمَّتْها مريمَ، وفي نفسِها انكسارٌ من الأنثى؛ إذْ كانتْ تَطْمَعُ في ذَكَرٍ؛ لِمَا فيه من القوَّة والخدمة لبيت اللَّه ما ليس في الأُنْثَى؛ فَجَبَرَ اللَّهُ قلبَها، وتَقَبَّلَ نَذْرَها، وصَارَتْ هذه المولودةُ الأُنْثَى أَكْملَ وأَتَمَّ من كثيرٍ من الذُّكور: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وفي يوم وَضْعِهَا الْتجَأَتْ إلى اللَّهِ بالدُّعاءِ أَنْ يُعِيذَهَا وذُرِّيَّتَهَا من الشُّيطَانِ الرَّجِيم؛ فأَجَابَ اللَّهُ دعاءَهَا، وأَعَاذَ مريمَ وولَدَهَا مِنْ أَذَى الشَّيْطَان؛ قال ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ؛ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**» (متفق عليه).

آوَاهَا اللَّهُ، وحَفِظَهَا مُنْذُ صِغَرِهَا، وتسارعَ النَّاسُ في صِبَاهَا إلى حَضَانَتِهَا، وتَخَاصَمُوا في ذلك من أَجْلِهَا، ثمَّ اقْتَرَعُوا فيمن ينالُ خدمتَها: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ فكانت تَحْتَ رعايةِ النَّبيِّ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَنْبتَهَا اللَّهُ نَبَاتاً حَسَناً، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: جَعلَهَا شَكْلاً مَلِيحاً، ومَنْظَراً بَهِيجاً»، فنَشَأَتْ في بيتِ نُبُوَّةٍ ودينٍ؛ فكان قلبُها ذا إيمانٍ راسخٍ، صَدَّقتْ بما أنزلَ اللَّهُ من كُتُبٍ، قال اللَّهُ مُثْنِياً عليها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾، وجَوَارِحُهَا عابدةٌ للَّهِ رَاكِعةٌ ساجدةٌ: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وبَلَغَتْ مِنَ التَّعبُّدِ مَبْلَغاً كبيراً؛ قال اللَّهُ عنها: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، شاكرةٌ لربِّها، حامدةٌ لخالقها: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾، قامتْ بما أُمِرَتْ به، وصَانَتْ عِرضَهَا؛ فأَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

اصطفاها اللَّهُ على العَالَمِينَ مرَّتين: اصطفاها فتقبَّلَها بقَبولٍ حَسَنٍ؛ فكانت من العابدات، واصطفاها ثانيةً؛ لتكون أُمّاً لِنَبيٍّ من أُولِي العَزْم، وطهَّرَها من أَعْمَالِ الشِّركِ والعِصْيَان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قانتةٌ عابدةٌ: تَوَارَتْ عن أهلِها وهيَ في شبابِهَا إلى مَكَانٍ شَرْقيٍّ بينهم وبينها حجابٌ؛ فتمثَّلَ لها جبريلُ في صُورَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ، في صُورةٍ جميلةٍ، وهيئةٍ حَسَنةٍ، فخَشِيَتْ أن يكون رجُلَ سوءٍ؛ فاعْتَصَمَتْ بربِّها، و﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ فبشَّرها بولدٍ، وسمَّاه جَلَّ وَعَلَا عِيسَى قبلَ حَمْلِهَا بـه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، فَنَفَخَ اللَّهُ فيها مِنْ رُوحِه، وسَلَّمتِ الأمرَ لِبَارئِهَا؛ فحَمَلتْ به واشْتَدَّ حياؤها، فاخْتَفَتْ عن النَّاسِ في مكانٍ قَصِيٍّ لا يَرَاهَا أحدٌ، والبلاءُ محيطٌ بها.

ولَمَّا دَنَتْ وِلَادَتُها بِعِيسَى؛ جاءها المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ نخْلَة؛ فتَكَالَبَتْ عليها الهُمُوم، وخَافَتْ مِنْ عَدَم صَبْرِهَا على ما قضاهُ اللَّهُ لها؛ فَتَمَنَّتْ أنَّها مَاتَتْ قبْل هذا وكانت نَسْياً مَنْسِيّاً؛ فَسَكَّنَ الملَكُ رَوْعَهَا وثبَّت جَأْشَهَا: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى﴾ ولا تَجْزَعِي، فـ﴿قَدْ جَعَلَ

رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ نَهْراً تَشْرَبِينَ منه، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ طَرِيّاً لذيذاً نافعاً، ﴿فَكُلِي﴾ من التَّمرِ ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النَّهْرِ ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ بالولد؛ فأمَرها اللَّهُ بتفويضِ الأمر إليه، ونَهاها أن تُكَلِّم بشَراً، فإنه سبحانه هو الذي سيكفيها أمرَها، وقال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾؛ فتوكَّلتْ على ربِّها، وأتتْ بولدِها إلى قومها؛ فبَهَتُوهَا بالأمر العظيم، وقالوا لها: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾، معها ولدٌ من غير زوجٍ، فانحَصر منها المقال، فلا عذر عندها يُقال، وضاق بها الحال، وفوَّضت أمرَها إلى الكبير المتعال، وأَشَارَتْ إلى الوَلَدِ أَنْ كلِّمُوه، فأنَا بريئةٌ من البُهْتَان؛ فإذا صَبيٌّ في المَهْدِ يتكلَّم يُبَرِّئُها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۞ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾.

آيةٌ تِلْوَ آية؛ لِيَتَحدَّثَ العَالَمُ بها جِيلاً بعدَ جِيلٍ، صَبيٌّ في المَهْدِ يَتكلَّم! ووَلَدٌ من غيرِ أبٍ! ورِزْقٌ يُسَاقُ إِلَى المِحْرَاب! ونَخْلَةٌ يَتَساقَطُ تَمْرُهَا بِهَزِّ جِذْعِهَا! ومَلَكٌ يتمثَّلُ في صُورَةِ رَجُلٍ! وبِشَارَةٌ لامْرَأةٍ لا زَوْج لها بِحَمْلٍ! وأنَّهُ ذَكَر، وأنَّ اسمَه عيسى؛ فكان كما أمر اللَّه.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

فخَبَرُهَا عبرةٌ للمعتبِرين، وأُسوةٌ للمُقْتَدِين، فالعِزَّةُ والرِّفعةُ في الدَّارَيْن إنَّما هو في التَّمسُّك بالدِّين، فمريمُ قَرُبَتْ من اللَّه بالطَّاعة؛ فَعَلَتْ وَسَمَا ذِكرُهَا.

والجنَّةُ والنَّارُ مُعَدَّةٌ للذَّكَرِ والأُنْثَى، والتَّفاضُلُ عند اللَّه إنَّمَا هو بالإيمانِ والعملِ الصَّالح، ولْتَكُنْ نيَّةُ المُسْلِمِ في كلِّ خيرٍ قائمةً؛ فأُمُّ مريمَ نَذَرَتْ إنْ رُزِقَتْ بِذَكَرٍ لَتجعَلَنَّه خادماً لِبَيْتِ المَقْدِسِ؛ فرَزَقَهَا اللَّهُ بِصِدِّيقةٍ تلِدُ نبيّاً، والعبدُ يقبلُ هِبَةَ اللَّهِ له مِن ذَكَرٍ أو أُنْثى؛ فلا يَعْلَمُ في أيِّهما النَّفع؛ فمريمُ أُنْثَى ورَفَعَتْ ذِكْرَ والدَيْهَا وفَاقَتْ رِجالاً.

وَلْيَسْأَلِ المُسْلِمُ ربَّه بركَةَ الأولاد؛ فمَرْيَمُ رُزِقَتْ بولدٍ واحدٍ، ولكنَّهُ كان رحمةً من اللَّهِ للعَالَمِين، والدُّعاءُ من أوسعِ أبواب العطايا والهبات؛ فأُمُّ مَرْيَمَ عند وِلَادَتِهَا الْتَجأَتْ إلى اللَّه بأَنْ يُعِيذَ حَمْلَهَا وذُرِّيَّتَها من الشَّيطانِ الرَّجِيم؛ فحَفِظَ اللَّهُ بِتلكَ الدَّعوةِ مريمَ وحَفِظَ ابنَها، وعَصَمَهُما من شرورِ إبليس، وتَقبَّلَهَا بقبولٍ حَسنٍ، وأَنْبَتَهَا نباتاً حَسناً، وفي زَمَنِ الفِتَنِ تَشْتَدُّ الحاجةُ إلى دعاء الأَبَوَيْنِ للذُّرِّيَّةِ بالهداية، وإلى اللَّجَأِ إلى اللَّه؛ لِعِصْمَتِهِم منها.

وصلاحُ الآباءِ يَجْرِي نَفْعُه إلى الأبناء: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾، ومَنِ اتَّقى رَبَّه؛ رَزَقَه مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾، ورِزْقُ مريمَ في مُصلَّاها زَادَ مِنْ يَقِينِ زَكريَّا وتَذَكَّرَ أَفْضَالَ اللَّهِ وكَرَمَه على عبادِه، فالْتَجأَ إلى اللَّهِ بالدُّعاء؛ فوُهِبَ بعد كِبَرِ سِنٍّ بِيَحْيَى نبيّاً من الصَّالِحين.

ومَنْ حَفِظَ اللَّهَ؛ حَفِظَ اللَّهُ ذريَّتَه - ولو في مهدِهِم -، فمريمُ تَسابقَ النَّاسُ إلى حَضَانَتِها ورعايتِها؛ لصلاح والدَيْهَا، فحُضِنَتْ في بيت نُبوَّةٍ - في بيتِ زَكريَّا - وتولَّاها بعنايته.

وشُكْرُ نِعَمِ اللَّه يَجْلِبُ المَزِيدَ؛ نَسَبَتْ مريمُ نعمةَ الرِّزقِ إلى اللَّهِ وحده: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، فَزَادَهَا اللَّهُ من فضْلِه العَمِيم نِعَماً مُتَتَابِعةً، ويَجبُ على المرأةِ أَنْ تَلْتَجِأَ إلى اللَّه، وتَطْلُبَ منه العِصْمةَ من الفِتَنِ مع فعلِ الأسبابِ للبُعدِ عنها؛ فمريمُ - وهي في شبابها - تَمثَّلَ لها جبريلُ في صورة رجلٍ حسنٍ، فاسْتَعَاذَتْ باللَّهِ منه وتَوَارَتْ عنه - مع بُعْدِهَا عن أَهْلِها -: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

ومَنْ تَمَسَّكَتْ بدينِها وصَانَتْ عِرْضَهَا؛ حَفِظَهَا اللَّهُ ورَزَقَهَا من حيث لا تَحتسب، عوَّضها اللَّه بعفَّتِها وَلَداً من آياتِ اللَّه، ورسولاً من رُسُلِهِ، وهو سبحانه على كلِّ شيءٍ قدير، والمُسْلِمُ يَتوكَّلُ على اللَّهِ ويُفوِّضُ أَمْرَهُ إليه، ولا يَتَعَلَّقُ بالأسباب فحسب؛ فقد وَهَبَ مَرْيَمَ ولداً من غيرِ زَوْجٍ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

والقُرْبُ من اللَّه يَجلِبُ كُلَّ خيرٍ ورِزْقٍ؛ فمريمُ لَمَّا قَنَتَتْ سَاقَ اللَّهُ رِزْقَهَا إليها في مُصلَّاها، وأَسْقَطَ عليها رُطَباً جَنِيّاً، وأَجْرَى لها نَهْراً مِنْ تَحْتِهَا.

والمُؤْمِنُ يَتَعرَّضُ للابتلاء، وكُلَّما كان في دينه صلابةٌ؛ زِيدَ في بَلائِه، ومريمُ البَتُولُ ابتُلِيَتْ ببلاءٍ عظيمٍ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ﴾؛ بل زِيدَ في بلائِهَا أَنْ أَمَرَهَا اللَّهُ أَنْ تَأْتِيَ بالمولود بيْنَ يَدَيْهَا أمامَ قومِهَا وتَنْسِبُه إلى نفْسها - وهي بلا زوجٍ -؛ فسلَّمتِ الأمرَ للَّه، وفوَّضَتْ أمرَها إليه، ولَئِنْ صَبرَتِ امْرَأَةٌ على الابتلاء؛ فالرِّجالُ أَوْلَى.

واللَّهُ سبحانه لا يُضَيِّعُ مَنْ لَاذَ به، ولا يَخْذُلُ مَنْ لَجَأَ إليه، ومَنِ الْتَجَأَ إلى اللَّه عند المصائب؛ أَتَاهُ الفرجُ من حيثُ لا يحتسب، وبأَمْرٍ لا يَصِلُ إليه فِكْرُ البشر، فقد لَجَأَتْ مريمُ في كُرْبَتِهَا إلى اللَّه؛ فأَنْطَقَ اللَّهُ رضيعَهَا بما يُبَرِّئُها ويَرْفعُ شأنها.

واللَّهُ رحيمٌ بعباده: تَمَنَّتْ مريمُ الموت: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، ومَنْ تعرَّفْ على اللَّهِ في الرَّخَاء؛ عَرَفَهُ في الشِّدَّة، مريمُ تعلَّقت باللَّه في العبادة والعَفَاف؛ فحفظَها اللَّهُ في حَمْلِهَا ورِزْقِهَا ووِلَادَتِها ورفَعَ ذِكْرَها.

والعملُ الصَّالحُ عند اللَّه محفوظٌ، كانت مُطِيعةً لوالديها بارَّةً بهما؛ فَبَرَّ بِها ابنُها: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

وصاحبُ المَعْصِيَةِ يَتَخَفَّى؛ لسُوءِ عاقبةِ الخَطِيئَة، ومَنْ بَرِئَ من التُّهمَة يَظْهَرُ أمام النَّاسِ مُفوِّضاً أمرَه إلى اللَّه، ومريمُ لبراءتِها أَتَتْ بغُلَامِهَا إلى قومِها تَحمِلُه.

ومِنْ شُكْرِ النِّعم: ذِكْرُهَا والإقرارُ بها، أَمَرَ اللَّهُ عِيسَى بأَنْ يَذْكُرَ نِعَمَ اللَّه عليه وعلى والدتِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، والمُسْلِمُ يَسِيرُ على خُطَا الصَّالحين في مَرْضَاةِ ربِّ العالمين.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

الحديثُ عن أَصْحابِ الجَنَّة يَدْفَعُ النُّفُوسَ إلى النَّظرِ في سِيَرِهِمْ وما فيها من العِبَر؛ لِيَقْتَفِيَ المسلِمُ أَثَرَهم، ويَحْتَذِيَ حَذْوَهُم، وفي التَّاريخ نِسَاءٌ كَمُلْنَ في الفضلِ والتَّشريفِ كمَرْيَمَ بنتِ عمران، وأُمِّ المؤمنين خَدِيجَةَ بنتِ خُوَيْلِد، وبنتِها فَاطِمةَ بنتِ رسولِ اللَّه ﷺ، وآسيةَ - امْرَأةِ فرعون -، قدواتٌ للنِّساءِ في العبادة والصَّلاح، والسِّترِ والحجابِ والعَفاف، والتَّوكُّلِ والصَّبرِ والحياء.

وما أَحْوَجَ نِسَاءَ اليوم إلى أَنْ يَسِرْنَ على خُطَا أولئكَ الصَّالحاتِ العظيماتِ في مَنَاقِبِهِنَّ وفضائِلِهِنَّ؛ لِيَسْعَدْنَ في الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

الفصل الثَّالث

الأُمَـــــم

أَقْوَى النَّاسِ: قَوْمُ عَادٍ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فبِتَقْوَى اللَّه تُسْتَجْلَبُ النِّعَم، وبالبُعدِ عَنْهَا تَحُلُّ النِّقَم.

أيُّها المسلمون:

خَلَق اللَّهُ الخَلْقَ؛ ليَعبدُوه وحدَه بإخلاصِ الأعمال له، وامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وأداءِ حقوقِ عبادِه بإقامةِ العَدْلِ بينهم، والإحسانِ إليهم، والنَّهيِ عن ظُلمِهم والبَغْيِ عليهم.

واللَّهُ سبحانه في كِتابِه: يأمرُ ويَنْهَى، ويُرَغِّبُ ويُرَهِّب، ويَقُصُّ أحسنَ القَصَص؛ للعظةِ والاعتبار، وسنَّتُه تعالى فيمَنْ عَصَى وطَغَى من

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، العشرين من شهر شوال، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

الأُمَمِ الخَالِيَة والحَاضِرةِ والآتية لا تَتَحَوَّلُ ولا تَتبدَّل؛ قال ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

واللَّهُ قَصَّ في كتابِه خَبَرَ أُمَّةٍ لم يُرَ مِثْلُهَا في القُوَّةِ والاسْتِكْبَار، والبَطْشِ والظُّلم، سمِّيتْ سورةٌ في القرآنِ باسمِ نبيِّها: «هود»، وسورةٌ أُخْرَى باسمِ مكانِهم: «الأَحْقَاف»، قال السُّدِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانُوا بِاليَمَنِ بِالأَحْقَافِ»، وقد ذَكَرَ اللَّهُ خبرَهُم في مَوَاضِعَ عدَّة؛ قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَكَرَ اللَّهُ قِصَّتَهُمْ فِي القُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ لِيَعْتَبِرَ بِمَصْرَعِهِم المُؤْمِنُونَ».

كانوا أعظمَ أهلِ زمانهم خَلْقاً، وأَطْولَهم أبداناً، وأَشدَّهم بَطْشاً؛ قال ﷻ: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾؛ بل لَمْ يَخلُقِ اللَّهُ مثلَ قوَّتِهم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، قال البَغويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ القَبِيلَةِ فِي الطُّولِ وَالقُوَّةِ».

ومَسَاكنُهم أعظمُ ما تُرَى وأَجْملُه، ذواتُ أَعْمدةٍ ضِخَامٍ، وبُنْيانٍ شاهِقٍ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾، أَتْرَفُوا أنفسَهم في مَسَاكنِهم، فكانوا يَبْنُونَ في كلِّ مكانٍ مُرْتَفِعٍ بُنياناً مُحْكَماً باهراً هائلاً، يَفعلون ذلك عبثاً لا للحاجة إليها؛ بل لِمُجرَّدِ اللَّهوِ وإظهارِ القُوَّةِ والمُفَاخَرَة؛ فأنكرَ عليهم نَبيُّهُم ذلك: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾؛ لأنَّه تَضْييعٌ للزَّمَان، وإِجْهَادٌ للأبدان في غيرِ فائدةٍ، وإشغالٌ بما لا يُجدِي لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، واتَّخذوا لهم بُرُوجاً مُشيَّدةً؛ لِيُخَلَّدُوا في الدُّنيا بزعمِهم لإنكارِ المعاد؛ قال سبحانه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ فكانوا يَبنُون ما لا يَسْكُنُون، ويُؤَمِّلونَ ما لا يُدرِكُون.

فتحَ اللَّهُ عليهم أبوابَ رِزقِه؛ فزادتْ أموالُهم، وكثُرَ أبناؤُهم، وأَنبتَ لهم الزُّروع، وفجَّرَ لهم العُيون؛ قال لهم نبيُّهم: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، وأمَرهم أن يتذكَّروا نعمَ اللَّه؛ ليَفُوزُوا بِرِضَا اللَّهِ وسَعادةِ الدَّارين: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فقابَلُوا نِعمَ اللَّه بالجحودِ والنُّكرانِ وعَبدوا الأصنام، وهُم أوَّلُ مَن عبَدَها بعد الطُّوفان: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

ودَعَاهُم هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه ونَبْذِ الأوثان: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾؛ فاستَخفُّوا بنبيِّهم ورَمَوْهُ بالجُنون، وقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي: أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: بِجُنونٍ في عقلِك، وسَخِرُوا منه وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، وصَارَحُوهُ بالكُفرِ وقالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وردُّوا دعوتَه وأَنِفُوا عن قبولِها، واسْتَكْبَرُوا عنها، و﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾، وزَادُوا في الطُّغْيَان فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَنَبْقَى على عبادةِ الأصنام، وأَبَوْا أن يتَّبِعُوا رسولَهم؛ تَكبُّراً منهم؛ لأنَّهُ من البَشَر، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، وَلِغُرُورِهم يريدون أن يكونَ رسولُهم من الملائكة؛ فـ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وأَنكروا البعثَ والنُّشور، وقال بعضُهُم لبعضٍ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾؛ بل استبْعَدُوا يومَ الحَشْرِ والنَّشْر؛ فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: بعيدٌ بعيدٌ وقوعُ ذلك، وظلَمُوا ضعيفَهم بغِلْظَتِهم وجَبَرُوتِهِم؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، لم يقوموا بحقِّ الخالقِ، ولا المخلوق؛ تَجبُّراً على اللَّهِ وعلى عبادِه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

واللَّهُ ﷻ يُمْلِي للظَّالِم، وإذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْه، سخِرُوا من نبيِّهم وبما دعاهم إليه، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: مِنَ العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ فاستدَرجَهم اللَّهُ من حيثُ لا يعلمون، وأَمْسَكَ عنهم القَطْر؛ فأجدَبتِ الأرضُ، وأَصْبَحُوا مُمْحِلِين؛ فَسَاقَ اللَّهُ سحابةً لَمَّا رَأَوْهَا مستقبِلةً أَوْدِيتَهُم اسْتَبْشَرُوا، و﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾؛ قال اللَّه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، سلَّطَها عليهِم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً دائمةً لَمْ تَنْقَطِعْ لَحْظةً، وكانت ريحاً عقيماً لا خيرَ فيها ولا برَكة، لا تُلَقِّحُ شجراً ولا تَحْمِلُ مطراً، صَرْصَراً باردةً شديدة، لِمَسِيرِها صوتٌ قويٌّ مُفْزِع: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ما تَذَرُ من شيءٍ أتتْ عليه إلَّا أهْلَكَتْه، تَحْمِلُ الرَّجُلَ منهم عالياً، ثم تُنكِّسهُ على رأسِه فينقطعُ عن جسدِه، تَراهُم صَرْعَى، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ بلا رؤوسٍ؛ فَبَادُوا عن آخرِهم، ولَمْ تبقَ لهم باقيةٌ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾، وأَتْبَعَهُمُ

اللَّه في هذه الدُّنيا لعنةً ويومَ القيامة، وجَعلهم عِبرةً لمن بعدَهم؛ قال سبحانه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وبعدُ، أيُّها المسلِمون:

فاللَّهُ قويٌّ لا يُقْهَر، عزيزٌ لا يُغْلَب، والقُوَّةُ له جميعاً، وما يَعْلَمُ جنودَه إلَّا هو، كبيرٌ مُتَعَالٍ، أَمْرُه كَلَمْحِ البَصَرِ أو هو أَقْرَب؛ اسْتَكْبَرَ قومُ عادٍ، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾؛ فأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بالهَوَاء.

واللَّهُ للظَّالِمِ بالمِرْصَاد، لا يَغْفُلُ عنه؛ بل يَستَدرِجُه ثمَّ يُهلِكُه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

وطلبُ النَّصرِ من اللَّه نهجُ المرسلين؛ هودٌ عليه السلام استُضْعِفَ من قومِه فـ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ فنصرَه اللَّهُ بريحٍ لا تُرَى.

والتَّوكُّلُ على اللَّهِ سبيلُ النَّصرِ على الأعداء؛ قومُ عادٍ أشِدَّاءُ أقوياءُ ولا طاقةَ لهودٍ عليه السلام بقوَّتِهم؛ ففوَّضَ أَمْرَه إلى اللَّه، وقال لهم: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ﴾؛ فدمَّرَهم اللَّه، و﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها الخليلان في الشَّدائد.

والاستغفارُ والتَّوبةُ مِنْ أَسْبابِ القوَّةِ والأَمْنِ والرَّخاء؛ قال هودٌ عليه السلام لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

والنَّصرُ قد يَتأخَّرُ لحِكمةٍ من اللَّه، ولكنَّه لا يَتخلَّفُ عن المؤمنين أبداً؛ قال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوَّةُ الخلْقِ لا تَمنعُ من عذابِ اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

والنَّصرُ مع الصَّبْر، واليُسْرُ مع العُسْر، وإذا اشْتدَّ الكربُ؛ لَاحَ الفَرَج.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

أَنْصَحُ النَّاسِ للنَّاس: مَنْ دَعَا إلى عِبادةِ اللَّهِ وحدَه وإخلاصِ العملِ له وطاعتِه، واللَّهُ سبحانه مُطَّلِعٌ على عباده، رَقِيبٌ عليهم؛ مَنْ كَفَرَ به أذلَّه، ومَنْ لم يَشْكُرْ نِعَمَهُ سَلَبَها منه، ومَنْ تَسلَّطَ على عبادِه قَصَمَه، وإذا زاد الطَّاغِي من طغيانه؛ فهو أَمَارةُ هلاكه؛ قال ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾، فرعونُ أفسدَ في الأرض، ولَمَّا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ أَغرقَه اللَّه بالماء.

والعذابُ قد يأتي في صورةِ نعمةٍ، كان النَّبيُّ ﷺ إِذَا هَبَّتْ رِيحٌ؛ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، يَخشى أَنْ تكونَ عذاباً؛ فلا يأمنُ العَبْدُ مَكْرَ اللَّهِ وسُرْعةَ عقابه.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

الفصل الرَّابع

الأَعْــــلَامُ

رِثَاءُ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]

الحمد للَّهِ المُتوحِّدِ بالعَظَمَةِ والجَلَال، المُتَّصفِ بصفاتِ الكَمَال، المُنَزَّهِ عنِ الأَشْبَاهِ والأمثال، أَحْمَدُهُ سبحانه وأَشْكُرُهُ شُكْراً يَزيدُ النِّعمَ ويَحْفَظُهَا من الزَّوال.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، الكبيرُ المتعال.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، أَنْقَذَ اللَّهُ به من الضَّلال، وهَدَى إلى أَشْرَفِ الخِصَال، صَلَّى اللَّهُ وسَلَّمَ وبَارَكَ عليه وعلى أصحابه والآل، والتَّابعين ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم المآل.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، والعلانيةِ والخَفاء.

أيُّها المسلمون:

لقد أَمَرَ اللَّهُ بالعِلمِ وحثَّ عليه، وفضَّلَ العالِمَ والمُتَعلِّمَ على غيرِهما؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وامتنَّ اللَّهُ على الأنبياء والرُّسُلِ بما آتاهم من العِلم؛ فقال عن

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثامن والعشرين من شهر محرَّم، سنة عشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، وقال عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، وقال عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، إنَّه ميراثُ النُّبوة كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾.

طلبُ العِلْم شرفٌ لا يُضَاهَى، وفضلٌ لا يُحدُّ، ثمراتُه مُعَجَّلة، وثوابُه نَهرٌ يَتَدَفَّقُ في الحياةِ والمَمَات، وسلوكُ طريقِه تَسهيلٌ لطريق الجَنَّة، تَرْغَبُ الملائكة في مُجالَسَةِ أهلِه وبأَجْنِحَتِها تَحفُّهم، ومَن في السَّموات ومَنْ في الأرض مُسْتَغْفِرٌ لهم؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً؛ سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً؛ إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» (رواه الترمذي).

إِنَّه الخيرُ الَّذي لا يَنْقَطِع، يَعْلُو به صاحبُه في الحياة، ويَنَالُ منه الأجرَ بعد الممات؛ يقول المصطفى ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» (رواه مسلم).

طلبُه أَمَارةٌ على الخير والسَّعادة، إذْ به يُعرَفُ الحلالُ من الحرام، والحقُّ من الباطل، والهُدَى من الضَّلَال، العِلْمُ أَجلُّ المَطَالِب وأَسْمَى

المَوَاهِب، وهو حياةُ القلوب من الجهل، ومصابيحُ الأبصار من الظُّلَمِ، يَبلُغُ العبدُ به منازلَ الأخيار والدَّرجات العُلَى في المآل، يُنَمِّي الإيمان، ويَغْرِسُ الفضائل، وخيرُ ما أُنْفِقَتْ فيه الأنفاس، وبُذِلَتْ فيه المُهَجُ، يَلْحَقُ به المُتأخِّرون السَّابقِين الأوائل، وهو الأَنِيسُ في الوَحْدَة، والصَّاحبُ في الخَلْوَة، ومَنارُ سُبُل الجَنَّة.

أيُّها المسلمون:

ما اكْتَسَبَ مُكْتَسِبٌ مِثْلَ عِلم يَهْدِي صاحبَه إلى هدًى، أو يَرُدُّه عن رَدًى، يقولُ بِشْر الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ عَمَلاً أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ»، إنَّه أَفْضلُ مُكْتَسَبٍ، وأَنْفَسُ ذَخِيرةٍ، نُورٌ زَاهرٌ، وقُوتٌ هَنِيءٌ، تَنْشَرِحُ به النُّفوس، وتُسَرُّ به الأفئدة، يقول سفيانُ بن عُيَيْنَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ؛ فَقَدْ بَايَعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ».

مع العِلمِ باللَّه يَنفعُك قليلُ العملِ وكثيرُه، ومع الجهلِ باللَّه لا يَنفعُك قليلُ العملِ ولا كثيره، وبِقَدْرِ ما تَصْلُحُ نيَّة العالِمِ، وتستقيمُ سَرِيرَتُه، ويَقْتَفِي مَنْ سَبَقَه - ممَّن لازم الكِتاب والسُّنَّة -؛ بقدر ما يُكتَبُ له القَبول، ويَكْثُرُ خيرُه ونفْعُه، ومَنْ أُورِثَ عِلم الكِتابِ والسُّنَّة فقد اصطفاه ربُّه؛ يقول النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» (متفق عليه).

أيُّها المسلِمون:

العُلَمَاءُ وارِثُو عِلْمَ الرِّسالَة، بهم قام الكِتابُ وبه قاموا، هُمُ النُّجُومُ، بِهم يُهْتَدَى ويُقْتَدَى، يَنْفُون عن الأُمَّة المَزَاعِمَ الباطلة، وهم

مثالُ الاستقامةِ ومَعْقِلُ الدِّين، بالعِلم عاملون، وعلى الحقِّ سائرون، يَهْدُون بالحقِّ وبه يَعْدِلون، اسْتَشْهَدَ اللَّهُ بهم على أجلِّ مَشْهُودٍ به وأعظمِه، وجَعلَ كِتابَه آياتٍ بيِّناتٍ في صُدُورِهم، وهم أهلُ خَشْيَتِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

أيُّها المسلِمون:

إنَّ خَطْبَ المسلمين جَلَلٌ، ومصابَهم فَادِحٌ في فَقْدِ عالِم الأُمَّةِ: سَمَاحةِ الشَّيخِ عبدِ العزيزِ ابنِ بَازٍ، المُفتي العام لهذه البلاد رَحِمَه اللَّهُ رحمةً واسعة.

لقد كان طَوْداً شامخاً في العِلم والزُّهد والتُّقى وحُبِّ الخير للآخرين، له في كلِّ مَيْدَانٍ من مَيَادِين العمل الصَّالح يَدٌ تُذْكَرُ فَتُشْكَر، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ سائراً على نَهْج علماءِ السَّلفِ الصَّالحِ الَّذين جاهَدُوا في اللَّهِ حقَّ جهادِه، ووَرثوا عِلمَ النُّبوَّة، وتَحمَّلوا الأمانة، ونَذَرُوا أنفسَهم؛ لنشرِ دين الإسلام وتعليمِه، والدَّعوةِ إليه، والذَّبِّ عنه، والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ إماماً في الدِّين، حريصاً على اتِّباع الحقِّ والعمل بالكِتاب والسُّنَّة، مُحِبّاً للخير باذلاً له، مواقفُه في الذَّبِّ عن الدِّين وأهلِه مشهودة، قَضَى حياتَه في العِلم وتعليمِه والدَّعوة إلى اللَّه والنُّصْحِ للمسلمين.

جَعل اللَّهُ الفردوسَ الأَعْلَى مُسْتَقَرَّه، وأَحْسَنَ عَزاء الأُمَّةِ الإسلاميَّة فيه.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّهِ رَافِعِ العِلْمِ درجات، والمُفضِّلِ ذَوِي العِلْمِ في الحياة والمَمَات، والصَّلاةُ والسَّلام على خيرِ مَنْ علَّمَ وهَدَى، وعلى آله وأصحابه ومَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِه وبِهَدْيِه اهتدى.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

فسَيَبْقَى الخيرُ - بإذن اللَّه - في أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، والحُجَّةُ قائمةٌ على النَّاس بحياةِ العلماءِ والدُّعاةِ والمُصْلِحين، وفَقْدُهم من أعظم المصائب على الأمَّة.

فاسْلُكُوا ما سَلَكَهُ العلماءُ العاملونَ بالتَّقرُّب إلى اللَّه بالعِلم والعمل الصَّالح، واغتَنِمُوا حياتَكم قبْل انتهائِها، وأعمارَكم قبْل انقضائِها، ونِعَمَكم قبْل زوالِها، وعافيتَكم قبْل تَحَوُّلِها، فالحياةُ لحظاتٌ محدودةٌ، وأنفاسٌ معدودةٌ، والأحياءُ فيها يُمْضُون اللَّحظات إلى أَجَلٍ مُسَمَّى، وهكذا تُطْوَى الأيَّامُ، وتَفْنَى الأعمار، ويَنْتَقِلُ العُمَّارُ من هذه الدَّارِ إلى دار القَرار.

فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُون، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ العَلِيِّ العظيم.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

الباب الثَّامن عشر

المُنَاسَبَاتُ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأَوَّل : الاسْتِسْقَاء.

الفصل الثَّاني : الخُسُوف، والكُسُوف.

الفصل الثَّالث : العِيدَان.

الفصل الأوَّل

الاسْتِسْقَاءُ

نِعْمَةُ المَاءِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

أَسْبَغ اللَّهُ على عباده النِّعَمَ الظَّاهرةَ والباطنة، ويَدَاهُ مبسوطتان بالعطاء، «**لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وَأَنْعَمَ على عبادِه نعمةً لا غِنى للخلق عنها، وبحكمته سبحانه يُنشئ هذه النِّعمةَ أمامَ أبصارِ البشر؛ لِيَشْكرُوه عليها، فيَأْمُرَ ملائكةً تُسَيِّر الرِّياحَ، وتَسُوقُ السَّحاب، وتُنزِلُ القطرَ؛ ليذوقَ عبادُه تلك النِّعمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أَنزل اللَّهُ هذه النِّعمةَ من السَّماء؛ لِيَراهَا الخَلْقُ بأبصارهم، فتَتَحرَّكَ

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الثالث عشَر من شهر ربيع الأول، سنة تسع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

القلوبُ لطلبها، وإلى شُكرها بعد نزولها، جَعلها اللَّهُ من دلائل رُبوبيَّته؛ قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، وبجبروته تحدَّى الخَلْقَ أن يُنزِلوا قَطْرةً من الماء غير ما أَنْزَل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، ونزولُه من السَّماء غَيْبٌ لا يَعلمُ زمنَه يقيناً وقدْرَه ونفْعَه إلَّا اللَّه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وإنزالُ الماءِ من حُجَجِ أُلُوهِيَّة اللَّه واستحقاقِه للعبادة وحدَه؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهو من الأدلَّة على البَعْثِ والنُّشور؛ قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، به يَرْحَمُ اللَّهُ أو يُعذِّب: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

الماءُ عَظَمَةٌ ومَجْدٌ وعِزٌّ، وعرْشُ الرَّحْمَن على الماء؛ قال سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، وهو مِنْ نِعَم اللَّهِ الغَزِيرَةِ الَّتي امتنَّ اللَّهُ به على مَنْ قبلَنا، فمَنْ شَكَرَ منهم زاده، ومَنْ كفَرَ عذَّبه: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

ولكونه نعمةً عظيمةً؛ أَرسل اللَّهُ بين يديه ما يُبَشِّرُ به؛ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، والأرضُ

تَفْرَح بمَقْدَمِه؛ فَتَهْتَزُّ، وتَرْبُو، وتُخْرِج زِينَتَها حتَّى يَحارَ الطَّرفُ في حُسْنِها؛ قال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ﴾، وبه تَحيَا الأرضُ بعدَ موتِها؛ قال ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

والخَلْقُ يُبَشِّر بعضُهم بعضاً بِمَقْدَمِه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وهو من أسبابِ رضوان اللَّهِ على العبد إنْ شَكَرَه عليها؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**» (رواه مسلم).

خَلَقهُ اللَّهُ بلا لونٍ، وأَوجدَه بلا طَعْمٍ، وأَنزلَه بلا رائحةٍ، ماءٌ واحدٌ، يَنْزِلُ على أرضٍ واحدةٍ؛ فَتَظْهَرُ جنَّاتٌ من أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ صِنْوَانٍ وغيرِ صِنْوَان، يُفَضَّل بعضُها على بعضٍ في الأُكل، منها ما هو حلوٌ، ومنها ما هو مُرٌّ، وفي بعضها داءٌ، وفي الآخر دواءٌ.

ماءٌ بلا لونٍ على اختلافِ الأزمنةِ والأمكنة، خَلْقٌ لطيفٌ يُخالِطُ الجَوْف، وهو قويٌّ يَطْغَى على الأودية ويَبْلُغ الجبالَ، مخلوقٌ عظيمٌ إنْ نَزَلَ عذاباً لا يَكْشِفُه إلّا اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

مَنافِعُه لا تُحصَى؛ عَذْبٌ مَعِينٌ، تَتَمتَّعُ به الأنفُسُ والأبدان: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾، وجَعله سبحانه طَهُوراً للأجساد والقلوب؛ قال سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، خَلَقهُ اللَّهُ مُباركاً، فقَطَراتٌ

يسيرةٌ تحيا بها الأرضُ وَمَنْ عليها، وتسيلُ منه الأودية؛ قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، وبه يُنْبِتُ اللَّهُ جميعَ الزُّروع؛ قال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، جَعَلهُ اللَّهُ مُكَفِّراً للذُّنوبِ والخطايا في الوضوء؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ أَوِ المُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ؛ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ المَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ؛ خَرَجَ مِنْ يدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ أَوْ مَع آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ؛ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ المَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيّاً مِنَ الذُّنُوبِ**» (رواه مسلم).

واللَّهُ بقُدْرَتِه وقوَّتِه أَحْكَمَ الكونَ، وبعِلْمِه وحِكْمَتِه نزولُ الماءِ إلى الأرض بَقَدَرٍ تُحصى فيه القَطَرَات؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، قال ابنُ كثيرٍ ﵀: «أَيْ: بِحَسَبِ الكِفَايَةِ لِزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ»، وَأَسَالَ سبحانه في الأرض أَوْدِيَةً يراها الخلْقُ؛ لِيَتَحَقَّقَ بها وَعْدُ اللَّهِ لهم برزقهم الماء: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، وزيادتُه عن مقداره عذابٌ.

آيةٌ عجيبةٌ، مَسَالِكه في الأرض لا يَعلَمُها إلَّا اللَّه؛ قال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يَتشقَّقُ من الحِجَارة؛ لِيَخْرُجَ رزقاً للعباد، ومِنَ الحِجَارة ما يَتَفَجَّرُ منها الأنهار؛ قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾.

مَخْلُوقٌ مُعْجِزٌ؛ إنْ نَزَل على أَرْضٍ قاحلةٍ؛ زيَّن لونَها إلى مَنْظَرٍ

بَهِيج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ومن تمام نعمة اللَّه علينا به: حِفْظُه في باطن الأرض بعد نزولِه؛ لِتَطْمَئنَّ النُّفوسُ بقربه منهم، وله فيها خزائنُ؛ قال سبحانه: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

نعمةٌ قريبةُ المنَال، سهلةُ النَّوال؛ يُخرجُه اللَّهُ من بيْنِ الصُّخور والأتربة عَذْباً زُلَالاً، وإن عصى الخلْقُ ربَّهم؛ أَبْعَدَها عنهم؛ قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

وكما أنَّه نعمةٌ فهذه النَّسماتُ اللَّطيفةُ والقطراتُ الصَّغيرةُ الَّتي يَتَنَعَّمُ بها العبادُ؛ قد تتحوَّلُ بأمرِ اللَّه إلى عذابٍ، فقد أَغرقَ اللَّهُ بهذا الماء أقواماً أَعْرَضُوا عن اللَّه، وهو أوَّلُ عذابٍ عُذِّبت به الأُمَم؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

وفرعونُ تكبَّرَ على موسى واختال عليه بالمياه؛ فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ﴾؛ فأهلكه اللَّهُ بما تكبَّر به، وجَعله عِبرةً للناس؛ قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وجعله سبحانه سَيْلاً عَرِماً على قوم سَبَأٍ لَمَّا كَفرُوا نعمة اللَّه، فمزَّقَهم اللَّهُ به كلَّ مُمَزَّقٍ؛ قال ﷻ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

وقد جَعله اللَّهُ نَصْراً للمؤمنين في بدرٍ؛ قال ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

وهو من النَّعِيم الذي تُسَرُّ به العينُ في جنَّاتِ النَّعيم؛ قال ﷻ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، ولا يَطْلبُ أهلُ النَّار من أهل الجَنَّة شيئاً بعَيْنِه سواه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وبعدُ، أيُّها المسلمون:

الماءُ من آيات اللَّه المُوجِبَة للإيمان؛ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

آيةٌ باهرةٌ، لا يُنازعُ أحدٌ بأنَّه من اللَّه، وأن لا مُوجِدَ له سواه؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وهو مِنَّةٌ من اللَّه عظيمةٌ، تُصاحِبُنا في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

فعلينا شُكرَها، والتَّفكُّرَ فيها، وطاعةَ خالقِها، وأن نَتَّخذَها عوناً على عِمارةِ آخرَتِنا، وأن لا نَغْترَّ بفضل اللَّهِ علينا بها، وأن لا نُسْرِفَ فيها.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلِمون:

تكفَّلَ اللَّهُ بِرزقِ عبادِه ومخلوقاته - بَرِّهِمْ وفاجِرِهم -؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، والسَّماءُ تَفْتَحُ خزائنَها، والأرضُ تُخرِجُ بركاتِها بطاعةِ اللَّهِ والتَّوبةِ إليه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والشُّكرُ حافظٌ للنِّعَم مُؤْذِنٌ بزيادتها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

مَنَافِعُ المَطَرِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

أسبغَ اللَّهُ على عباده النِّعمَ ظاهرةً وباطنةً، ويَدَاهُ سبحانه مَبْسُوطَتَانِ بالعطاء، «**لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وتكفَّل برزقِ عبادِه ومخلوقاتِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾.

وأَنعمَ اللَّهُ على عباده نِعمةً لا غنى للخلْقِ عنها، وأمَرَ ملائكةً تُسيِّرُ الرِّياحَ، وتسوقُ السَّحابَ، وتُنْزِلُ القطرَ؛ ليذوقَ عبادُه تلك النِّعمةَ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾، وأنزلها من السَّماء؛ ليراها الخلْقُ بأبصارهم، فتتحرَّكَ القلوبُ لطلَبها وإلى شُكرها بعد نزولها.

(١) أُلقيت يوم الأربعاء، السابعَ عشَر من شهر محرَّم، سنة ثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وَعَدَ برزقِ العباد، وأنشأ سَحَاباً ثقالاً؛ كالجبال، تَعْصِرُ الماء ثَجَّاجاً، وشَقَّ أحجاراً، يَخْرُجُ رزقُ العبادِ منها ماءً ينتفعون به: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾، وفجَّر من الصُّخور أنهاراً فضلاً منه على عباده؛ لِيَسْتَقُوا منها: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وأَسَالَ سبحانه في الأرض أوديةً يراها الخلْق؛ لِيَتَحَقَّقَ بها وعدُ اللَّهِ لهم برزقهم الماء؛ قال ﷻ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، وأَوْدَعَ رزْقَهم هذا في ينابيعِ الأرضِ وتحتَ أقدامهم؛ لتَطْمَئِنَّ نفوسُهم بِقُربهم منه، ثمَّ يُخْرِجُه لهم من بين الصُّخور والأتربة عَذْباً زُلَالاً؛ قال سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واللَّهُ بقدرتِه وقُوَّتِه أَحكمَ الكونَ، وبعِلْمِه وحكمتِه يُنْزِلُ قطراتِ الماءِ إلى كلِّ أرضٍ بمقدارٍ؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، قال ابنُ كثيرٍ ؒ: «أَيْ: بِحَسَبِ الكِفَايَةِ لِزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

وبِجَبَرُوته تعالى تحدَّى الخَلْقَ أن يُنْزِلوا قَطْرَةً من الماء غيرَ ما أَنزَل؛ قال جلَّ شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، ولو غَارَ ماءُ الأرض أو حَبَسَهُ لَمْ يُخْرِجْهُ أحدٌ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

والسَّحابُ يُنْشَأُ أمامَ أبصارِ البشرِ، ويَعْجِزون عن إنشاء مثلِه، ولِعظيم صُنْعِ اللَّهِ في الماء؛ أقرَّ المشركون بأنَّ الخالقَ له هو اللَّه؛ قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

ومِنْ فضْلِه سبحانه أَنْ جَعل هذا الماءَ طَهوراً يُزَالُ به دَرَنُ الأجساد، وتتزَّينُ به الأرض، وجَعله فُرَاتاً تَتلذَّذُ به الأَنْفُسُ والأبدان: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

والمطرُ مباركٌ يَجتمعُ من قطراتٍ معدودةٍ فتسيلُ به الأودية، ومِن برَكته: أنَّه إذا أصابَ الأرضَ اهتزَّت وربَتْ، وأَخْرَجَتْ من جميعِ ألوانِ الزُّروعِ والثِّمار؛ قال ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ماءٌ واحدٌ يَنزِلُ على أرضٍ واحدةٍ، فتَظهرُ جنَّاتٌ من نخيلٍ وأعنابٍ وزروعٍ صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ، يُفَضَّلُ بعضُها على بعضٍ في الأُكل، منها حُلْوٌ ومنها مُرٌّ، وفي بعضها داءٌ وفي الآخر دواءٌ.

ومِنْ بركاتِه: إذا نَزلتْ تلك القطراتُ من السَّماء؛ تحرَّكتْ قلوبُ البشر بالفَرَح والسُّرور بعد همٍّ وحُزنٍ، وبَشَّر بعضُهم بعضاً بها؛ قال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وإذا أَذنبَ العبادُ حَبَسَ اللَّهُ عنهم تلك النِّعمةَ أَمَداً؛ لِيُحَاسبَ كلُّ امرئٍ نفْسَهُ ويَعُودَ إلى اللَّه، وإذا أَيِسَ العبادُ من القَطْر؛ أَنزله عليهم، فيُظْهِرُ لهم كَرَمَه وحِلْمَه سبحانه؛ قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

والسَّماءُ تُفَتَّحُ خزائنُها، والأرضُ تُخْرِج طيِّباتِها بالتَّوبةِ والاستغفار؛ قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

واللَّهُ رَحِيمٌ يَقْبَل مَنْ عَادَ إليه، وكَريمٌ يُعطي مَنْ سَأَله، وهو سبحانه لا يُخيِّبُ رَجَاءَ مَنْ طَلَبه، وهو الغنيُّ لا يَتَعَاظَمُه شيء مَنَحَه، وهو الغفورُ يَمْحُو ذنوب الخطَّائين، ويَنْشُر فضْلَه على المستغفِرين.

فاللَّهُمَّ إنَّا نَستغفرُك إنَّكَ كنتَ غفَّاراً؛ فأرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا غيثاً مُغيثاً، هَنِيئاً مَرِيئاً، سَحّاً غَدَقاً، نَافِعاً غيرَ ضارٍّ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحمةٍ، لا سُقْيَا عَذَابٍ ولا هَدْمٍ، ولا بَلَاءٍ، ولا غَرَقٍ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

عبادَ اللَّه:

اقْلِبُوا أَرْدِيَتَكُم؛ اقْتِدَاءً بِسُنَّةِ نبيِّكم، تَفَاؤُلاً بتغيُّرِ حَالِكُم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

المَعْصِيَةُ تَمْنَعُ القَطْرَ(١)

الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، الرَّحمنِ الرَّحيم، مالكِ يومِ الدِّين.

لا إله إلَّا اللَّهُ يَفعلُ ما يشاءُ ويَحكمُ ما يُريد، لا إله إلَّا اللَّهُ الواسعُ الحَمِيد، لا إله إلَّا اللَّهُ المُؤمَّلُ لكَشْفِ كلِّ كربٍ شديدٍ، لا إله إلَّا اللَّهُ المَرْجوُّ للإحسانِ والإفضالِ والمزيد، لا إله إلَّا اللَّهُ، لا راحم ولا واسعَ سواه للعبيد، استوى في عِلْمِه القريبُ والبعيد، لا مَلْجَأَ منه إلَّا إليه ولا مَفرَّ ولا مَحِيد.

سبحانَ فارجِ الكُرُبَاتِ، ومُجِيبِ الدَّعواتِ، ومُغيثِ اللَّهفات، سبحان العالِمِ بالظَّواهرِ والنِّيَّات، القائمِ بأرزاق جميعِ المخلوقات، سبحان اللَّهِ مكوِّنِ الأكوانِ، ومدبِّرِ الأزمان، ذي العظمةِ والجودِ والعِزِّ والسُّلطان، يُحبُّ الآيِبَ، ويَتُوبُ على مَنْ تاب.

أَحْمَدُه تعالى حَمْدَ مَنْ تَابَ إليه وأَنَاب، وأَشْكُرُه على نِعَمٍ تَفُوقُ العَدَّ والحِسَاب، وأَرْجُو عفوَه وأَسْأَلُه المَزِيدَ من فضْله.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(١) أُلقيت يوم الاثنين، الثالث من شهر رمضان، سنة تسع عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، أَخشى النَّاسِ لربِّه وأتقاهم لمولاه، وأكثرُهم له استغفاراً وأصدقُهم شُكراً، اللَّهم صلِّ وسلِّم على عبدِك ورسولِك وخليلِك مُحَمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه هداة الأنام وبشائر الظَّلام.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه -، وتُوبُوا إليه واسْتَغْفِرُوه، وأَخْلِصُوا له العبادةَ ووَحِّدُوه.

أيُّها المسلِمون:

المعاصي والذُّنوبُ ضررُها على الأبدانِ والقلوب، وتَسْرِي إلى البُلْدَانِ والدُّور، وأَثَرُهَا ظاهرٌ على الشُّعوب والأفراد؛ فهي جالبةٌ للشُّرور والمصائب، بها تَزُولُ النِّعمُ، وتَحْصُلُ النِّقَم، وبسببها تتوالى المِحَنُ وتَتَدَاعَى الفِتَن.

إنَّ الذُّنوبَ والمَعَاصيَ شُؤْمٌ على الأفراد والمجتمعات، تُهْلِكُ الحَرْثَ والنَّسل، وتَنْزِعُ البرَكةَ وتَمْنَعُ الرِّزقَ من السَّماء: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، وما حلَّ بِسَالِفِ الأُمَمِ من شديدِ العقوباتِ إلَّا بالذُّنوبِ وغَلبةِ الأَهْوَاءِ وإيثارِ الشَّهَوات؛ قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

بالمعصيةِ تَتَعَسَّرُ الأمور، فما يَطْرُقُ العاصي باباً إلَّا وَجَده مُغْلَقاً

دونه، أو مُتعَسِّراً عليه تحقيقُه، والخطيئةُ تَحرِمُ الرِّزقَ من السَّماء، والذُّنوبُ متى اسْتَحْكَمَتْ؛ قَتَلَتْ وبالهَلَاكِ آذَنَتْ، يقول ابن مسعُودٍ رضي الله عنه: «إِذَا ظَهَرَ الزِّنَى وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ بِهَلَاكِهَا»، وتَتَابُعُ الآثام سببُ زوالِ الأمنِ والاطمئنان؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

كم أهلكتِ المعاصي من أُمَّةٍ؟! وكم دمَّرتْ من مُجْتَمَعاتٍ؟! ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، يقول النَّبيُّ ﷺ: «وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ» (رواه مسلم)، قال مجاهدٌ رحمه الله: «إِنَّ البَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ وَأَمْسَكَ المَطَرَ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤْمِ مَعْصِيَةِ بَنِي آدَمَ».

أيُّها المسلِمون:

عقوبةُ الذَّنْبِ تَحُلُّ ولو بعد حينٍ؛ قال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وهَوانُ الذَّنْبِ على العاصي من علامةِ الهَلَاك، وكلَّما صَغُر الذَّنْبُ في عَيْنِ العبد؛ عَظُمَ عند اللَّه، ومُحقِّراتُ الذُّنوبِ إذا اجْتَمَعْنَ على الرَّجُل؛ أَهْلَكْنَه، والذُّنوبُ عظيمٌ خَطَرُها إذا جَاهَرَ بها العُصَاة؛ يقول ابن حَجَرٍ رحمه الله: «يَكُونُ إِهْلَاكُ الجَمِيعِ عِنْدَ ظُهُورِ المُنْكَرِ وَالإِعْلَانِ بِالمَعَاصِي»، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

وليس من شرورٍ ولا بلاءٍ إلَّا وسبَبُه الذُّنوبُ والمعاصي: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، ويقول ﷻ: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، وما ظَهَرَتِ المعاصي في دِيَارٍ إلَّا أَقْحَطَتْهَا، ولا تَمكَّنتْ من قلوبٍ إلَّا أَعْمَتْهَا، ولا فَشَتْ في أُمَّةٍ إلَّا أَذَلَّتْهَا، بالمعاصي يَهُونُ العبدُ على ربِّه، فتُرْفَعُ مَهَابَتُه من قلوبِ خلْقِه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، والذَّنْبُ بعد الذَّنْبِ يَقْطَعُ طُرُقَ الطَّاعة، ويَصُدُّ عن سبيلِ الخَيْرَات، وتَتَحوَّلُ العافيةُ، ويُستجلَبُ سَخَطُ اللَّه.

أيُّها المسلِمون:

مُنكَراتٌ دَهْمَاء في بعض المُجْتَمَعَات؛ كم هي أعدادُ المُصلِّين في صلاة الفجر؟! وما حالُ الأغنياءِ مع الزَّكَاة؟! وما شُؤْمُ أَكَلَةِ الرِّبا على أنفُسِهم؟! وما السُّمومُ التي يُسقونها أبناءهم ويَنْخَنِقُ من نَتَنِها مُجتمعُهُم؟! والأرحامُ تمزَّقَتْ وتَقطَّعَتْ!! وما حالُ الغَيرةِ على المَحَارِم، وزَعْزَعَتِهَا على الأعراض؟! أين حياءُ النِّساءِ وسترُهنَّ؟! فَشَتْ عند بعضِهم رذائلُ الأخلاقِ، وسقيمُ العاداتِ في البنين والبنات، كَثُر أكلُ الحرامِ، وتنوَّعتْ فيه الحِيَل، أيمانٌ باطلةٌ، وخصوماتٌ جائرةٌ، سكوتٌ عن المنكَرات؛ بل وجَلْبُها إلى المساكن، إنَّ الغَيرة للَّه عند بعضِ النَّاس قد تَضَعْضَعَتْ، والمُحرَّماتُ قد انتُهِكَت، والأحوالُ تَفْسُد عند طغيان الشَّهَوَات، والمُجَاهَرةِ بالمُنْكَرَات.

أيُّها المسلِمون:

بالمعاصي تزولُ النِّعَمُ، وتَحُلُّ النِّقم، بسببها تتوالى المِحَنُ وتَتَدَاعى الفِتَن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،

واحتقارُ الخَطِيئَةِ، والإصرارُ على المَعْصِيَة، والافتخارُ بالسَّيِّئة؛ بُرهانُ فسادِ القَلْب، وانتكاسِ الفَطْرَةِ، وعَمَى البَصِيرَة.

أيُّها المسلمون:

إذا كَثُرَ الاستغفارُ في الأُمَّة، وصدَر عن قلوبٍ مطمئنَّةٍ؛ دَفَعَ اللَّهُ عنها ضُروباً من النِّقَم، وصَرف عنها صُنُوفاً من البَلَايَا والمِحَن: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، بالاستغفار تَتَنزَّلُ الرَّحَمات: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، بالاستغفار يَبلُغُ كلُّ ذي مَنْزِلٍ مَنْزِلَتَه، ويَنَالُ كلُّ ذي فَضْلٍ فضْلَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

فاتَّقوا اللَّهَ، واتَّعِظُوا، واعْتَبِرُوا، وبَادِرُوا بالتَّوبةِ، وتَعَجَّلُوا الإِنَابَة؛ فقد جَعلَ اللَّهُ لكم في التَّوبةِ مَلَاذاً مَكِيناً، ومَلْجَأً حَصِيناً، ومَنْ يَتَدنَّسْ بشيءٍ من قَذَرِ المعاصي، وأوحال الذُّنوب؛ فلْيُبَادِرْ بغَسْلِه بماءِ التَّوبةِ، وطهورِ الاستغفار، وخيرُ العاصين: مَنْ يُسَارِعُ إلى التَّوبةِ، ويُبَادِرُ إلى العودة، تحثُّه الخُطا، وتُسرِعُ به الدَّمْعَةُ، ويَحُوطُه العملُ الصَّالحُ.

أيُّها المسلمون:

ها أنتم قد حضَرْتُم تَشْكُونَ إلى ربِّكم جَدْبَ ديارِكم، وتَبْسُطُونَ إليه حاجتَكم؛ فادْعُوه سبحانه، والْتَجِؤُوا إليه وتَقرَّبُوا بصالحِ العملِ لديه، فما ضاق أَمْرٌ إلَّا وجَعَلَ اللَّهُ منه مخرَجاً، ولا عَظُمَ خَطْبٌ إلَّا وجَعل اللَّهُ معه فَرَجاً.

وفي كِتاب اللَّه قومٌ مَذْمُومُون؛ لم يَسْتَكِينُوا عند البلاء، ولم

يَرْجِعُوا إلى ربِّهِم في البَأْسَاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

فتوجَّهوا إلى اللَّه تائبين، ورُدُّوا المَظَالِمَ إلى أهلها؛ فإنَّ اللَّهَ قد حَرَّمَ الظُّلمَ على نفْسِه وجَعلَه بينكم مُحَرَّماً فلا تَظَالَمُوا، ولا تُمَزِّقوا بالغِيبَة أعرَاضَكم، وتَسامَحوا، وتَراحَمُوا، ولا تَشَاحَنُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَقَاطَعُوا، وأَكثِرُوا من الصَّدقة؛ تُرْزَقوا، وأْمُرُوا بالمعروف؛ تُخْصَبُوا، وانْهَوْا عن المُنْكَر؛ تُنْصَرُوا.

ولا تشتغلوا بأموالكم في معصية اللَّه، واسْعَوْا إلى الْتِمَاسِ المغفرة من اللَّه، واصْرِفُوا هَمَّكُم بالتَّقرُّبِ إليه بطاعته.

وإيَّاكم ومُحَقَّرَاتِ الذُّنوب فإنَّ لها من اللَّه طالباً، وما نَزل بلاءٌ إلَّا بذنْبٍ، ولا كُشِف إلَّا بتوبةٍ.

فاستكينوا إلى ربِّكم، وارفَعُوا أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ إليه، واستَغْفِرُوه؛ فقد قال نوحٌ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾، وقال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمةٍ، لا سُقْيَا عَذَابٍ ولا هَدْمٍ، ولا بَلَاءٍ ...

الحِكْمَةُ مِنْ مَنْعِ القَطْرِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى؛ فمَنِ اتَّقاه هداه، ومَنْ لَجأَ إليه حَفِظه ووَقَاه.

أيُّها المسلمون:

ربُّنا سبحانه غنيٌّ عظيمٌ، وكُلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ فَقِيرٌ إليه خَاضِعٌ له؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ورحْمتُه وسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، وعندهُ خزائنُ كلِّ خيرٍ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، يدهُ سبحانه مَلْأى لَا يَنْقُصُها نَفَقَة، دائمةُ العَطاء في اللَّيلِ والنَّهار، قال ﷺ: «**أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ** - أَيْ: لَمْ يَنْقُصْ - **مَا فِي يَمِينِهِ**» (متفق عليه).

---

(١) أُلقيت يوم الخميس، السادس عشر من شهر صَفَر، سنة أربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

لا رادَّ لفضلِه ولا مُمْسِكَ لعطائه؛ قال ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، قائمٌ سبحانه بأرزاقِ عبادِه مُتكفِّلٌ بها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، لا غِنى لأحدٍ عن رِزقِه وكَرَمِه؛ قال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾.

نِعَمُهُ سبحانه لا تُعَدُّ، ولا تُحصى، تَأَذَّنَ بالمزيد لِمَنْ شَكَر، وتَوَعَّد بالعذابِ الشَّديدِ لِمَنْ كَفَر؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾.

والماءُ نعمةٌ عظيمةٌ به حياةُ الأرضِ ومَنْ عليها؛ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، ماءٌ مُبارَك يَجتمعُ مِنْ قَطراتٍ، ثمَّ تَحيَا بِه زُرُوعٌ وأُمَمٌ؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

به امتنَّ اللَّهُ على عبادِهِ، وجَعلَ إِنْزَالَهُ من دلائلِ رُبُوبيَّته وأُلُوهِيَّتِه؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، واحتجَّ به تعالى على تَفرُّدِه بالإِنْعَام وبُطْلَانِ ما يُدْعَى سِوَاه؛ قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

والذُّنوبُ أَعْظَمُ دافِعٍ ورافعٍ لهذه النِّعْمَة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ شَرٌّ وَبَلَاءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالمَعَاصِي؟!»، وَمَا نَقَصَتْ أرزاقُ العبادِ إلَّا من شُؤْمِ المعاصي وشَرِّهَا؛ قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ﴾ أي: نقصُ الثِّمَار والأرزاق، ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، قال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دَوَابُّ الأَرْضِ وَهَوَامُّهَا - حَتَّى الخَنَافِسُ وَالعَقَارِبُ - يَقُولُونَ: مُنِعْنَا القَطْرَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ»، والَّذي يَفُوتُ بارتكابِ المعاصي من الخيرِ أضعافُ ما يَحْصل من الشَّرِّ.

ومِنْ كمالِ لُطْفِ اللَّه ورَحْمَتِه بعبادِهِ؛ تَعدُّدُ النُّذُرِ بين يدي عذابه؛ لِيَرْجِعَ العِبادُ إلى ربِّهم ويتوبُوا إلى بارئهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

وأعظمُ أسبابِ الخير ونُزُولِ الغيثِ: تَقْوَى اللَّهِ، والإيمان به؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وكمالُ النِّعَم في الطَّاعة، ولزوم الاستقامة، وبها الفرجُ ونزولُ القَطْر؛ قال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾.

وحُسنُ الظَّنِّ باللَّهِ ورَجاءُ ما عنده؛ أَمْنٌ وطُمأْنِينَة، ودِينٌ وقُرْبَة؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ** - أَيْ: تَغَيُّرِ حَالِهِمْ -، **يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**» (رواه أحمد).

واليأسُ مِن رَوْحِ اللَّهِ والقُنوطُ من رحمتِه؛ سوءُ ظنٍّ به تعالى، ومعصيةٌ يَصْحَبُها اضطرابٌ؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

والدُّعاءُ والتَّعلُّقُ باللَّه هو العبادةُ والمَخرَجُ من كلِّ ضيقٍ وكربةٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وبه استنزالُ الخير، ودفعُ كلِّ سوءٍ؛ قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، واللَّهُ سبحانه قريبٌ من عبادِه الدَّاعين، لا يُخيِّبُ مَنْ رَجاهُ، ولا يردُّ مَنْ دَعاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، والتَّضرُّعُ إلى اللَّهِ مُؤْذِنٌ بِكَشْفِ البلاء، وحلولِ الرَّخاء؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾.

والإحسانُ إلى الخلْق مُوجِبٌ لِمَحبَّةِ اللَّهِ ودافعٌ لِغَضَبِه وعِقَابِه؛ قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

والصَّدقةُ برهانٌ على الإيمان، وتُطْفِئُ الخَطِيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النَّار.

وما استُجْلِب قَطْرُ السَّماءِ وسَعَةُ الأرزاقِ بمثلِ استغفارِ اللَّهِ والتَّوبةِ إليه؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبذلك أمَرَ الأنبياءُ أقوامَهم؛ قال ﷻ عن نوحٍ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾، وقال عن هودٍ عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾، وقال صالح عليه السلام: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، وشعيبٌ عليه السلام قال لقومِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

واللَّهُ أَوجبَ رَحْمته للمُسْتَغْفِرين؛ قال سبحانه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وبذلك السَّعادةُ وحُسْنُ العاقبة؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، وما دُفِعَتِ الشَّدائدُ والمِحَنُ بأعظمَ من التَّوبةِ والاستغفار؛ قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فاللَّهُمَّ إِنَّا نَستغفرُكَ إِنَّك كنتَ غفَّاراً؛ فَأَرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ، لَا سُقْيَا عَذَابٍ ولا هَدْمٍ ولا بَلَاءٍ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنَا غَيْثاً مُغِيثاً، هَنِيئاً مَرِيئاً، يا رزَّاقُ يا كريمُ يا وهَّاب.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا خيرَ ما عِنْدَك بسوءِ ما عِنْدَنا.

اللَّهُمَّ زِدْنَا ولا تَنْقُصْنَا، وأَكْرِمْنَا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنَا ولا تَحْرِمْنَا، واهْدِنَا ويَسِّر الهُدَى لنا، برحمتك يا أرحمَ الرَّحمين.

عبادَ اللَّه:

اقْلِبُوا أَرْدِيَتَكُم؛ اقْتداءً بِسُنَّةِ نبيِّكُم؛ تَفَاؤُلاً بتَغيُّر حَالِكُم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ❁ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ❁ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أَسْبَابُ نُزُولِ المَطَرِ (١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه حقَّ تُقاتِه، وتُوبُوا إليه واسْتَغْفِرُوه، وأَخْلِصُوا له العبادةَ ووَحِّدُوه.

أيُّها المسلمون:

خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، وتَكفَّلَ بأرزاقِهم، وأخبرَهم بِضَمَانِه منذ نفخِ أرواحِهم؛ ليتوكَّلوا عليه فيطمئنُّوا في حياتهم، قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**» (متفق عليه).

---

(١) أُلقيت يوم الاثنين، الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

ولَنْ تَمُوتَ نفْسٌ حتى تَسْتَوْفِيَ رزقَها، ومِن ضمانِه لرزِقِهم جَعَلَ السَّماءَ تُمطِرُ عليهم من فوقِهم: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وشقَّقَ الأرضَ مِنْ تحتِهم فأخرجَ به مُختلَفَ الزُّروعِ والنَّباتِ لهم: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

ومِن كرَمِهِ سبحانه: جلْبُ الرِّزقِ لعباده من البِحَار؛ فالفُلكُ تَمْخُرُ في أعلاه، وما في بطنِهِ من الصَّيدِ والطَّعامِ - بما فيه مَيتَتُه - حلالٌ لهم، وجواهِرُه - مِنَ اللُّؤْلُؤِ والمَرْجَانِ ونفائسَ أُخَرَ - زينةٌ لهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وسَخَّرَ لهم الأفلاكَ الجَارِيَةَ والخَانِسَة، منها المُضِيءُ وفيها ذاتُ اللَّهَب: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ بل كلُّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما من رِزْقِ اللَّهِ فهو للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

وتابَع عليهم سبحانَه النِّعَمَ من السَّماءِ والأرض، منها ما وُجِدَ قبْلَ خلْقِهم - كالأشجار والبحار -، ومنها ما هو بعدَ خلْقِهم ولم يسألوه إيَّاها، ونِعَمٌ حادِثَةٌ لهم بعد سؤالِهم لها: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ فنوَّعَ النِّعمَ لخلْقِه، وذكَّرَهم بفضلِه فقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

ومِنْ جُودِهِ: يُعطِي العبادَ ما يَسْأَلُونَه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، ومع كثرةِ النِّعَمِ وتَدافُعِهَا قلَّ مَنْ يَشْكُرُها، قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وإذا أسرفَ العبادُ في عِصيانِهِم؛ منعَ عنهم بحكمته بعضَ أرزاقِهِم؛ ليرجِعُوا إليه، قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ أي: نَقْصُ الأَرْزَاق ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والمعاصِي تَدفعُ نزولَ نِعَمٍ نازِلةٍ؛ كالقَطْر، أو تَرفعُ نعمةً حادِثةً؛ كالغِنَى، وقد لا تَرفعُها ولكن تَنْزِعُ البرَكةَ منها؛ قال ﵊: «**لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئاً**» (رواه مسلم).

واللَّهُ لا يظلِمُ العبادَ شيئاً؛ فلا يمنَعُ عنهم نزولَ نعمةٍ، أو يرفعُ عنهم عافيةً إلَّا بسببِ ذنوبِهم؛ قال جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

والعبادُ كلُّهم - قويُّهم وضعيفُهم، صغيرُهم وكبيرُهم - لا غِنى لهم عن ربِّهم طرفةَ عينٍ؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

وإنْ طَغَى العِبادُ بالعِصيانِ؛ فاللَّهُ يُمْلِي لهم، ويَحْلُمُ عليهم، ولا يَغْفُلُ عنهم؛ قال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

وقد شَمِلَ سبحانه الخلْقَ برحمتِه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ومِنْ رحمتِهِ بعباده أنَّهم إنْ رجَعوا إليه؛ غيَّر حالهم، ورزَقَهم من حيث لا يحتسِبون؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ومن رَأْفَتِهِ بهم أَنْ جَعلَ التَّوبةَ بأمورٍ يسيرةٍ؛ فالقلبُ بندَمٍ على ما بدَرَ من ذنْبٍ، وعزمٍ على عدم العودة إلى المعصية، وفي الجوارح بالبُعد عن اقترافِ العِصيان.

وإذا تواطَأَ اللِّسانُ بالاستغفار مع التَّوبةِ، وفَارَقتِ الجوارِحُ العِصيانَ؛ انْهَمَرَ المطرُ، وزادَتْ قوَّةُ الأبدان، ونَمَتِ الأموالُ، وكثُرَ الأولادُ، ونبَتَتِ الزُّرُوعُ، وتَمتَّعَ الإنسانُ في حياته متاعاً حسناً؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾، وقال جلَّ شأنُه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقال نوحٌ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

وإذا صَاحَبَ التَّوبةَ والاستغفارَ إنابةٌ إلى اللَّه بالتَّقوى؛ حلَّتِ البركةُ في الأرزاق؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فاللَّهُمَّ إنَّا نستغفرُك إنَّكَ كنت غفَّاراً، فأرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِين.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا غَيْثاً مُغِيثاً، هَنِيئاً مَرِيئاً، سَحّاً غَدَقاً، نَافِعاً غيرَ ضارٍّ، عاجِلاً غيرَ آجِلٍ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ، لا سُقْيَا عَذابٍ ولا بَلَاءٍ، ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا خيرَ ما عِنْدَكَ بسُوءِ ما عِنْدَنا؛ فإِنَّك أنتَ الوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الكريمُ الحليمُ الرَّحيم.

اللَّهُمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً، وفي الآخرةِ حَسَنةً، وقِنَا عَذابَ النَّار.

عبادَ اللَّه:

اقْلِبوا أَرْدِيَتَكُم؛ تأسِّياً بِسُنَّةِ نبيِّكُم، تَفاؤُلاً بتغيُّرِ حَالِكُم.

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الالْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ القَحْطِ[1]

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واسألُوه في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

أيُّها المسلمون:

الخلْقُ فقراءُ إلى اللَّه، لا غنى لهم عنه في جميع أحوالهم، يَلْجَؤُونَ إليه في الشِّدَّة والرَّخاء، وهو سبحانه واسعٌ حميدٌ، يُعْطي مَنْ سَأَلَه بِسَخَاءٍ مديدٍ، يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ بالإنفاق، «سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، ويَكْشِف كلَّ كربٍ شديدٍ، نجَّى ذا النُّونِ من لُججِ البحار وظَلْماءِ القِفار.

مَرْجُوٌّ للعطاءِ والإحْسَان، سَخَّرَ مع سُلَيْمَانَ عليه السلام جُنُوداً من الجنِّ والإنس والطَّير فهم يوزعون، لا راحمَ، ولا واسعَ للعبيد سواه، رَحِمَ

---

(١) أُلقيت يوم الاثنين، الثامن والعشرين من شهر ذي الحِجة، سنة ثمان وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكَشف عنه الضُّرَّ، وأكرمه بِجَرَادٍ من ذَهَبٍ، لا ملجأَ، ولا مفرَّ منه إلَّا إليه، استغاث به نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدرٍ؛ فأغاثه بماءٍ وأَنزل جنوداً لم يروها، وهو فارجُ الكرباتِ، ومغيثُ اللَّهفات، أَنزل على نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْناً بعد خوفٍ في الغار، وهو العالِم بالظَّواهر والنِّيَّات، اصطفى من الملائكة رُسُلاً ومن النَّاس.

مُسْتَوٍ على عَرْشِه، كبيرٌ كَوَّن الأكوان، ودبَّر الأزمان، وأَغشى اللَّيلِ على النَّهار، مَلِكٌ عظيمٌ يقول للشَّيء: كن فيكون، صمدٌ قهَّارٌ، إذا تَكلَّم بالوحي أخذتِ السَّمواتِ منه رِعْدَةٌ ورجفةٌ شديدة؛ فَرَقاً من الواحد الأحد، يُحِبُّ الأوَّاب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ويَتُوبُ على مَنْ تاب؛ فتَابَ على آدمَ بعد النِّسيان.

قائمٌ بأرزاق جميع المخلوقات؛ فرَزَقَ الطُّيورَ في عُلوِّ أَوْكَارِهَا، والحِيتَانَ في بِحَارِهَا، وأرزاقه دارَّةٌ من السَّماءِ والأرضِ على عباده: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾، وأَغْدَقَ عليهِمُ النِّعَمَ والآلاء: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾، وإذا لَجأَ العبادُ إليه وشَكروه؛ مَنحَهم مزيداً ممَّا نالوه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾.

قويٌّ متينٌ؛ قال للسَّموات وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، لا يُعْجِزهُ إنزالُ القَطْرِ من السَّماء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ولكنِ العبادُ بخطاياهم يَمنعون رزْقَ اللَّه

إليهم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وما يُصابُ به العبادُ من القَحْطِ وقِلَّةِ الأرزاق؛ إنَّما هو ببعض ذُنوبٍ وخطايا اقترفوها؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، والبُعْدُ عن الاستقامة؛ يَمْنَعُ القَطْرَ من السَّماء؛ قال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

والذي يَفُوتُ بارتكاب المعاصي من خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة؛ أَضْعَافُ ما يَحصلُ من السُّرور واللَّذَّة بها؛ قال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، والأَلَـمُ فيـمَن أَسْخَطَ ربَّه ومَوْلَاهُ بتَدْنِيسِ نفْسِه بالذُّنوبِ والآثَام؛ فمَنَع الرِّزقَ عن نفْسِه وعن غيره: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

والمعاصي والذُّنوبُ مُهْلِكةٌ للأوطان والشُّعوب، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ أي: قِلَّةُ الأرزاق ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وهي جالبةٌ للشُّرور والمصائب، بها تَزولُ النِّعَمُ، وتَحِلُّ النِّقَمُ، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ﴾، وبسببها تَتَوَالَى المِحَنُ، وتَتَدَاعَى الفِتَنُ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وبالمعصية تَتَعَسَّرُ الأُمُورُ على العاصي، وتَمْحَقُ بركةَ عُمُره، ويَعودُ حامدُه من النَّاس ذامّاً له، وقد توهَّمَ بعضُ النَّاسِ في أَمْرِ الذَّنْبِ؛ إذْ لَمْ

يروا تأثيرَه في الحال، وقد يتأخَّرُ تأثيرُه فيَنسون أنَّه من الذَّنْب، ولَمْ يَعْلَمْ أنَّ عقوبةَ الذَّنب تَحُلُّ ولو بعد حينٍ؛ قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ومَنْ عَمِلَ سُوءاً؛ جُزِيَ به، لُعِنَ إبليسُ وأُهْبِطَ من مَنْزِلِ العزِّ؛ بتركِ سَجْدةٍ واحدةٍ، وأُخرِجَ آدمُ من الجَنَّة بأَكْلةٍ تناولَها، و«**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا**»، و«**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الخُيَلَاءِ، خُسِفَ بِهِ؛ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»، وهوانُ الذَّنْب على العاصي من علامةِ الهلاك، وإذا صَغُر الذَّنْبُ في عَيْنِ العبد؛ عَظُمَ عند اللَّه، وصَغائرُ الذُّنوبِ إذا اجتمَعَتْ على الرَّجُل أَهْلَكَتْه، قال أَنسٌ رضي الله عنه: «إِنَّكُم لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ» (رواه البخاري).

والخطيئةُ إذا خَفيتْ؛ لم تَضُرَّ إلَّا صاحبَها، وإذا ظَهرتْ فلم تُغَيَّرْ؛ ضرَّتِ العَامَّة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ لَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابِهِ**» (رواه أحمد).

والذَّنْب يَعْظُم ويَحْدُق خطرُه إذا جَاهَر به العبد، أو استَصغرَه، أو فَرِحَ به، أو تَهاونَ بِسترِ اللَّه عليه، والذَّنْبُ على الذَّنْبِ يُعْمِي، والمُجَاهَرَةُ به مِنْ أعظمِ الأوزار؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**» (متفق عليه)، والذَّنْبُ لا يَقْتَصِرُ على ارتكاب المَنَاهِي فحسب؛ بل إنَّ التَّقصير في أداء الواجب مِن جملةِ المَآثِم، ومَنْ لَمْ

يتقدَّمْ بالطَّاعة فقد تأخَّرَ بالتَّقصير، وَمِنْ أعظم الاغترارِ: التَّمادي في الذُّنوب مع رجاءِ العفوِ من غير ندامةٍ.

وربُّنا سبحانه الرَّؤُوفُ اللَّطيفُ الحَلِيم، إذا أخطأ العبادُ أَنذَرهم، فيَمْنَعُ عنهم القطرَ؛ ليلجؤوا إليه بالاستغفار والإنابة، وإذا كَثُر الاستغفارُ وصَدَر عن قلوبٍ مُطْمِئنَّةٍ؛ دَفع اللَّه عنها ضروباً من النِّقَم، وصَرَفَ عنها صُنُوفاً من البَلَايَا والمِحَن؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وأَنزَلَ عليهمُ الخَيْرَ والرَّحَمَات: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وبالاستغفار تُنالُ السَّعادةُ، ويُعْطَى كلُّ ذي فَضْلٍ فضْلَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، وبالاستغفار يَنْهَمِرُ المطر من السَّماء؛ فيَنعَمُ الخَلقُ بالقَطر، ويَستبشرون بالزُّروع والأبناء والعيون: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

ومعَ الاستغفارِ لَازِمُوا التَّوبة، فلا تَظْلِمُوا خَلْقاً، ولا تُمزِّقوا بالغيبة عِرْضاً، وتَسامَحُوا وتَراحَمُوا، ولا تَشاحَنُوا ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَقَاطَعُوا، واحْفَظُوا أموالَكُم مِنْ دَنَسِ المُحرَّماتِ والشُّبُهَات، وأَكثروا من الصَّدقةِ بكسبكم الحلال تُرْزقوا، وأْمُرُوا بالمعروف تُخْصَبُوا، وَانْهَوْا عن المُنْكَر تُنْصَرُوا، وَاسْعَوْا إلى الْتِمَاسِ هِبَاتِ الوهَّاب، فربُّنا كريمٌ ودودٌ، مَنْ لَجَأَ إليه أَعْطَاه، ومَنْ قَرُبَ منه أَدْنَاه، ومَنْ سَأَلَهُ أَرْضَاه.

وما ضاق على العباد أمرٌ ولَجَؤُوا إليه؛ إلَّا رَزَقَهُم بغير حسابٍ، ولا عَظُم عليهم خَطْبٌ إلَّا جَعلَ لهم مَعَهُ فَرَجاً قريباً، وأبوابُ فضْلِه وَاسِعةٌ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، جَعل مع الاستغفار أرزاقاً، ومع الدُّعاءِ عطاءً، ومع الاستكانة سخاءً، فتوجَّهوا إلى اللَّه مُسْتَغْفِرين رَاغِبين، مُؤمِّلين دَاعِين، مُتَوَكِّلين رَاجِين، مُنِيبِين تَائِبين؛ تَنَالُوا العَطَايَا من الكريم.

فاللَّهمَّ إنَّا نَسْتَغْفِرُك إنَّك كُنت غفَّاراً؛ فأَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ لا سُقْيَا عَذَابٍ ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ ولا بَلَاءٍ.

اللَّهُمَّ أَغِثْ دِيَارَنَا وقُلُوبَنا وبِلَادَنا.

اللَّهُمَّ عَامِلْنَا بما أَنْتَ أَهْلُه، ولا تُعَامِلْنَا بما نَحْنُ أهلُه.

اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنا خيرَ ما عِنْدَك بِسُوءِ ما عِنْدَنا.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

ربنا لا تُؤَاخِذْنَا بما فَعلَ السُّفَهَاءُ منَّا.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُك مِنْ واسعِ فضْلِك العظيم.

اللَّهُمَّ أَعْطِنا ولا تَحْرِمْنا، وأَكْرِمنا ولا تُهِنَّا، وامْكُر لنا ولا تَمْكُر علينا.

عبادَ اللَّه:

اقْلِبُوا أَرْدِيَتَكُم؛ اقتداءً بِسُنَّةِ نبيِّكُم وتَفاؤُلاً بتغيُّرِ حَالِكُم.

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

التَّوْبَةُ سَبَبُ نُزُولِ المَطَرِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللَّه - عبادَ اللَّه - حقَّ التَّقوى، واسْأَلُوه في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

أيُّها المسلمون:

سمَّى اللَّهُ نفْسَه بأسماءٍ حُسْنى، واتَّصفَ سبحانه بصفاتٍ عُلَا، فهو اللَّهُ الذي لا إله إلَّا هو السَّميعُ البَصير، يَسْمَعُ أقوالَ خلْقِه ويَرى أفعالَهم، عليمٌ بما في صُدُورِهِم، يتوبُ على التَّائبِ منهم، وهو سبحانه مُطَّلعٌ على أحوالِهم، رقيبٌ عليهم، لا تَخْفَى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، يُحصِي أعمالَ العباد، ويَنَالُ

---

(١) أُلقيت يوم الاثنين، السابع من شهر محرَّم، سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

كلٌّ منهم جزاءَ عَملِه في هذه الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، وَعَدَ سبحانه مَنْ عَمِلَ خيراً بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وتَوعَّد ﷻ مَنِ اقْتَرَفَ السَّيِّئات بالمُجازاة عليها؛ فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وما لا يَعْلَمُهُ العبدُ من ذنوبِه أضعافُهَا يَعْلَمُهُ منها؛ قال النَّبيُّ ﷺ لأبي بَكْرٍ رضي الله عنه: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ» (رواه البخاري في الأدب المفرد).

واللَّهُ سبحانه يُمْسِكُ بعضَ نِعَمِه عن عبادِه - مِن حبْسِ القَطْر، وجدْبِ الدِّيار، ومَحْلِ الأرض -؛ لِيَسْتَكِينُوا لِخَالِقِهم، ويَرْجِعُوا إليه من ذنوبٍ اقترفوها، أو تقصيرٍ في واجباتٍ لم يؤدُّوها.

وإظهارُ التَّوبةِ والإنابةِ إلى اللَّه؛ أَوْجَبُ وأَلْزَمُ حال فَقْرِ العبادِ وحاجتِهم إلى المطر، أو اسْتِنْزَالِ نِعْمَة، أو دَفْعِ عُقُوبَة، أو رفعِها، والرُّجُوعُ إلى اللَّهِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ مِنْ أفضلِ الكَمَالَات، فيه تُجْلَبُ الأرزاق، ويَدْنُو المرءُ من اللَّه، ويُخَلِّصُ العبدُ نفسَه من الظُّلم، قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

والأنبياءُ والرُّسُلُ تَذَلَّلُوا للَّهِ بالرُّجوعِ إليه؛ آدمُ عليه السلام أَكَلَ من الشَّجَرة؛ فتَلَقَّى كلماتٍ من ربِّه فَتَابَ عليه، وموسى عليه السلام لمَّا رأى الجَبَلَ دكّاً؛ خَرَّ صَعِقاً، وقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وداودُ عليه السلام فَتَنَهُ اللَّهُ بحُكْمٍ بين خَصْمَيْنِ ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ

وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، ونَبيُّنا ﷺ قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: إلى اللَّه أَدْعُو وإليه أَتُوب، وكان ﷺ يَدْعُو في المَجْلِسِ الواحدِ مئةَ مرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**» (رواه أبو داود)، والملائكةُ تَدْعُو لِمَنْ تَابَ بالمَغْفِرَة والنَّجاةِ من النَّار: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ومِنْ فَضْلِ اللَّه: أنَّه لم يَجعلْ لعبادةِ التَّوبةِ زماناً ولا مكاناً مَخْصُوصاً؛ بل أداؤُها مَقْبُولٌ في كلِّ مكانٍ وحِينٍ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**» (رواه مسلم).

التَّوبةُ تَحُطُّ أَعْظَمَ ذنْبٍ عند اللَّه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وتُكَفِّر خطايا المسرفين في العصيان، واللَّهُ لا يُعَذِّبُ مُستغفِراً تائباً؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وبالاستغفارِ تَتَفَتَّحُ السَّماءُ بالأرزاق؛ قال سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وتُمْنَحُ قوَّةٌ في البدن؛ قال ﷻ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وبه يَكثرُ المالُ والولد؛ قال سبحانه: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾، وبه يَسْعَدُ الإنسانُ في الدُّنيا ويُمَتَّعُ فيها متاعاً حسناً؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، وخيرُ يومٍ على العبدِ في دَهْرِه: يومٌ يَتُوبُ فيه إلى اللَّهِ

ويَتُوبُ اللَّه عليه؛ قال النَّبيُّ ﷺ لِكَعْبِ بنِ مالكٍ ﵁ لَمَّا نَزَلَتْ توبتُه في القرآن: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» (متفق عليه).

ومِنْ علامة قَبولِ التَّوبة: كَرَاهةُ العبدِ المعصيةَ واستقباحُه لها، وأن يَظلَّ خائفاً من خطيئتِه لا يَأمنُ مِنْ مَكْرِ اللَّه طرفةَ عينٍ، ومِنْ تَمام التَّوبةِ: عملٌ صالحٌ بعدها؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

فأَقْبِلُوا على التَّوَّابِ الرَّحيم بتوبةٍ صادقةٍ، وأَحْسِنُوا ظنَّكم به، واسْأَلُوا ربَّكم الكريمَ الغيثَ؛ فبابُهُ مفتوحٌ، وفضْلُه عظيمٌ، ورحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، مَنْ أقبلَ إليه تائباً؛ فَرِحَ بتوبتِه وآواه، ومَنِ اسْتَغْفَرَه؛ غَفَرَ له، ومَنْ طَلبَ إنزالَ المطرِ من اللَّه وحده بقلبٍ مُنْكَسِرٍ ودُعاءٍ صادقٍ وكسبٍ حلالٍ؛ فقد اسْتَجْمَعَ شروطَ إجابةِ الدُّعاء.

فاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ إنَّك كُنْتَ غفَّاراً؛ فأرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً.

اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الغَنيُّ وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ القَانِطِينَ.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُمَّ أَغِثْنا.

اللَّهُمَّ أَغِثْنا غَيثاً مُغِيثاً، هَنِيئاً مَرِيئاً، سَحّاً طَبَقاً، يا ربَّ العَالَمِين.

اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ، لا سُقْيَا عَذَابٍ ولا بَلَاءٍ، ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ، اللَّهُمَّ لِتُحْيِيَ به العِبَادَ والبلاد، وتَنْشُرَ بِهِ رَحْمَتَك على خلْقِك وبهائمك، يا أرحمَ الرَّاحمين.

اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنا خيرَ ما عِنْدَك بسُوءِ ما عِنْدَنا.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

نَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ علينا ونَبُوءُ بِذُنُوبِنا؛ فاغفِرْ لنا؛ فإنَّه لا يَغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت.

لا إله إلَّا أَنْتَ سبحانكَ، إنَّا كنَّا من الظَّالِمِين.

ربَّنا مسَّنا الضُّرُّ وأنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين.

عبادَ اللَّه:

اقْلِبُوا أَرْدِيَتَكُم؛ تَأَسِّياً بِسُنَّةِ نَبِيِّكُم، تَفَاؤُلاً بتغيُّرِ حَالِكُم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفصل الثَّاني

الخُسُوفُ وَالكُسُوفُ

آيَةُ الخُسُوفِ(١)

بسمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِين.

وبعدُ:

فاللَّهُ ﷻ يُرْسِلُ على عبادِهِ الآيات؛ لِتخويفِهم ولرُجوعِهم إلى ربِّهم ورُشْدِهِم؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، ولا يَعتَبِرُ بالآيات والنُّذُرِ إلَّا أهلُ الإيمان والتَّقوى والصَّلاح، أمَّا أهلُ الانحرافِ والضلالِ فإنَّها لا تَنْفَعُهم؛ بل إنَّها تزيدُهم في الضَّلال والعُتُوِّ، قال ﷻ عنهم: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي هذا الكونِ آياتٌ عظيمةٌ؛ للرُّجوعِ إلى اللَّهِ ﷻ وإلى الهداية وإلى الاستقامة، وإذا حلَّت آيةُ نُذُرٍ دلَّ على أنَّ البشرَ قد وَقَعُوا في أمرٍ عظيمٍ، ويَجِبُ عليهم أَنْ يُقْلِعُوا عن هذا الأمر الَّذي وَقَعُوا فيه.

وما خُسوفُ القمرِ إلَّا مِنْ هذه النُّذُرِ الواضحةِ التي يراها النَّاسُ بأعينهم، لا تَخْفَى عليهم - ذكوراً أو إناثاً، صِغاراً أو كباراً -.

ولمَّا انخَسَفتِ الشَّمسُ على عهد النَّبيِّ ﷺ؛ قال: «**إِنَّ الشَّمْسَ**

---

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الرابع عشَر من شهر شوال، سنة عشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا» (متفق عليه)؛ فيَجِبُ علينا جَميعاً أن نَلجأَ إلى اللَّه؛ لأنَّ الأمرَ قد احْتَدَم، فالمعاصي قد انتَشرت، والفِتَنُ قد تَلاطَمَتْ، والذُّنوبُ بعضُها آخذٌ بِرِقَابِ بعضٍ، وبعضُ النَّاس قد جَهَر بمعاصيه، لا يَسْتَحِي من الخَلْق، ولا يَخافُ من الخالق، والأَمْرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المُنْكَر عند كثيرٍ من النَّاس قد انْطَمَسَ - إلَّا مَنْ شاءَ اللَّه -، وقَلَبَ بعضُ النَّاسِ النَّصيحةَ إلى الغيبة والنَّميمَة.

وتَهاونَ بعضُ الآباء في مراعاة أبنائهم في الصَّلاة وأَمْرِهِم بها، وتَهَاوَنَ بعض وُلَاة الأمر في أمورِ نِسائِهم؛ فلا يُفَتِّشُونَ عن حالِهِنَّ ولا أَمْرِهِنَّ، ولا لِصُحْبَتِهِن الحَسَنة، ولا إلى لباس الحِشْمَة والعفَّة والطَّهارة والنَّقاء؛ بل قد ضَيَّع الوِلايةَ فيه وفي زوجتِه.

وبعضهم قد دَنَّس مَالَه بالمُحرَّمات والشُّبُهات؛ فلا يُبَالي بالكذب في البيعِ والمُعامَلَات، ولا يَنْظُرُ إلى مَالِه؛ أَهُوَ مِن الرِّبا، أو مِن الغِشِّ، أو مِن الخِيَانَة، أو مِن الرِّشْوَة؟ بل قد أَنْتَنَ بطونَ أبنائه من المالِ المحرَّم والسُّحت، والوبالُ عليه، واللَّه ﷻ يقول: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾.

وبعضُ النَّاسِ قد اسْوَدَّ قلبُه من الحَسَدِ والحِقْدِ والبَغْضَاءِ والشَّحْنَاءِ على أبناء المسلمين، وخالف نَهْيَ النَّبيِّ ﷺ في قوله: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا».

وبعضُ النَّاسِ قد فرَّط في أمرِ الدَّعوة والنُّصح، والإرشاد لِعبادِ اللَّه، وتوجيههم؛ وهذا مخالفٌ لنهجِ الأنبياء: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وفِئَامٌ مِن الخَلْق قد مزَّق رحِمَهُ، وقطَّع أوصالَ أقاربه؛ فلم يَصلْهم، وقَاطعَهم، ودابَرهم باسم العِزَّة والرِّفعة، والكِبْر، والعلوِّ، واللَّه ﷻ قد نَهَى عن ذلك، وجَعله من كبائر الذُّنوب.

فعلينا جميعاً أن نتداركَ أنفُسَنا قبل أن يَحُلَّ علينا العذابُ جميعاً، فالآن بَدَتْ لنا النُّذُر، وإذا وَقع العذابُ فلا يرفَعُه أحدٌ؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾، فلا أحدَ يَتَولَّى أَمْر رَفْعِ هذا العذاب؛ فيجبُ علينا أن نُقلِعَ عن الذُّنوب، وأَنْ نُعلِنَ التَّوبة، ونَرجِعَ إلى اللَّه؛ فالبلادُ قد قَحَطَتْ من الذُّنوبِ والمعاصي، والنَّاسُ قد فَشَتْ فيهم الأمراض، وقد انتَشرَ عند بعضهم قلَّةُ المَؤُونَة من المال وغيره، وانتَشرتِ الخصوماتُ الزَّوجيَّة، وفَسَدَت كثيرٌ من الأحوال الاجتماعيَّة؛ كلُّ ذلك بسبب الذُّنوبِ والمعاصي؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

فيجبُ علينا أن نفتِّشَ في حالنا، وأن نُطهِّرَ بيوتَنا من المُنْكَراتِ والمُلْهِيَات، وأن نُصْلِحَ أَحْوالَنا جميعاً، وأن نَتَنَاصَحَ فيمَا بيْنَنا، وأن نُؤدِّيَ شعائرَ اللَّه؛ لعلَّ العذابَ ونُذُرَه أن تَزُولَ وأن تَذْهبَ عنَّا.

وفَّق اللَّهُ الجميع، وصَلَّى اللَّهُ وسَلَّمَ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

الحِكْمَةُ مِنَ الكُسُوفِ(١)

بسمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أَجْمَعِين.

وبعدُ:

ففي الكونِ عِبَرٌ ونذُرٌ؛ عِبَرٌ كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيها نُذُرٌ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

ومن حِلْمِ اللَّهِ ﷻ بعبادِه: أنَّهُمْ إذا أَذْنَبُوا أَنذَرَهُم؛ لئلَّا يُحِيطَ بهم العذابُ بغتةً، ومِنْ رَحْمَةِ اللَّه ﷻ أَنْ تَأْتِيَ الآياتُ لِتُعِيدَ العِبادَ إلى ربِّهم.

وقد انكَسَفتِ الشَّمسُ في عهد النَّبيِّ ﷺ، فقال لأصحابِه: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا» (متفق عليه).

وعِلْمُ النَّاسِ بالكُسُوفِ أو بالخُسُوفِ لا يزيدُ إلَّا عِبْرَةً وخَوْفاً من اللَّه ﷻ؛ لأنَّ العبادَ مع عِلْمِهِم بِحُدوث الكُسُوفِ وفي زمَنِه إلَّا أنَّهم لا

(١) أُلقيت يوم الاثنين، التاسع والعشرين من شهر شعبان، سنة ست وعشرين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

يستطيعون أن يَمْنَعُوا وقوعَه، ولا يستطيعونَ أن يُقَدِّمُوا أو يُؤَخِّرُوا حُدُوثَه، كما أنَّهم لا يَسْتَطِيعُونَ أن يَنْقُلُوا هذا الكُسُوفَ من مكانٍ إلى مكانٍ.

ومَا يَحْدُثُ في الكونِ هو إنذارٌ من اللَّه ﷻ بحلول العقابِ على عباده؛ لِيعودَ العبادُ إلى ربِّهم.

ومع كثرةِ النِّعَمِ وتوالِيهَا وإغراقِنا فيها؛ يَجِبُ علينا شُكرُ النِّعَم، والبُعْدُ عن المعاصي، وإنَّ الإغراقَ في المَعَاصِي أو المُجاهَرَةَ بها؛ مِمَّا يُؤْذِنُ بِعُقُوبةٍ من اللَّه ﷻ، قال ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِذَا جَهَرَ العِبَادُ بِالذَّنْبِ؛ أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِالعَذَابِ».

فيجبُ على كلِّ مُسلمٍ منَّا أن يُحَاسِبَ نفْسَه، وأن يَتُوبَ إلى اللَّه، وأن يُنِيبَ إليه، وأن يُقْلِعَ عن المعاصي، وأن يُعلنَ التَّوبة، لا سيِّمَا وأنَّ نذَارَة الآيةِ - الكُسُوفِ - عامَّةٌ لجميعِ الخَلْق.

نسألُ اللَّهَ ﷻ أَنْ يَتُوبَ علينا، وأن يَرُدَّنا إليه ردّاً جميلاً، وأن يُكرِّهَ إلينَا الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَان، وأن يَجعلَنا من عباده المُتَّقين.

وصَلَّى اللَّهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أَجْمَعِين.

أَسْبَابُ تَجلِّي الخُسُوفِ(١)

بسمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أَجْمَعِين.

وبعدُ:

فاللَّهُ سبحانه له الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، ومُتَّصِفٌ بصفاتٍ عُلَا، ومِنْ صِفَاتِه سبحانه: **القُوَّةُ والقُدْرَة**، فهو قادر على أَنْ يُقلِّبَ الأرضَ مِنْ عُلُوٍّ إلى سُفْل، وقادرٌ أن يُسْقِطَ السَّماءَ على الأرض، وعلى أَنْ يُبَعْثِرَ النُّجومَ حتى يَراها النَّاسُ فَيَهْلِكُوا من الفَزَعِ والذُّعْر.

ومِنْ صِفَاتِه ﷻ: **الرَّحْمَةُ**؛ فهو رَحِيمٌ بخلْقِه، لَطِيفٌ بهم.

ومِنْ صِفَاتِه: أنَّه سبحانه **حَلِيمٌ**؛ لا يَسْتَعْجِلُ مُذْنِباً بِذَنْبِه؛ وإنَّما يُمْهِلُه، حتى إذا أَخَذَهُ سبحانه لم يُفْلِتْهُ.

وإذا أَظْهَرَ العبادُ ذنوباً أَظْهَرَ اللَّهُ ﷻ لهم آياتٍ؛ لَعَلَّهُم يَرجِعُون إليه ويَتُوبُون، قال ﷻ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأَيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾، وآيةٌ عظيمةٌ يُشَاهِدُهَا الجميع - الصَّغيرُ والكبير، والذَّكَرُ والأنثى، والأَصَمُّ والأَخْرَس، ويُشَاهِدُها العَرَبيُّ والأَعْجَميُّ -؛ أَلَا وَهِي: خُسُوفُ القمر.

---

(١) أُلقيت يوم السبت، الخامسَ عشَر من شهر محرَّم، سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وكان أهلُ الجاهليَّة - وهم في جَاهِلَيَّتِهِم - إذا رَأَوْا خُسُوفَ القمر؛ فَزِعُوا وأَصَابَهُم الذُّعْرُ، وأَصَابَهُم الخوفُ، ويقولون: «مَاتَ عَظِيمٌ أَوْ وُلِدَ العَظِيمُ»؛ أي: أنَّ شيئاً في الكون قد تَغَيَّر؛ فلمَّا أتى الإسلامُ بيَّن لهم النَّبيُّ ﷺ لَمَّا خَسَفَ القَمَرُ في عهدِه أو لَمَّا كَسَفتِ الشَّمسُ في عهدِه؛ قال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ؛ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ**» (رواه مسلم).

فذَهَابُ ضَوْءِ القَمَرِ من آيات اللَّه ﷻ؛ لِيَعودَ البشرُ إليه ﷻ.

فإذا قيل: إنَّنا نَعْلَمُ متى خُسُوفُ القَمَر ومتى يَزُولُ هذا القَمَر، فأيُّ آيةٍ في التَّخويف فيه؟

نقول: إنَّ عِلْمَ النَّاس به ممَّا يزيدُ التَّخويفَ به؛ فالبشرُ إذا عَلِمُوا به جميعاً لا يستطيعون - ولو اجتمعوا جميعاً مع إِنْسِهِم وجِنِّهم - أن يُزيلوا هذه الآية! ولو أَسْقَطَ اللَّهُ ﷻ القَمَرَ عليهم؛ لم يَسْتَطِيعُوا رَفْعَهُ ولو شيئاً يسيراً.

فدلَّ على أنَّ هذه الآيَةَ باقيةٌ، وكلَّما ظَهَرَ عِلْمُ النَّاس فيها؛ كلَّمَا ظَهَرَ عَجْزُهُم فيها؛ ولهذا يجب على العباد جميعاً - مُسلِمِهِم وكافِرِهِم - أن يَعُودُوا إلى اللَّه ﷻ تَذْكِيراً بهذه الآية؛ لأنَّ في ذلك إشعاراً بأنَّ الخلْق قد أَذنبوا وأَظْهَرُوا ذُنُوباً كثيرة، فيجبُ على الجميع أن يَعُودُوا إلى اللَّه.

وغيرُ المُسْلِم يجبُ على المُسْلِم أن يدعوَه إلى اللَّه ﷻ، والمُذنِبُ يجبُ عليه أن يُقْلِعَ عن الذَّنْب الَّذي وقَع فيه؛ قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى

ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، والمغفرةُ والإنابةُ والتَّوبةُ والرُّجوعُ إلى اللَّه ﷻ؛ ممَّا يزيدُ شَرَفَ الإنسان، وممَّا يَرْفَعُه عُلُوّاً، وممَّا يَزيدُه رِفعةً عند اللَّه ﷻ.

ومِنْ كَرَمِه سبحانه أنَّ السَّيِّئاتِ تُبَدَّلُ إلى حَسَناتٍ إذا تابَ العبدُ، وأَنَابَ إلى اللَّه؛ قال شيخ الإسلام: «إِذَا تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً؛ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْراً مِنْهُ قَبْلَ الخَطِيئَةِ».

لهذا يجبُ على الجميع أن يَدْخُلُوا في هذه العبادة - وهي التَّوبة -، وأن يُجَدِّدوا إيمانَهُم يوماً بعد يومٍ، وكان النَّبيُّ ﷺ يَطْرُقُ بابَ هذهِ العبادةِ، ويَتُوبُ إلى اللَّه ﷻ، ويُعْلِنُ التَّوبةَ في المَجْلِسِ الواحد أكثرَ من سبعين مرَّةً.

فيجبُ على مَنْ كان ظَالِماً للخلْق أن يَرفعَ ظلْمَهُ عنهم - سواءً في الأموال، أو في الحقوق، أو في المُعَامَلات، وغيرِها -، ومَنْ كَانَ مُقَصِّراً مع ربِّه ﷻ في أداءِ الفَرَائضِ والواجبات؛ عليه أن يَتُوبَ وأن يؤَدِّيَها، ومَنْ كان مُوغِلاً في العصيانِ والغَفْلةِ واتِّباعِ الهوى؛ يجبُ عليه أن يُحَاسِبَ نفْسَه وأن يُعِيدَ نفْسَه إلى طريق الجَادَّة والصَّواب.

واللَّهُ ﷻ يَفْرَحُ بتوبةِ العبد أَشدَّ فَرَحٍ يَعْلَمُهُ النَّاس، كلُّ ذلك دعوةٌ للخلْق إلى التَّوبةِ إلى اللَّهِ ﷻ.

فعلينا جَمِيعاً أن نُحَاسِبَ أنفسَنا، وعلينا جميعاً أن نَفْتَحَ صَفْحةً مُشْرِقَةً معَ اللَّه ﷻ؛ فالدُّنْيا قصيرةٌ، والموتُ يَتَخَطَّفُ النَّاسَ مِن هُنَا وهُنَاك، وإذا ماتَ الإنسانُ فأقاربُه الأقربون بعد فترةٍ وجيزةٍ قد يَنْسَونه،

فلا يَبْقَى لك سِوى العمل؛ قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مَحْبُوسَةٌ بِعَمَلِهَا.

نَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ أن يَرْزُقَنا وإيَّاكُم التَّوبةَ النَّصُوحَ، وأن نَعُودَ إليه، وأن يَرْزُقَنا الإنابةَ إليه ﷻ، وأن يَرْزُقَنا الإخلاصَ في القولِ والعمل، وأن يَجْعلَنا من أوليائِه وخُلَّصِ عباده.

وصَلَّى اللَّهُ وسَلَّمَ على مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أَجْمَعِين.

الفصل الثَّالث

العِيـــــــــدَانِ

عِيدُ الفِطْرِ(١)

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهده اللَّه فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ:

فاتَّقُوا اللَّه - عباد اللَّه - حقَّ التَّقوى، وراقِبُوه في السِّرِّ والنَّجوى.

أيُّها المسلمون:

مِن صفات اللَّه تعالى: **الشُّكْرُ والكَرَمُ**، وبفضلِه سبحانه يُذِيقُ الطَّائِعين أَثَراً مِن آثارِ عبادتِهم في الدُّنيا؛ لِيتحقَّقَ لهم صِدقُ وعدِه في ثوابِه لهم بجنَّاتِ النَّعيم.

وفي شهرِ رمضانَ ذَاقَ المُسْلِمُون نفحاتٍ مِن ربِّ العالمين؛ مِنْ تعلُّقِهِم باللَّه، وانشراحِ صدورهم، وصفاءِ قلوبهم؛ لِيُلَازِمَ العبادُ طاعة ربِّهم في أيَّامِ دَهْرِهِم، لِتَحْقِيق النَّعيمِ الَّذي هو غاية النُّفوسِ ومَطْلُوبُها، وبه ابتهاجُها وسرُورُها، والخلْق كلُّهم يَنْشُدُون رغبةً وفِعلاً.

(١) أُلقيت يوم الجمعة، الأول من شهر شوال، سنة تسع وثلاثين وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

والنَّعيمُ التَّامُّ إنَّما هو بالتَّمسُّك بالإسلام عِلماً وعملاً؛ فأهلُه في نعيمٍ دائمٍ في الدُّنيا والبَرْزَخِ والآخرة؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

ففي الدُّنيا شَرَحَ اللَّهُ صدُورَهم للإسلام، وأحياهم به، وجَعَلَهم له نوراً؛ قال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وكَتَبَ لهمُ الرَّحْمَة في الدَّارَيْن؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأسعَدَهُم سبحانه فأثابَهُم في الدُّنيا، وما أَعَدَّه لهم في الآخرة خيرٌ وأعظَم؛ قال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وأكبرُ مِنَنِ اللَّه على عباده في الدُّنيا: أَنْ حبَّبَ إليهم الدِّينَ، وزيَّنَه في قلوبِهم، وأَذَاقَهُم حلاوةَ طاعتِه؛ فتَجمَّلَتْ بواطِنُهم بأصولِ الدِّين وحقائِقِه، وتزيَّنَتْ ظَوَاهِرُهُم بامتِثالِ أَوَامِرِه؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

فالإقبالُ على اللَّه والرِّضَا به وعنه: ثوابٌ عاجِلٌ، وجنَّةٌ حاضِرة، والإيمانُ باللَّه ورسولِه: جِماعُ السَّعادةِ وأصلُها.

وحلاوةُ الإيمانِ في القلبِ: أمارةٌ على أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحقُّ، سألَ هِرقلُ أبا سُفيان عن نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ وصِدْقِ نبُوَّتِه؛ فقال: «وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؛ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ - أَيْ: حَلَاوَتُهُ - القُلُوبَ - لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ -» (متفق عليه).

والمُؤمنُون أطيَبُ الناسِ عَيشاً، وأنعَمُهم بالاً، وأشرَحُهم صدراً، وأسَرُّهم قلباً؛ قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ومِنْ سَعَادَتِهم: أنَّ الأمنَ في القلبِ وخارِجِه قَرِينُ حياتِهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وليس في الدُّنيا مِن اللَّذَّاتِ والنَّعيم؛ أَعْظَمُ مِن العِلْمِ باللَّهِ ومعرفتِه، فإذا عرَفَ العبدُ ربَّه أحبَّه وعَبَدَه، ولا شيءَ يَعدِلُ توحيدَ اللَّه في شَرْحِ الصَّدرِ وإسعادِه، ومُنتهَى الفرَحِ إنَّما يكونُ به تعالى؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فالفرَحُ بفَضْلِه ورحمتِه؛ تَبَعٌ للفَرَحِ به سبحانه؛ فالمُؤمنُ يَفرَحُ بربِّه أعظمَ مِنْ فرَحِ كلِّ أحدٍ بما يَفرَحُ به، ولا يَنال القلبُ حقيقةَ الإيمانِ؛ حتى يجِدَ طعمَ هذه الفَرحةِ ويَظهَرَ سُرورُها في قلبِه، ونضْرَتُها في وجهِه، وكلَّما قَوِيَتْ مَعْرفةُ العبدِ باللَّه؛ قَوِيَتْ مَحبَّتُه له، وليس للعبدِ سُرورٌ إلَّا في محبَّةِ اللَّه والتَّقرُّبِ إليه بما يُحِبُّه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وعبادةُ اللَّه وحدَه: هي غايةُ الخلقِ والأمرِ، وبها نَعِيمُ العِبادِ وكَرَامتُهم؛ فالصَّلاةُ قُرَّةُ عيُون المُسْلِمين؛ قال ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» (رواه أحمد)، وكيف لا يَنْعَمُ المُؤمنُ بصَلَاتِه، واللَّهُ قِبَلَ وَجْهِه إذا صَلَّى، وأَقْرَبُ ما يكونُ مِن ربِّه وهو ساجِدٌ فيها؟! وقد قال المُشرِكُون في معركةٍ مع المُسلمين: «إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ

مِنَ الأَوْلَادِ» (رواه مسلم)، وكلَّما ذاقَ العبدُ حلاوةَ الصَّلاة؛ كان انجِذابُه إليها أشدَّ، وامتِثالُه إليها أسرَع.

والزَّكاةُ قَرينةُ الصَّلاة، مَنْ أَخْرَجَهَا طيِّبةً بها نفْسُه؛ أذاقَهُ اللَّهُ حلاوةَ الإيمانِ وطَعْمَه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ: انْشَرَحَ لَهَا قَلْبُهُ، وَانْفَسَحَ لَهَا صَدْرُهُ، وَقَوِيَ فَرَحُهُ، وَعَظُمَ سُرُورُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا هَذِهِ الفَائِدَةِ وَحْدَهَا؛ لَكَانَ العَبْدُ حَقِيقاً بِالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَالمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا».

وللصَّومِ لذَّةٌ ولأهلِه به فرحةٌ؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**» (متفق عليه).

والحَجُّ تهفُو إليه النُّفوسُ فتَسعَدُ، وتَتَسابَقُ إلى مشاعِرِه.

والفَلَاحُ كلُّه في تزكِيةِ النَّفسِ بالعبادةِ ومكارِمِ الأخلاقِ؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

والدَّاعِي إلى اللَّهِ مُفْلِحٌ يَهْنَأُ في نَعِيمٍ وسُرورٍ؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والعِلْمُ النَّافعُ يَشْرَحُ الصَّدرَ ويُوَسِّعُه، ويُقرِّبُ مِن الرَّبِّ؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ الآخِرَةِ إِلَّا نَعِيمَ الإِيمَانِ وَالمَعْرِفَةِ».

وذِكْرُ اللَّهِ يَشْرَحُ الصَّدرَ، وبه يَنْعَمُ القلبُ، وهو أخَفُّ الأعمال مَؤُونةً، وأكثَرُها فرَحاً وابتِهاجاً؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾.

وأَعْظَمُ الذِّكرِ: القُرآنُ العظيمُ، هو هُدًى وشِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنين، وهو فضْلُ اللَّه ورحمتُه الَّذي يَفْرَحُ به العباد؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾، وإذا سمِعَ المُؤمنُ آياتِ اللَّه تُتلَى اسْتَبْشَرَ فرَحاً وسُرُوراً؛ لِمَا يَجِدُه في قلبِه مِن السَّكِينةِ والطُّمأْنينةِ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ؛ فَانْظُرْ مَحَبَّةَ القُرْآنَ وَالْتِذَاذَكَ بِسَمَاعِهِ».

للقُرآنِ حَلَاوةٌ أَلَذُّ مِن العَسَل؛ أَتَى رَجُلٌ رسولَ اللَّه ﷺ، فقال: «إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي المَنَامِ ظُلَّةً - أَيْ: سَحَابَةً - تَنْطُفُ السَّمْنَ وَالعَسَلَ - أَيْ: يَقْطُرُ مِنْهَا -، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بِأَبِي أَنْتَ وَاللَّهِ لَتَدَعَنِّي فَلَأَعْبُرَنَّهَا! - أَيْ: أُفَسِّرُ الرُّؤْيَا - فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **اعْبُرْهَا**، قَالَ: أَمَّا الظُّلَّةُ فَالإِسْلَامُ، وَأَمَّا الَّذِي يَنْطُفُ مِنَ العَسَلِ وَالسَّمْنِ فَالقُرْآنُ، حَلَاوَتُهُ تَنْطُفُ - أَيْ: يَقْطُرُ حَلَاوةً -» (متفق عليه).

ولا يَزَالُ أَهْلُ الطَّاعةِ في نَعيم حتَّى يَظْفَرُوا بمُنْتَهاه في جَنَّاتِ النَّعيم، وأعظمُ لذَّاتِهم فيها: النَّظرُ إليه سبحانه وسَمَاعُ كَلَامِه مِنْه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ**

إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ» (رواه مسلم)، وكان مِن دُعَائِهِ ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**» (رواه النسائي).

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، ولِلَّهِ الحمد.

مَنْ ذاقَ حلاوةَ الإيمان لَمْ يَكَدْ يَشْبَعُ مِنْه؛ فيُقبِلُ على الطَّاعةِ، ويَظْهَرُ أثَرُهَا على لِسَانِه وجَوَارِحِه، ويَنْجُو مِنْ كلِّ ما يُفسِدُ عليه دِينَه؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، قال ابن رجبٍ رحمه الله: «إذَا وَجَدَ القَلْبُ حَلَاوَةَ الإيمَانِ؛ أَحسَّ بِمَرَارَةِ الكُفْرِ وَالفُسُوقِ وَالعِصْيَانِ؛ وَلِهَذَا قَالَ يُوسُفُ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾».

ومتَى ذاقَ العبدُ طعمَ الإيمانِ؛ لَمْ يَتطلَّعْ لمَدحِ النَّاسِ، وأورَثَه اللَّه الثَّباتَ على الدِّينِ، ودوامَ العبادةِ ومَحَبَّتَها، والزِّيادةَ مِنها.

للدِّين حلاوةٌ وطَعْمٌ؛ مَنْ ذاقَه تَسلَّى به عن الدُّنيا وما عليها، وهانَتْ عليه المصائِبُ؛ قال السَّحرةُ لفرعَون لمَّا ذاقُوا حلاوةَ السُّجُود والإيمان: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وقالُوا له بعد ما توعَّدَهُم بالقتلِ والصَّلبِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، ولِلَّهِ الحمد.

نعيمُ الإيمان مَشْرُوطٌ بالإخلاصِ للَّه، وبالإخلاصِ والنَّصِيحةِ ولُزوم الجماعةِ سَلامةُ الصَّدرِ وانشِراحُه؛ قال ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ» (رواه الترمذي).

وحَلاوةُ الإيمانِ تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ العبدِ لربِّه؛ وذلك بِتَكْمِيلِها وتَفْرِيغِهَا ودَفْعِ ما يُضادُّها؛ قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» (متفق عليه).

ولا يجِدُ العَبْدُ أُنْسَ الطَّاعةِ حتى يَكُونَ فرَحُهُ بدينِه وعبادتِه أَشَدَّ فَرَحاً مِن كلِّ شيءٍ، وحتَّى يكونَ أشدَّ تسليماً لربِّه ونبيِّه؛ قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ؛ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً» (رواه مسلم).

ودُعاءُ اللَّه وحُسْنُ الظنِّ به مِفْتَاحُ كلِّ خَيرٍ؛ قال اللَّه في الحديثِ القُدْسيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» (متفق عليه).

والإيمانُ بالقَضَاءِ والقَدَرِ يَؤُولُ بصَاحِبِه إلى السَّعادة، قال عُبادةُ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه لابنِه: «يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ: أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ» (رواه أبو داود)، قال إبراهيمُ الحربيُّ رحمه الله: «أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَجْرِ مَعَ القَدَرِ؛ لَمْ يَتَهَنَّ بِعَيْشِهِ».

وعُنوانُ سعادةِ العبدِ: أنَّه إذا أَنْعمَ اللَّهُ عليه شَكَرَ، وإذا ابتُلِيَ صَبَرَ، وإذا أَذْنَبَ استغفَرَ.

والإكثارُ مِن النَّوافِلِ، والاستِعانةُ بالصَّبر والصَّلاةِ؛ يَفتَحُ على العبدِ أبواباً مِن النَّعيم؛ قال اللَّه في الحديثِ القُدْسيِّ: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**» (رواه البخاري).

ومَنْ رأَى أنَّه لا يَنشرِحُ صَدرُه، ولا يَحصُلُ له حلاوةُ الإيمان ونُورُ الهِداية؛ فليُكثِرِ التَّوبةَ والاستِغفار، وَلْيُلازِمِ الاجتِهادَ بحسبِ الإمكان؛ فإنَّ اللَّه يقُولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

وكفُّ النَّفْسِ عن الحرامِ: تَعْقُبُه لذَّةٌ وسَلَامةٌ، والنَّظرُ للمُحرَّمات سَهْمٌ مِن سِهَامِ إبليس؛ مَنْ تركَه خَوْفاً مِنَ اللَّه أثابَه اللَّه إيماناً يجِدْ حلاوتَه في قلبِه، قال مُجاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «غَضُّ البَصَرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ يُورِثُ حُبَّ اللَّهِ».

وبعدُ، أيُّها المسلِمون:

فلا نعيمَ للعبادِ ولا سُرورَ لهم إلَّا بمعرفةِ اللَّه ومحبَّتِه والفرَحِ بطاعتِه، ولا نَعيمَ لهم في الآخِرة إلَّا بجوارِه في دارِ النَّعيم والنَّظَر إليها، فهاتان جنَّتان لا يدخُلُ الثَّانِيةَ مِنهما إلَّا مَنْ دخَلَ الأُولَى.

ومَنْ لَمْ يَجِدْ للعملِ حلاوةً في قلبِه وانشِراحاً؛ فَلْيَتَّهِم نفْسَه وعملَه؛ فإنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ، وليس العَجَبُ مِمَّنْ لَمْ يَجِدْ لذَّةَ الطاعة؛ إنَّما العَجَبُ مِمَّنْ وَجَدَ لذَّتَها ثم فارَقَها.

أعوذ باللَّه من الشَّيطان الرَّجيم

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

بارِكَ اللَّه لي ولكم في القرآنِ العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمدُ للَّهِ على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليماً مزيداً.

أيُّها المسلمون:

في العِيدِ تَتَجدَّدُ للمسلمين أَفْرَاحُهم، وتَتَجلَّى نِعَمُ اللَّه ومَوَاهِبُه عليهم؛ فأَظْهِرُوا فيه الفَرَحَ والسُّرُورَ، وأَدْخِلُوا السَّعادةَ على غيرِكم، ووسِّعُوا على أَنفُسِكم وأَهلِيكُم بما أُبِيحَ لكم، واجعَلُوا فَرْحَتَكُم بالعِيدِ مَصْحُوبةً بتقوَى اللَّه ومُراقبتِه، واشْكُرُوه على ما مَنَّ به عليكم.

وعلى الزَّوجةِ أَنْ تُدخِلَ السُّرورَ على زَوْجِهَا، وتُحْسِنَ عِشْرَتَهَا معه، وأَنْ ترعَى أولادَه، وتُحسِنَ تربيتَهم لها.

وعلى المرأةِ أَنْ تُرْضِيَ ربَّها بالحِشْمَةِ والحياءِ والسِّتْر والعَفَافِ، وطاعتِه سبحانه.

واحذَرُوا جميعاً العِصْيَانَ بعد شَهْرِ الطَّاعة، واسْأَلُوا اللَّهَ القَبولَ والتَّوفيقَ، فرَمَضانُ مَوْسِمٌ للخيرِ تَعْقُبُه مَوَاسِم، واللَّهُ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِه دَوَامَ العَمَلِ وإِنْ قَلَّ.

ومَنْ أَتَمَّ صَوْمَ الشَّهرِ وأَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ؛ فكأَنَّما صامَ الدَّهرَ كلَّه.

عبادَ اللَّه:

إذا وافَقَ العِيدُ يومَ الجُمُعَةِ - كهذَا اليَوْم -؛ جَازَ لِمَنْ حَضَرَ العِيدَ أن يُصلِّيَ الجُمُعةَ أو أَنْ يُصلِّيَ ظُهراً.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه ...

عِيدُ الأَضْحَى(١)

اللَّهُ أكبرُ ما لَاحَ صَباحُ عيدٍ وأَسْفَر، اللَّهُ أكبرُ ما هَلَّلَ مُهَلِّلٌ وَكبَّر، اللَّهُ أكبرُ ما أَشْرَقتْ بوارقُ الإِسْعَادِ على مَنْ قصَدَ البيتَ الحرام، اللَّهُ أكبرُ ما ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ عند المَشَاعِرِ العِظَام، اللَّهُ أكبرُ ما حَدتْ بهم مَطَايَا الأَشْوَاقِ إلى عَرَفاتٍ، وما ابْتَهَلُوا في ذلك الموقف وحُطَّتْ عنهم السَّيِّئات، اللَّهُ أكبرُ عددَ مَنْ طَافَ بالبيتِ العَتِيقِ وخَضَعَ لِربِّه واسْتَكَان، اللَّهُ أكبرُ عدَدَ ما يُتقرَّبُ به إلى اللَّه مِنْ قربانٍ، اللَّهُ أكبرُ ما لَبَّى المُلَبُّون، وطَافَ الطَّائِفُونَ وأَهْدَى المُضَحُّون.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، ولِلَّهِ الحمد.

الحمد للَّه لا وَاضِعَ لِمَا رَفَع، ولا رَافِعَ لِمَا وضع، ولا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَع، عَلَا بِقَهْرِه وقَدْرِه وذَاتِه فوقَ جميعِ مخلوقاتِه وَارْتَفَع، وفَطَرَ المَصْنُوعاتِ على ما شاءَ فأَتْقَنَ ما صَنَع، منهُ الفضلُ يُرْتَجَى، والكرمُ يُبْتَغَى.

أَحْمَدُه سبحانه على نِعَمِهِ الغِزَار، وأَشْكُرُهُ على مُتَرَادِفِ فضْلِه المِدْرَار.

---

(١) أُلقيت يوم السبت، العاشر من شهر ذي الحِجة، سنة تسع عشْرة وأربع مئة وألف من الهجرة، في المسجد النَّبويِّ.

وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، جَعلَ الأعيادَ مواسمَ أفراحِ الطَّائِعِين، وأيَّامَ سُرورِ المُتعبِّدين.

وأشهد أنَّ نبيَّنا مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه نبيُّ الرَّحْمَة والهُدَى، وبَحْرُ الجُودِ والنَّدَى، أَعظِمْ به نَبيّاً! وأَكْرِمْ به رسولاً! صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه بُدُورِ الدُّجَى وأَعْلَامِ الهُدى.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، وللَّهِ الحمد.

أيُّها المسلمون:

إنَّ دينَ الإسلام بُنيَ على أُسُسٍ وقواعدَ ثَابِتةٍ، دينٌ مِنْ عندِ ربِّنا تَتَلَاقَى فيه أحكام الشَّريعَة مع نزاهة المشاعر، وتَتَوَازَنُ فيه الأوامرُ والزَّواجر، دينٌ كاملٌ شاملٌ يُخَاطِبُ العقلَ، ويَدْعُو الخليقةَ إلى أن تكونَ راغبةً راهبةً أمامَ ربِّها الإله الواحد.

دينُ الإسلامِ هو الذي جَمعَ الحقَّ كلَّه في أسلوبٍ من القولِ والبيان، خالٍ من اللَّغْوِ والتَّعقيد، وهو الهُدى المُغنِي عن تجاربِ الخطأِ والصَّواب، وهو الصِّراطُ الحقُّ الواقي من الكَبْوَة والعثار.

أحكامُ الإسلام لا يَختلفُ فيها صحيحُ النَّقلِ مع صريحِ العقل، ولا يَتَنَاقَضُ فيه الوحيُ مع سليمِ الفِكر، صفاءُ المُعْتقَدِ والإيمانُ باللَّه؛ هو أَساسُ الفضائل، ولِجامُ الرَّذائل، وبَلْسَمُ الصَّبر عند المصائب، ونورُ الأمل، وسَكَنُ النُّفَوس، يُحَتِّمُ على أهلِه الدَّعوة إليه، والصَّبر على الأذى فيه.

مصدرُه كتابُ هدايةٍ، جامعٌ للسُّلوكِ الإنسانيِّ الصَّحيح، جَمَعَ كلَّ شيءٍ، وما فرَّط فيه من شيءٍ، أَوْضَحَ كلَّ ما يقرِّب إلى اللَّه، وبيَّن كلَّ ما يُبعِدُ عن اللَّه، قرآنٌ كريمٌ لا يأتيه الباطلُ من بيْن يديه ولا من خلْفه، وإنَّ السَّعادةَ الحَقَّة لا تكونُ إلَّا في صدقِ الإيمانِ ونورِ الإسلام والارتباطِ الصَّادق باللَّهِ الواحد الدَّيَّان، إيمانٌ يَصْحَبُ المرءَ في حياتِه كلِّها.

ومَنْ قلَّ نصيبُه من الإيمان؛ اخْتلَّتِ استقامتُه، واعْوَجَّتْ مسيرتُه، وجَرَفَتْه الأهواءُ العَاتِيَة، وحَرَمَتْهُ الأغراضُ المُتَبَايِنَة، فتَرَاهُ لا يَحْمِلُ رِسَالةً، ولا يُقِيمُ دَعْوةً، يَنْحَرِفُ عند أَدْنَى مِحْنةٍ، ويَضِلُّ عند أدنى شُبهةٍ، ويَزِلُّ لأوَّل بارقةِ شهوةٍ، دينُهُ ما تهوى نفْسُه، وعقيدتُهُ ما يُوافقُ هَوَاه، قد لا يَنقصُه عِلمٌ أو رَجَاحةُ عقلٍ، ولكن يَفُوتُه التَّوفيقُ والصَّواب، فلا يَلْتَجِىءُ إلى اللَّه ولا يَطْلُبُ الحقَّ من كلامِه أو كلامِ رسوله ﷺ.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، ولِلَّهِ الحمد.

للصَّلاةِ في الدِّينِ المَنْزِلةُ العَلِيَّة، والرُّتبةُ السَّنيَّة؛ فهي عمودُ الإسلام ورُكنُ المِلَّةِ ورأسُ الأمانة، بها صلاحُ الأعمالِ والأقوال، فُرِضَتْ في أشرفِ مَقَامٍ وأرفعِ مكانٍ، أداؤُها نورٌ في الوَجْهِ والقلب، وصلاحٌ للدِّين والرُّوح، تُطهِّرُ القلوبَ، وتُكفِّرُ السَّيِّئاتِ، تَجْلِبُ الرِّزقَ والبرَكة؛ يقول ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ

نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، جمَعَ اللَّهُ فيها الخيرَ كلَّه بأبلغِ قولٍ وأوجزِ عبارةٍ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، ومِنَ المُحافَظَةِ عليها: أَمْرُ الأهلِ والأقربين بها، والأخذُ على يد المُفرِّط منهم، وإنَّ مِنْ أعظمِ المَصائِبِ وأقبحِ المعايب: ترْكَ الصَّلاة، مَنْ تَركَهَا عَظُمَتْ عقُوبَتُه، وطَالَتْ حَسْرَتُه ونَدَامَتُه، وليس بعد ضياعها والتَّفريطِ بها إسلامٌ؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ: الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» (رواه أحمد).

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، ولِلَّهِ الحمد.

في طيبِ المَكْسَبِ وصلاحِ المال: سَلامةُ الدِّينِ وصَونُ العرض، احْرِصْ - أيُّها المسلِمُ - على أن لا تَأْكُلَ إلَّا حلالاً، ولا تُنْفِقَ مالَك إلَّا في حلالٍ؛ قال بعض السَّلَف: «لَوْ قُمْتَ فِي العِبَادَةِ قِيَامَ السَّارِيَةِ مَا نَفَعَكَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَدْخُلُ بَطْنَكَ».

أَكْلُ الحرامِ يُعْمِي البَصِيرَة، ويَنزِعُ البرَكات، ويَجلِبُ الفُرْقَةَ والشَّحْنَاء، ويَحجبُ الدُّعاءَ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

ولْتَكُنِ النُّفُوسُ بالحلالِ سَخيَّةً، والأَيْدِي بالخيرِ نديَّةً، ومَنْ بَذَلَ اليومَ قليلاً؛ جَنَاه غداً كثيراً، يقول عليٌّ رضي الله عنه: «مَنْ كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَامَ لِلَّهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ؛ عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالبَقَاءِ، وَإِنْ لَمْ يُقِمْ لِلَّهِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ؛ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالفَنَاءِ»، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾،

ومَنْ وُفِّق لبذلِ معروفٍ، أو أداءِ إحسانٍ؛ فلْيَكُنْ ذلك بِبَشَاشَةٍ ووجهٍ طلقٍ، وإنَّ مِنْ خيارِ بيوتِ المُسْلِمِين: بيتاً فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إليه، وخَفْضُ الجَنَاحِ لليَتَامَى والبَائِسِين؛ دَلِيلُ الشَّهَامَةِ وكمالِ المُرُوءَة، ويَحْفَظُ - بإذن اللَّه - من المِحَنِ والبلايا.

أُمَّةَ الإسلَام:

الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر: سِيَاجٌ متينٌ تقومُ به الأُمَّة؛ لتَحْفَظَ دينَها، ويدومَ خيرُها، فتَحفظَ الصَّالحَ مِنْ أمورِها وشؤُونِها، وتَقْضِي على الشَّيءِ الفاسدِ مِنْ أحوالِها وأوضاعِها، إنَّه الوَثاقُ المتينُ الَّذي تَتَمَاسَكُ به عُرى الدِّين، وتَظْهَرُ به أعلامُ الشَّريعة، ولا تُسْتَوْفَى أركانُ الخَيْريَّة لهذه الأُمَّةِ إلَّا به: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، بارتفاعِ رايتِه يَعْلُو أهل الحقِّ والإيمان، ويُذَلُّ أهلُ المعاصي والأهواء، بدونِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر تَعمُّ الغفلةُ، وتَضْمَحِلُّ الدِّيَانَةُ، وتَعمُّ الضَّلالةُ وتَفْسُدُ الدِّيار، ويَهْلِكُ العباد؛ فاحْرِصُوا عليه أَتمَّ الحرص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، وللَّهِ الحمد.

الغِيبةُ مَظْهَرٌ من مظاهرِ الخَلَل في المجتمع، ودليلٌ على ضعْف الدِّيانة، يقول الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللَّهِ! لَلْغِيبَةُ أَسْرَعُ فِي دِينِ الرَّجُلِ

مِنَ الأَكْلَةِ فِي الجَسَدِ»، والمُبتلَى بها ذو قلبٍ مُتَقلِّبٍ وفُؤَادٍ مُظْلِمٍ، انْطَوى على بُغضِ الخَلْق، قلبُهُ مُؤْتَفِكٌ مَرِيضٌ، يَحْسُدُ في السَّرَّاء، ويَشْمَتُ في الضَّرَّاء، على الهَمِّ مُقيمٌ ولِلْحِقْدِ مُلازمٌ، يقولُ عبدُ اللَّه بنُ المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِرَّ مِنَ المُغْتَابِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ».

ذو الغِيبةِ ذَلِقُ اللِّسانِ، صَفِيقُ الوجه، لا يَحْجِزُه عن الاغتيابِ إيمانٌ، ولا تحفظُه مروءةٌ، قال بعضُ السَّلف: «أَدْرَكْنَا السَّلَفَ الصَّالِحَ وَهُمْ يَرَوْنَ العِبَادَةَ فِي الكَفِّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ» إنَّ لكلِّ النَّاس عَوْراتٍ ومَعَايِبَ، وزَلَّاتٍ ومَثَالِبَ، فلا تَظُنَّ أنَّك عَلِمْتَ ما لم يَعْلَمْ غيرُك، أو أنَّك أدركتَ ما عَجزَ عنه غيرُك، فظُنَّ الخيرَ بإخوانِك واعْمَلْ عملَ رَجُلٍ يَرَى أنَّه مُجازًى بالإحسان، مأخوذٌ بالإجرام، والمُوفَّقُ مَنْ شَغَلَه عيبُه عن عُيوبِ النَّاس، ومَنْ عَزَّتْ عليه نفْسُه صانَها وحَمَاها، ومَنْ هَانَتْ عليه أَطْلَقَ لها عِنَانَها، وأَرْخَى زِمَامَها؛ فألقاها في الرَّذائل، ولم يَحفظْها من المَزَالِق.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، وللَّهِ الحمد.

رَحِمُ الإنسانِ هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بالرِّعاية، وأحقُّهم بالعِنَاية، وأجدرُهم بالإِكْرَامِ والحِمَاية، صِلَتُهم مَثْرَاةٌ في المال، ومَنْسَأَةٌ في الأَثرِ، وبرَكةٌ في الأرزاق، وتوفيقٌ في الحياة، وعمارةٌ للدِّيار، يَكتبُ اللَّه بها العِزَّة، وتَمْتَلِئُ بها القلوبُ إجلالاً وهَيْبةً، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» (متفق عليه).

صِلَتُهُم أَمَارةٌ على كرَم النَّفْسِ وسَعَةِ الأُفُق، وطِيبِ المَنْبَتِ وحُسْنِ الوَفَاء، قريبُك قِطْعةٌ منك إِنْ أَحْسَنْتَ إليه فإنَّما تُحْسِنُ إلى شَخْصِك، وإنْ بَخِلْتَ عليه فإنَّما تَبْخَلُ عن نفْسِك، وإذا لَمْ يجدْ إنسانٌ ما يؤدِّي به حقَّ الأقربين؛ فلْيَقُلْ لهم قَوْلاً لَيِّناً، ففي القولِ الميسورِ عِوَضٌ وأَملٌ وتَجَمُّلٌ، ذَوُو الرَّحِمِ يَنْطِقُونَ بالخَطَأِ، وتَصْدُرُ منهم الهَفْوَةُ، وتَقَعُ منهم الكَبْوَة، فإنْ بَدَرَ منهم شيءٌ من ذلك فالزَمْ جَانِبَ العَفْوِ معهم؛ فإنَّ العَفْوَ من شِيَمِ المُحْسِنين، فإنَّ مُعَادَاةَ الأقارب شَرٌّ وبلاءٌ، الرَّابحُ فيها خاسرٌ، والمُنْتَصِرُ مهزومٌ، وكلُّ رَحِمٍ آتيةٌ يومَ القيامةِ أمامَ صاحبِها؛ تَشهدُ له بصلةٍ إِنْ كان وَصَلَها، وتَشهدُ عليه بقطيعةٍ إِنْ كان قَطَعها، واجْعلْ عيدَ هذا اليومِ مُنْطَلقاً لِوَأْدِ القَطِيعةِ، وطَيِّ صحيفةِ الشِّقَاقِ والنِّزاع، والخِلَاف والقَطِيعَة، ووَأْدُها مجالاتُهُ واسعةٌ ميسَّرةٌ، ودروبُه شتّى؛ فَمِنْ بشاشةٍ عند اللِّقاء، ولِينٍ في المُعَامَلَة، إلى طِيْبٍ في القولِ، وطلاقةٍ في الوجه، زِياراتٌ وصِلاتٌ، تفقُّدٌ واستفساراتٌ، مهاتفةٌ ومراسلةٌ، والرَّأي الذي يَجمعُ القلوبَ على المَودَّة؛ خيرٌ مبذولٌ، وبِرٌّ جميلٌ، وإذا أَحْسَنْتَ القولَ فأَحْسِنِ الفعل.

بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثَّانية

الحمد للَّه على إحسانِه، والشُّكر له على توفيقِه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له تعظيماً لشأنِه، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ، أيُّها المسلمون:

زيِّنُوا عيدَكم بالتَّكبيرِ وعُمومِ الذِّكْر؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «وَإِنَّ هَذِهِ الأَيَّامَ: أَيَّامُ أَكْلٍ، وَشُرْبٍ، وَذِكْرٍ لِلَّهِ» (رواه أحمد)، وأَدْخِلُوا السُّرورَ على أنفسِكُم وأهلِيكُم، واجْعَلُوا فرحتَكم بالعيد مَصْحُوبةً بتقوى اللَّه وخشيتِه، ولا تُنْفِقُوا أموالَكُم أيَّامَ العِيدِ فيما حرَّم اللَّه، يقول عَلِيٌّ رضي الله عنه: «كُلُّ يَوْمٍ لَا نَعْصِي اللَّهَ فِيهِ فَهُوَ لَنَا عِيدٌ».

وإذا غَدَا المُصلِّي لصلاة العيد من طريقٍ سُنَّ له أن يَرجعَ من طريقٍ آخر؛ فقد روى البخاريُّ رحمه الله عن جابرٍ رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ».

مَعَاشِرَ النِّسَاء:

إنَّ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تعالى في حَقِّكُنَّ أَنْ تَلْتَزِمْنَ بأَدبِ الإِسْلَام: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وأَطِعْنَ أَزْوَاجَكُنَّ بالمَعْرُوف، واحْفَظْنَ أَعْرَاضَكُنَّ والْتَزِمْنَ بالحِجَابِ الشَّرْعيِّ على الخشية والعِفَّة، واقْرَأْن كِتابَ اللَّه، وتَصَدَّقْنَ ولو من حُلِيِّكُنَّ؛ تَجِدْنَ ثوابَ ذلك عند اللَّه يومَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُون إلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سليمٍ.

اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، وللَّهِ الحمد.

إنَّ مِنْ أعظمِ ما يُتقرَّبُ به إلى اللَّه في هذه الأيَّام الأَضَاحي؛ يقول ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ويَبْدَأُ وقْتُ ذبْحِهَا من بعدِ صلاةِ العِيدِ إلى غُرُوبِ شَمْسِ آخِرِ أيَّام التَّشريق، ولا يُجْزِئُ منَ الإِبِل إلَّا ما تمَّ له خَمْسُ سِنِين، ولا منَ البَقَر إلَّا ما تمَّ له سَنَتَان، ولا من المَعْزِ إلَّا ما تمَّ له سَنةٌ، ولا منَ الضَّأْن إلَّا ما تمَّ له ستَّةُ أشهرٍ، وتُجْزِئُ الشَّاةُ عن الرَّجُلِ وأهلِ بيته، والبَدَنَةُ والبَقَرَةُ عن سبعةٍ.

وأفضلُ كلِّ جنسٍ: أَسْمَنُه وأَغْلَاه ثمناً، والسُّنَّةُ أن يَذْبَحَهَا المُضَحِّي بنفْسِه، ولا يجوزُ أن يُعْطِي الجَزَّارَ أُجْرَتَه منها، ولا يُجْزِئُ في الأَضَاحِي: المريضةُ البَيِّنُ مَرَضُها، ولا العَوْرَاءُ البَيِّنُ عَوَرُها، ولا العَرْجَاءُ الَّتي لا تُطيقُ المشيَ مع الصَّحيحة، ولا الهَزِيلَةُ التي لا مُخَّ فيها، وكُلُوا من الأضاحي، واهْدُوا، وتَصَدَّقُوا، وانْبِذُوا عن أَنْفُسِكُم

الشُّحَّ والبُخْل، وأَنْفِقُوا من مالِ اللَّهِ الذي آتَاكُم، وإذا عَجَزْتَ عن الأُضْحِيَة؛ فاعلمْ أنَّ اللَّهَ لَمْ يُوجِبْهَا عليك، وأنَّ رسولَ الهُدَى ﷺ قد ضَحَّى بكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ، أحدُهما عن نفسِه وأهلِ بيتِه، والآخرُ عن أُمَّته.

ثمَّ اعلموا أنَّ اللَّه أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نَبِيِّه ...

فِهْرِسُ مَوْضُوعَاتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ

لطلب الكميات ٠٥٦٤٤٤٨٤٥٤
دار الدليقان للتوزيع

لطلب الكميات ٠٥٦٤٤٤٨٤٥٤
دار الدليقان للتوزيع